محاضرات

فى

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي

إعداد

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلية	الآداب بقنا
الفرقة	الرابعة
التخصص	التاريخ
عدد الصفحات	٢٣٧
إعداد	أ.م.د محمد عبدالشافى

مقدمة :

تعتبر الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، أو بمعنى أدق حلقة من حلقات النضال بين الغرب المستعمر والشرق المتحرر ، بين الغرب المعتدى والشرق المدافع ، فهى لم تكن حرباً دينية بمقدار ما كانت حرباً استعمارية ، وربما لم يعرف التاريخ الإنسانى ظاهرة تاريخية حملت مصطلحاً مخالفاً لحقيقتها مثل " الحروب الصليبية " .

ويسعدنى أن أقدم لطلابى بجامعة جنوب الوادى مجموعة محاضرات فى تاريخ الحروب الصليبية ، اعتمدنا فيها على ما قدمه أساتذتى فى هذا المجال من معلومات نتيجة لدراساتهم المختلفة ،

أرجو أن تعم الفائدة من هذه المحاضرات

والله الموفق

د / محمد عبد الشافى المغربى
كلية الآداب بقنـا
جامعة جنوب الوادى

فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة
المقدمة	٦
الفصل الأول ماهية الحروب الصليبية	٨-٢١
الفصل الثاني أسباب ودوافع الحروب الصليبية	٢٢-٦٠
الفصل الثالث النشاط الصليبى فى القرن الثانى عشر الميلادى الحملات الأولى والثانية والثالثة	٦١-١٨٠
الفصل الرابع الجبة الإسلامية ودرها فى التصدى للصليبيين	١٨١-١٩٨
الفصل الخامس الحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة	١٩٩-٢١٨
الفصل السادس الجوانب الحضرية بين المسلمين والصليبيين	٢١٩-٢٣٧

الفصل الأول
ماهية الحروب الصليبية

أهداف الفصل الأول

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً
بمعني الحروب الصليبية ومفهومها ومصطلحاتها

الفصل الأول
ماهية الحروب الصليبية

معنى الحروب الصليبية :

الحروب الصليبية حملات حربية وجهها البابوات وملوك وأمراء أوروبا المسيحيون ضد المسلمين فى الشرق فيمت بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وسميت بذلك لأن المحاربين الأوروبيين اتخذوا من الصليب شعاراً رسموه على ملابسهم وعلى دروعهم وأعلامهم دلالة على مغزاها الدينى ، واتخذت الحركة الصليبية من المسيحية ستاراً كاذباً لها ، وشنت هجوماً استعماريا على ديار الإسلام والمسلمين وحملت معها العداء والحقد الدينى .

والحروب الصليبية حلقة من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور منذ حروب الإسكندر المقدونى ضد الفرس ، والرومان من بعده ضد الفينيقيين فى قرطاج فى شمال أفريقيا والبطالة فى مصر ، ثم أخذت بُعداً دينياً عندما بدأ المسلمون يطرقون جنوب أوروبا ووسطها ولذلك مجد المؤرخون الأوروبيون انتصار شال مارتل على المسلمين فى " تور – بواتييه " ، ومن أهم نتائج تلك المعركة أن الأندلس أصبحت هدف حركة الاسترداد المسيحى لطرد المسلمين من أوروبا وأبلغ دليل على ذلك أن المؤرخ المسلم ابن الأثير بدأ حديثه عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى خروج الفرنج إلى بلاد الإسلام والاستيلاء على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس سنة ١٠٨٥م ثم استيلائهم على صقلية سنة ١٠٩١ م . [١]

وليس من قبيل الصدفة التوافق الزمنى بين فترة الحروب الصليبية فى المشرق وفترة ازدياد الضغط المسيحى على مسلمى أسبانيا ، والحروب الصليبية فى المشرق ظلت ما يقرب من مائتى عام من (١٠٩٦ – ١٢٩١م) جاءت خلالها الحملات للسيطرة على ساحل الشام والاستيلاء على بيت المقدس ، ثم وجه الصليبيون من المشرق ومن أوروبا حملاتهم ضد مصر لأنهم وجدوا أنه لا سبيل إلى بقائهم واستمرارهم فى الشرق إلا بالاستيلاء على مصر ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل وانتهت بطردهم نهائياً من عكا آخر معاقلهم سنة ١٢٩١ م على يد السلطان المملوكى خليل بن قلاوون .

وليس أبعد عن الحقيقة والتاريخ من القول بأن الحروب الصليبية لم تكن إلا حروباً دينية إذ لم يكن لها من المسيحية إلا اسمها وأنهم ظلوا دائماً أبعد ما يكونون عن روح المسيحية وهى الديانة السماوية الكريمة التى حرص القرآن الكريم على تكريم نبيها تكريماً لم يحظى به أحد من الأنبياء . (٢)

وأى وازع دينى عند أولئك الغزاة الذين لم يحجموا عن ذبح سبعين ألف مسلم فى المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس فى أيديهم ؟ بل أى وازع دينى كان عند أولئك الصليبيين عندما اقتحموا القسطنطينية وهو البلد الآمن المسيحى ولم يتورعوا عن نهب كنائسها والاعتداء على أهلها المسيحيين وهم إخوانهم فى الدين . (٣)

الحركة الصليبية – المصطلح ومدلولاته المختلفة :

أولى مشكلات البحث فى تاريخ الحركة الصليبية تتمثل فى المصطلح ومدلولاته المختلفة التى تؤدى بالضرورة إلى حال من الفوضى والارتباك ، لا سيما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضا بين دلالته اللغوية

، وحقيقته التاريخية ، لقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالى قرن ونصف قرن من دوران عجلة أحداثها ، والناظر فى مجريات وقائعها يجد مزيجاً من القسوة والوحشة والتدين العاطفى الذى يشوبه التعصب ، ويكتشف فى ذلك كله تناقضاً مع الصليب رمز الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل الآخرين ، ولم يكن الصليب أبداً رمزاً للحرب والقتل والعدوان .

ومن المهم هنا ا، نشير إلى الرجال الذين قاموا بالحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح " الحملة الصليبية " أو " الصليبيين " إذا لم يحدث سوى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى أن ظهرت الكلمة اللاتينية ***Crusesignati*** ومعناها " المرسوم بالصليب " لكى تعبر عن الصليبيين ، لأنهم كانوا يخيطون صلبان القماش على ستراتهم ولم يحدث حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى أن كانت هناك كلمة لاتينية تعنى " الحركة الصليبية " ، وفى بداية المر كان من يشاركون فى الحملة الصليبية يوصفون بأمهم " حجاج " ***Preregrini*** وغالباً ما استخدمت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة ***Peregrinorio*** ومعناها " رحلة الحج " التى كانت شائعة تماماً فى الفترة الباكرة من تاريخ الحركة الصليبية ، كذلك استخدمت كلمة ***Expeditio*** التى تعنى " الحملة " وعبارة " الرحالة إلى الأرض المقدسة " ***Iter in Terramsanctam*** واصطلاح " الحرب المقدسة " ***Bellum Sacrum*** ، ***Gueree Saint*** ، كما استخدمت عبارات ومصطلحات مثل " الحملة العامة " ***Passgim General*** أو " حملة الصليب " ***Expeditio Curxis*** ، أو " مشروع يسوع المسيح " ***Negotium Jhesus Christi*** ، وفى وسعنا أن نسوق عشرات الأمثلة المستقاة من كتابات المؤرخون اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية ولاسيما فى أطوارها الأولى ، بل إنه مما يلفت النظر حقاً أن عناوين مؤلفاتهم جميعاً خلت من ذكر كلمة " الصليبيين " أو " الحملة

الصليبية " وإنما دارت حول " الحملة " و " حجاج بيت المقدس " ، و " الفرنج " ... وما إلى ذلك .

ومن المهم أن نشير إلى أن الكلمة الإنجليزية ***Grusade*** والكلمة الألمانية ***Kreuzzag*** قد ابتكرتا فى القرن الثامن عشر فقط ، وبعد أن كان البحث التاريخى فى الحروب الصليبية قد مضى شوطاً منذ بدأ توماس فوللر ***Thomas Fuller*** الإنجليزى فى القرن السابع عشر أول دراسة باللغة الإنجليزية حول الحركة الصليبية فى كتابه باللغة الإنجليزية القديمة وأسماه ***(Historie of the Holy Warre)*** والملاحظ أنه استخدم عبارة " الحرب المقدسة " أيضاً .

وعلى الرغم من الفشل النهائى الذى منيت به الحركة الصليبية إلا أن المثال الصليبى تحول بمرور الوقت – تحت تأثير وسائل الإعلام التى عملت فى خدمة الأهداف الاستعمارية الأوروبية – إلى مثال براق يوحى بالشجاعة والتضحية بالنفس فى سبيل المثل الأعلى . واستقر فى الوجدان الشعبى الأوروبى (والأمريكى) أن الحملة الصليبية ***Crusade*** لابد من أن تكون بالضرورة حملة خيرة نبيلة القصد والهدف منزهة الغرض مثل : رعاية المرضى ، أو مساعدة المنكوبين ، أو جمع التبرعات .. وما إلى ذلك . وربما يكون الموروث الشعبى المتداول حولها فى " أغنيات الحروب الصليبية ***Les Chanson des Groisades***" التى راجت فى ذلك العصر ، واستمرت موجودة بعد ذلك تحكى قصة الحروب الصليبية شعراء وغناء للجماهير الأوروبية الجاهلة باعتبار ذلك بديلاً من كتب التاريخ التى سجلت قصة الحروب الصليبية ، نقول : أن هذا الموروث الشعبى الذى حملته الأغنيات الشعبية عن الحروب الصليبية ربما كان وراء هذه الصورة الأخاذة التى ترتسم فى أذهان عامة الناس فى أوروبا والولايات المتحدة

الأمريكية حين ترن فى آذانهم عبارة " الحروب الصليبية " فقد تخلت الأغنيات / الحكايات عن الحقيقة التاريخية لصالح التعويض النفسى والتفسير الشعبى لتلك الظاهرة التى كانت تمثل فى حينها حلماً من أحلام الفقراء .

ماهية الحركة الصليبية :

أما فى شأن ماهية الحركة الصليبية فيتسآل شيخ المؤرخين فى العالم العربى الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قائلاً : ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟ الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون على الموضوع ، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم الفرس والروم ، ومن الواضح أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل دينى حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين وربما بدا من الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين ، ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبر كان يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه وعندئذ وجد منقسماً فى الحرب الصليبية وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قوياً للخلاف بين الشرق والغرب هو الخلاف الدينى بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية .

وهنا فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن الإسلامى – وبخاصة فى الشرق الأدنى – ليست فى حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية وذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية سنة ٤٧٦ م صحبته موجات من الهجرات التى قام بها أهالى بلاد الإمبراطورية الغربية وقد تفاوتت هذه الهجرات فى مداها الزمنى وفى اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذى نجم عن سقوط الإمبراطورية ودخول عناصر جديدة من البرابراة داخل أراضيها وكان الناس فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية فى صورة دعامة كبرى لابد للعالم منها لا حياة لهم بدونها لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة ، وفى ضوء هذا التصور يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذى انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية الغرب إذ رأوا فى ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه وظنوا أن الساعة لابد وأن اقتربت وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع البرابرة وبخاصة من الجرمان وقبائلهم داخل أراضى الإمبراطورية المر الذى ترتبت عليه زعزعة أركان المجتمع الرومانى القدم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان ولم يلبث الجرمان أن اعتنقوا المسيحية تدريجياً فأمدوا العالم الرومانى بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها فى كثير من الهجرات التى اتجهت إلى شمال إفريقية وإنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا وينادى بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية فى حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة الهجرات التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا انطلاقة كبرى ***Decumanus Fluctus*** نتجت عن عملية الإحياء الدينى

التى بدأت فى غرب أوربا فى القرن العاشر والتى بلغت أشدها فى القرن الحادى عشر كما سبق أن أشرنا ، ذلك أن حركة الإصلاح الكلونية كانت فى حقيقة أمرها حركة إحياء دينى بكل معانى الكلمة ترتبت عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة وتحقيق نوع من الإشراف المركزى الدقيق على كافة الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسى ودعمه وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوروبى ومهما يكن من أسباب الحروب بين البابوية والإمبراطورية ، وعنف تلك الحرب فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بألا يحارب الأخ أخاه ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر وإذا كان الغربيون عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية وإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة ***En Masse*** فكان يخرج للحج بعض مئات تحت زاعمة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سوياً من غرب أوروبا فى صورة مظاهر دينية سليمة قاصدين الأراضى المقدسة بالشام ، ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى تلك التى خرجت من نورمنديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩ .

.....يري فريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلى استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد

الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا بعض الأسلحة للدفاع عن أرواحهم فى الطريق فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى فى الأسلوب الذى اتبعه كل فريق فى بلاد الشام ؟ أما ذلك التطور فى الأسلوب فمرجعه تلك الأخبار التى أخذت تصل إلى الغرب الأوروبى عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ ثم استيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرد البيزنطيين المسيحيين منها مما جعل الغرب يؤمن بأنه لابد ن استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام .

وأخيرا فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ورأى فى الحروب الصليبية الوسيلة التى تحايل بها الغرب الأوروبى للفكاك من قيود العصور الوسطى والإنطلاق إلى حياة أوسع أفقاً ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحدياً ضيقاً ، وكان كل من يحاول الخروج عن هذه الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها وبئس المصير ، على أن الاتصالات التى تمت بين الغرب الأوروبى والمسلمين – سواء المسلمين فى الأندلس أو فى المشرق – أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون فأخذت نسبة كبيرة من الناس فى غرب أوروبا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوروبية الوسيطة فى القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس فى التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل وكان من المتعذر فى الظروف التى أحاطت بالناس فى غرب أوروبا فى ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة فى حركة ضخمة – مثل الحركة الصليبية – تدعو لها البابوية وتؤديها الكنيسة ، وفى الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل

وبعبارة أخرى فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين للجمع بين الخلاص فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

هذه هى أم النوافذ التى أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية ونستطيع نحن فى ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها : " حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبى المسيحى فى العصور الوسطى واتخذت شكل هجوم حربى استيطانى على بلاد المسلمين وبخاصة فى الشرق الأدنى بقصد امتلاكها وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر واتخذت من استغاثة المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عمليا واسع النطاق " . (٥)

المدى الزمنى للحروب الصليبية :

هذا وإذا كانت الحروب الصليبية قد شغلت الفترة من سنة ١٠٩٥ م حين أعلن البابا أوروبان الثانى بدء الحركة الصليبية وحتى عام ١٢٩١م حين خرج آخر صليبى من مدينة عكا فإن الحروب الصليبية امتدت فى مفهومها حتى القرن الرابع عشر ، وقد تميزت ثمانى حملات لأسباب تخص كل منها ، فالحملة الأول : كانت أشهر هذه الحملات لما حققته من نجاحات عسكرية على حساب المسلمين لانقسام الصف الإسلامى وضعف المقاومة الإسلامية التى واجهت هذه الحملة . أما الحملة الثانية : فبرغم فشلها فقد تميزت بأنها أول حملة يشارك فيها ملوك وأباطرة أوروبا مثل لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد إمبراطور ألمانيا . والحملة الثالثة : جاءت كرد فعل لأوروبا فى مواجهة كارثة حطين ونجاحات صلاح

الدين والأيوبى ، وشارك فيها إمبراطور ألمانيا فردريك الأول بربروسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفليب أوغسطس ملك فرنسا . أما الحملة الرابعة : فقد تميزت بانحرافها عن هدفها الذى حددته لها البابوية وهو مصر إلى بيزنطة لتستولى على القسطنطينية ويقيم بها اللاتين إمارة لاتينية استمرت من عام ١٢٠٤م إلى عام ١٢٦١ . أما الحملة الخامسة : على مصر فقد فشلت فشلاً تاماً بعد إخفاقها عند دمياط ولم يشارك فيها أى من ملوك أو أباطرة أوروبا وكانت أول حمل تمثل السياسة الصليبية فى القرن ١٣ م / ٧ هـ وهى أن تكون مصر هدف الحملات الصليبية .

وجاءت الحملة السادسة غريبة فى هدفها وإنجازاتها وقيادتها فقد قادها الإمبراطور فردريك الثانى المحروم من الكنيسة وحقق دون قتال ما فشلت فيه الحملات الثانية والثالثة والرابعة رغم أن عدد قواته لم يتعد ٥٠٠ مقاتل ، واستطاع استرداد بيت المقدس ، وجاءت الحملة السابعة كآخر الحملات على مصر وقادها الملك لويس التاسع ملك فرنسا وتحمل مسئوليتها وحده وكانت ذات طابع فرنسى بحت وفشلت هى الأخرى فى تحقيق هدفها ، ثم قام لويس نفسه بحملة (الثامنة) أخرى على تونس وفشل أيضاً فى الاستيلاء عليها ، ولم تنته أوروبا من محاولاتها الصليبية وجاءت بعد ذلك إرهاصات أخرى فاشلة ضد العالم الإسلامى مثل حملة بطرس لوزجنيان ملك قبرص على الإسكندرية ولم كونها غزاة للسب والنهب وتلتها حملة نيقوبوليس ضد العثمانيين .

أما الحملات الثمان التى فازت بأرقام عددية ميزتها فى التاريخ فقد اتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال إفريقية (الثامنة) ، ولا يعرف على وجه التحديد السبب فى تميز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عددية دون غيرها من الحملات وإن كان يبدو أن السر فى هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح فى الأراضى المقدسة (مثل الحملة الأولى) أو ما منيت به من فشل ذريع استرعى الانتباه (الثانية) ، أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف فى غيرها من الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) أو لخروجها تحت زعامة بعض كبار ملوك الغرب (الثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) .

هوامش الفصل الأول

ماهية الحروب الصليبية

١) حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، (القاهرة : ١٩٩٣) ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩

٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ١٠ .

٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٠ .

٤) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، (الكويت : ١٩٩٠) ، ص ١١ – ١٣ .

جوناثان ريلى سميث : ما هى الحروب الصليبية ؟ ترجمة محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة : ١٩٩١) ، ص ٢ – ١١ .

٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، (القاهرة : ٢٠٠٢) ، جـ ١ ، ص ٢٢ – ٢٦ .

عزيز ورياض عطية : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فليب صابر سيف ، مراجعة أحمد خاكى ، (القاهرة : ١٩٩٠) ، ص ٧ – ١٢ .

تدريبات على الفصل الأول

السؤال الأول : **اكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن:**

(أ)تطور مصطلح الحروب الصليبية.

(أ) مفهوم الحروب الصليبية

الفصل الثانى

أسباب دوافع الحروب الصليبية

أهداف الفصل الثاني

يهدف هذا الفصل إلى :

١- التعرف علي الأسباب الرئيسة للحروب الصليبية

٢- نظرة الغرب إلى الشرق والاتصال الروحى بينهما

٣- التعرف علي أوضاع المجتمع الأوروبي قُبيل الحروب الصليبية

٤- التعرف علي أوضاع المجتمع الإسلامي قبيل الحروب الصليبية

الفصل الثانى

أسباب ودوافع الحروب الصليبية

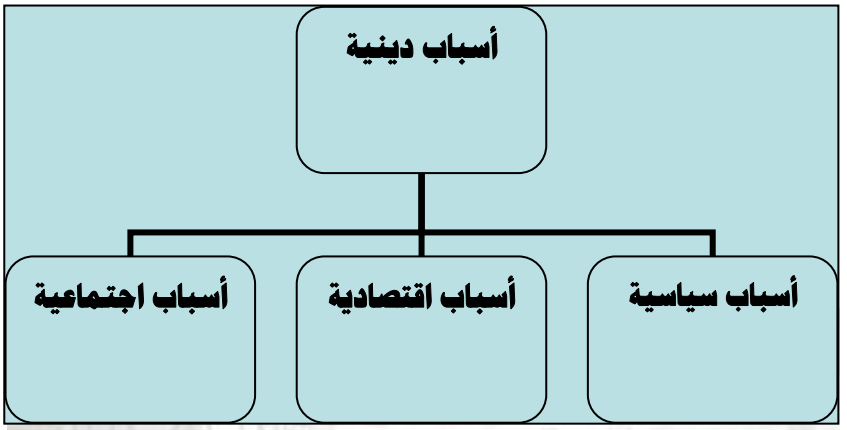

أولاً : الباعث الدينى :

ويضعها بعض المؤرخون فى المقام الأول حتى أنهم يعودون بجذورها إلى معركة اليرموك وإذا كانت هناك دوافع أخرى إلا أن ذلك بدافع الحماس الدينى ، ويرجع ذلك إلى الأديرة التى نشأت منذ القرن العاشر الميلادى لتقوية الجانب الروحى فى الحياة الإنسانية وتقوية المسيحية ضد أعدائها حتى أصبحت تلك الدعوة منهجاً للإصلاح الكنسى عامة واعتبر المؤرخون الأوروبيون المعاصرون الحروب الصليبية حروباً مقدسة نظراً للحماس الدينى الذى غلب عليها .

كانت الحركة الصليبية انعطافاً فى تاريخ الغرب الأوروبى ، إذ كانت الحملات الصليبية التى دارت على نطاق واسع سواء من حيث مجالها الجغرافى أو إطارها الزمنى أو أعداد الذين شاركوا فيها ، أول حرب يخوضها الأوروبيون تحت راية أيديولوجية بعينها ، وعلى الرغم من الإفلاس الأيديولوجى الذى تجلى منذ البداية فى خضم أحداث الحملة

الصليبية الأولى إلا أن القوى الاجتماعية فى الغرب الأوروبى قد اعتنقت هذه الأيديولوجية الصليبية وفق تفسيرها الخاص الذى يناسب مصالحها .

ولما كانت الحركة الصليبية فى التحليل الأخير إفرازاً للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع فإنها كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التى كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية وهى أهداف كانت تتركز أساساً حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحى . (١)

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هى زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً فى ضوء العامل الدينى وحده متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية ، من ذلك أن " ريان " ***Riant*** عرف الحروب الصليبية بأنها حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر للاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام .

حقيقة إن الحركة الصليبية لها فى اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التى كيفت كثيراً من أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها ، ولكن ليس معنى هذا أن التيار الدينى هو المسئول الوحيد عن إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها ، وإن المدقق فى تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت فى بعض حلقاتها ، وأن الباعث الدينى كثيراً ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص .

وللوقوف على قيمة الباعث الدينى فى الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك حتى لا ننزلق فى الطريق نفسه الذى انزلق فيه كثير من المؤرخين

السابقين ، وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة فى سوء أحوال المسيحيين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف أن كنائسهم خربت ، وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت ... فضلاً عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات ، وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التى مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة ، بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمى كفيل بأن يصرف الباحث عن رؤية المدخل الحقيقى للموضوع . فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون الشرقيون والغربيون فى البلدان الإسلامية ، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد) .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة ، تشهد عليها الرسالة التى بعث بها ثيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية والتى امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة ، وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : "

إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت ، حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً فى بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط والاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائماً عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلفين الأوروبيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً علي تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، فلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة فردن الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة ، وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطى . وهذا كله فضلاً عما أتاه المبشرون الجرويت فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند .

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوروبيين أن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأى حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى ، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديده جمعوا

فى مكتباتها كتباً دينية متنوعة فى اللاهوت . ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التى عومل بها المسيحيون فى البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقا ما قام به رجل عرف بشذوذه – مثل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى – من تصرفات تجاه أهل الذمة . ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون فى مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين ، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية ، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورن الأماكن المقدسة فى أمن وسلام

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم فى غرب أوروبا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئا من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ، وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين . (٢)

ولكن هل يعنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامنا السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند معالجة القوة التى وجهة الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننا لم نقصد ذلك مطلقاً وإنما أردنا أن نصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية ،

أما الاعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاداً فريداً فى نوعه حل بالمسيحيين فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لاستثارة الغرب الأوروبى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى – وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه – قد استغلوا فكره الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى فى الدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا ، فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الاوروبى لم لكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية ، والاعتبار الثانى هو انه لا صحة إطلاقاً للفكرة الخيالية التى ظلت سائدة أمداً طويلاً والتى صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوروبا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين ، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجره الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة أن العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى عرفت فى التاريخ باسم عصور الإيمان ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوروبا فى تلك العصور ،وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التى دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥ ، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجاً فى شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدنى ، ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس – من أمراء وعامة – إلى تلبية نداء

البابا فى سهولة ويسر ، والخروج أفواجاً من غرب أوروبا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، مما فتح أمامها آفاقاً واسعة لتجعل سلطاتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا – بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس – الزعيم الروحى لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب والمعروف أن البابوية ظل دائماً ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى ، جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وإزالة ما بينهما من شقاق . وأخيراً جاء استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوروبى ضد السلاجقة فى القرن الحادى عشر ليتيح فرصة ذهبيه للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى كافة فى صراعه ضد المسلمين ، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية فى الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين .

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة فى الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبيه المسيحيين الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية تكروا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وأما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحيرنها فى بلادهم فى ظل النظام الإقطاعى ، وإما للتهرب من

ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى بلاد الشرق . وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية – وهى البلد المسيحى الآمن – لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب ، وهم جميعاً إخوانهم فى الدين ؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلينا بالبحث فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر (٣) .

أما الدكتور الحويرى يرى أن :

من بين الدوافع التى شجعت الغرب الأوروبى على القيام بحملته الصليبية الأولى هو الدعوة الشاملة لتأمين طريق الحجاج المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة بيت المقدس فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى حيث أصبح هذا الطريق مليئاً أمام الحجاج المسيحيين بسبب سوء معاملة حكام البلدان الإسلامية التى مروا بها الأمر الذى دعا ألئك الحجاج إلى أن يسيروا فى جماعات التماساً للأمن ، وأن يمضوا فى طريقهم مسلحين ويقال أن قافلة الحجاج الألمان التى قادها رئيس أساقفة ماينز فى سنة ١٠٦٤ م بلغ عددها ما يزيد على عشرة آلاف من الرجال والنساء ولكن معظم الحجاج كانوا يسيرون غير مسلحين ، والحقيقة أنه منذ أن فتح المسلمون مدينة بيت المقدس فى القرن السابع الميلادى وظلت فى يد الحكام المسلمين لم تتعرض حياة الحجاج المسيحيين لأية أخطار فالطرق كانت آمنة والماء والطعام متوفران دائماً ولقى الحجاج الترحيب من قبل السلطات الإسلامية فى بيت المقدس وما حدث من الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس وبين المسيحيين فى الغرب الأوروبى

وبقاء هذا الاتصال نشيطاً قروناً عديدة إنما يرجع إلى تسامح المسلمين وحرصهم على مراعاة المشاعر الدينية للمسيحيين .

وجدير بالذكر هنا أن كثيراً من المسيحيين فى الشرق الأدنى كانوا يفضلون حكم المسلمين على حكم الرومان أو البيزنطيين ، ذلك أن أولئك المسيحيين كانوا ينتمون إلى فرق مذهبية مختلفة مثل النساطرة والمونوفيزتين ، ومن ثم كانوا يتعرضون للاضطهاد من قبل الكنيسة الشرقية التى تخالفهم فى المذهب ، بل إن المسيحيين الذين كانوا ينتمون إلى تلك الكنيسة كانوا يرتاحون لحكم المسلمين بدليل أنه فى القرن التاسع الميلادى كتب بطريرك بيت المقدس يصف المسلمين بقوله : " إنهم عادلون ، لا يرتكبون خطأ فى حقنا ، ولا يستخدمون العنف معنا " ، وفيما عدا ما قام به الخليفة الحاكم بأم الله الفاطمى (٣٨٦ – ٤١١ هـ / ٩٩٦ – ١٠٢١م) من اضطهاد لأهل الذمة ومنع الحجاج المسيحيين من الوصول إلى بيت المقدس سنة ١٠٠٩ وهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس فى أنحاء الدولة الفاطمية فقد عاش المسيحيون فى كنف الدولة الإسلامية يباشرون حياتهم وعيشتهم فى هدوء . (٤)

أما الدكتور جوزيف نسيم يوسف فيرى :

والأمر الذى لا خلاف بشأنه أن تلك الحروب تعبر عن روح العصور الوسطى فى أوروبا أصدق تعبير فى ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب . وليس أدل على ذلك من تسميتها ، فهى حرب وصليب . والحرب ترتبط بالعناصر الجرمانية التى نزلت فى غرب أوروبا فى أخريات التاريخ القديم ، وقضت على الإمبراطورية الرومانية وأقامت لها على أنقاضها دولاً وممالك جديدة ذات أنظمة وأوضاع مغايرة لما كان سائداً من قبل ، وهذه العناصر هى فى الأصل عناصر محاربة ، وقد وجدت فى

الحركة الصليبية متنفساً لها لإشباع رغبتها القديمة الدفينة ، ولإظهار مقدرتها فى فنوت القتال فى وقت أصبحت فيه الحرب هى صناعة الفارس الأولى .

هذا عن الحرب ، أما الدين – وهو الذى يهمنا هنا – فيرتبط بالمسيحية وكنيستها التى أصيح لها مع الزمن سلطة واسعة ، وغدت من ألصق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة فى ذلك الحين . إذ هيمنت على مصائرهم ومقدراتهم ، لها الأمر والنهى ، وعلى الجميع السمع والطاعة . وليس أدل على ذلك من قول مؤرخ عاصر بداية الحركة الصليبية ، هو روبرت الراهب ، ومن أنها من عمل الله وليس من عمل الإنسان . بينما ردد صدى هذا القول وأكده أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، هو الكونت بول ريان ، عندما ذكر أنها حروب دينية خالصة ، وان دوافعها وأهدافها دينية بحتة ، وان هدفها الأول والأخير هو تحرير قبر المسيح وتخليص بيت المقدس من قبضة المسلمين .

وليس مستغرباً فى مثل هذا العصر السحيق عندما كان الغرب يشكل وحدة واحدة فى مجموعة على رأسه الجهاز الكنسى البابوى يمسك بزمام الأمور بيد من حديد ، وقد نمت وازدادت سلطته نتيجة ظروف عديدة متشابكة معقدة ، بينما لم تكن القوميات قد ظهرت بعد – ليس مستغرباً أن يمسك هذا الجهاز بزمام الحركة الصليبية بعد أن أمسك بزمام الحرب المسيحية الغربية المقدسة ضد المسلمين فى الجنوب الإسبانى .

فقد عرف هذا العصر فى الغرب باسم " عصر الإيمان " وبلغ من أشراف البابوية على الحركة الصليبية أنها هى التى أعلنت قيامها ، وهى التى دعت إليها وباركتها وشجعت المقاتلين على الاشتراك فيها . وهى التى

منحتهم مختلف الامتيازات والإعفاءات الروحية والمادية أغراء لهم وترغيباً ، وهى التى كان لها مندوب بابوى يمثلها فى كل حملة من الحملات الصليبية

ومع كل ما تقدم يجب أن نعرف أن العامل الدينى وحده لم يكن ليكفى لقيام حركة خطيرة كالحركة الصليبية تركت آثارها على مجريات الأحداث وقتها ولقرون عديدة تالية . لقد استغله الجهاز الكنسى البابوى بهدف إثارة الحماسة الدينية لدى أهل الغرب تحقيقاً لأغراض عديدة من بينها سعى الكنيسة الغربية الكاثوليكية لبسط نفوذها الدينى على العالم المسيحى المعروف وقتها بأجمعه وكذلك القضاء على النفوذ الإسلامى فى الأراضى المقدسة والتخلص من كبار رجال الإقطاع فى الغرب الذين كانوا مصدر متاعب ومضايقات بالنسبة لها فى وقت كانت تسعى فيه لفرض سلطانها الدينى والدينيوى على الغرب الأوروبى بأكمله ، ويكفى لتعزيز ذلك والتدليل عليه أنه عندما انغمست البابوية فى الصراع العلمانى ضد الأباطرة والملوك فى الغرب قل حماسها للحرب الصليبية ضد المسلمين ، بينما دعت إلى حملات صليبية من نوع آخر لاستئصال شأفة آل هونشتاوفن الألمان الذين سعوا إلى سلبها نفوذها وسلطانها فى الغرب مثال ذلك حملاتها الصليبية ضد الإمبراطور فريدريك الثانى وابنه كونراد الرابع .

لقد كشف عن ذلك عدد من المؤرخين الغربيين الحديثين واضعين النقاط فوق الحروف من هؤلاء رينيه جروسيه ولويس هالفن الفرنسيان وجورج تريفيليان وبرنارد لويس الإنجليزيان ، ويكفى هنا اقتباسى ما قاله برنارد لويس بهذا الخصوص يقو فى كتابه " العرب فى التاريخ " إن الحروب الصليبية كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب الأوروبى تحركها اعتبارا مادية ودنيوية ويغلفها الدين كعامل نفسانى " وهذا القول غنى عن أى تعليق .

كل هذه الظروف والعوامل مجتمعة متكاتفة أدت إلى إقبال الناس فى الغرب الأوروبى من مختلف الأجناس ومن مختلف الفئات والطوائف والطبقات على الاشتراك فى الحركة الصليبية عندما دعا إليها البابا أربان الثانى فى مؤتمر كليرمون فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وعندما صاح أولئك الذين سمعوا خطبته صيحتهم المشهورة " هذه هى إرادة الله " . (٥)

ثانياً : الباعث الاقتصادى :

كانت الحروب الصليبية إحدى مظاهر الاستعمار عن طريق التوسع وامتلاك البلاد الإسلامية فى المشرق والسيطرة الاقتصادية على أسواق المشرق فى العصور الوسطى ، ومما يفسر لنا ذلك الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى عاشها أهل الغرب المسيحى وقتذاك وخاصة بعد أن أصيبت أوروبا بالطاعون الذى انتشر سنة ١٠٩٤ م ، ثم المجاعة التى حدثت فى العام التالى سنة ١٠٩٥ م .

وهنا نلاحظ أن سوء الأحوال الاقتصادية التى نكب بها غربى أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى قد دفعت الأهالى إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية فقد خلت غالبية الأراضى من الزراعة وتعرضت القرى للنهب والسلب على أيدى قطاع الطرق وحلت الكوارث الطبيعية وانتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة لدرجة أن الموت كان يتحرك بسرعة فى كل اتجاه من سنة ١٠٨٩م وحدثت الفيضانات التى تلتها المجاعات ومن ذلك الفيضانات التى نكبت بها فرنسا سنة ١٠٩٤٥م والتى اجتاحت كثيراً من نواحيها وأهلكت الزرع والمحاصيل ، وفى الفترة الواقعة بين سنتى ٩٧٠ و ١١٠٠ م لن تقل سنوات المجاعة بفرنسا عن ستين مجاعة ، أما عن الفلاحين فى الغرب الأوروبى فقد عاشوا فى القرن الحادى عشر فى وضع يتسم بالذل والهوان

ويتضح ما عاناه الفلاحون من ظروف مادية قاسية لا تكفل لهم الحد الأدنى من الراحة ولا توفر احتياجاتهم الفعلية فى أنهم عاشوا فى أكواخ حقيرة مسقوفة بالقش مؤثثة تأثيثاً هزيلاً وتتخللها فتحة فى السقف لتسمح بخروج الدخان من النار المشتعلة ، وكانت ملابس الفلاحين مصنوعة من جلود الماشية وصوف الأغنام والكتان الخشن ويكفى ما ذكره أحد الأخلاقيين فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من أن الفلاح لم يشرب قط نبيذاً من عنبه ولم يتناول فضلة صغيرة من طعام طيب وغاية سعادته لو أمكنه الحفاظ على خبره الأود وبعضاً من الزبد والجبن ، وكانت القرية مجتمعاً مغلقاً على نفسه فهى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية حيث يقوم بتأدية شعائر الدين قس يغلب عليه الجهل واشتهرت القرية بالميل إلى الخرافات والأساطير .

وقد ترتب على وضع الفلاحين الاجتماعى التزامات ثقيلة تجاه سيدهم الإقطاعى فكان عليهم الاشتغال فى ضيعة السيد الإقطاعى فيزرعونها ويحرثونها ويبذرونها ويحصدون محاصيلها ويضعونها فى مخازن السيد الإقطاعى دون حصولهم على أجر وهناك أنواع من الاحتكارات خضع لها الفلاحون منها أنهم كانوا لا يقومون بطحن غلالهم إلا فى طاحونة السيد الإقطاعى ولا يخبزون إلا فى فرنه ولا يعصرون كرومهم إلا فى معصرته ولا يسمح لهم بتربية الحمام ، فى حين يسمح لحمام السيد الإقطاعى بالتقاط محاصيلهم ، وفضلاً عن هذا التزم الفلاحون بدفع ضريبة سنوية لسيدهم ونسبة من محاصيل أراضيهم الزراعية ، ولهذا كله وجد البؤساء من الفلاحين فرصتهم الثمينة فى الفرار من الجوع والأوبئة عندما أعلنت البابوية الدعوة إلى الحروب الصليبية وترك عشرات الآلاف منهم أراضيهم هرباً من الأعباء الثقيلة التى فرضت عليهم وانخرطوا فى سلك الحملة الصليبية الأولى ، وعلى أية حال فقد جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام جموع

المعدمين من الأقنان والعبيد باباً جديداً للهجرة ومنفذاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية السيئة التى عاشوها داخل أوطانهم فى الغرب الأوروبى .

وتتضح أهمية الدافع الاقتصادى فى تحريك الحروب الصليبية فى الدور الذى لعبته المدن التجارية الإيطالية – جنوة والبندقية وبيزا وأمالفى – فلم تكن تلك المدن مدفوعة إلى تقديم مساعدتها للصليبين بوازع دينى وإنما جرياً وراء مصالحها التجارية ذلك أن الطرق التجارية التى كانت تمر من خلالها سلع الشرق الثمينة كانت تنتهى إلى القسطنطينية أو إلى الموانى الساحلية ببلاد الشام الواقعة تحت نفوذ المسلمين . غير أنه فى القرن الحادى عشر وجدت المدن الإيطالية صعوبة فى نقل سلعها ومتاجرها فى القسطنطينية بسبب المتاعب التى كانت تخلقها السلطات هناك . (٦)

ثالث : الباعث السياسى :

فى القرن الحادى عشر الميلادى برزت قوة جديدة فى الشرق حجبت إلى حد ما عناصر الضعف والتفكك فى الجبهة الإسلامية الممثلة آنذاك فى ثلاث قوى متنافرة هى : الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى مصر والمغرب وما حولها ، والخلافة الأموية فى الأندلس يضعفها الانقسام السياسى والانقسام الدينى بين السنة والشيعة .

وكان ظهور الأتراك السلاجقة فى تلك الفترة فاتحة عهد جديد فى تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى إذ أحرز السلطان ألب أرسلان النصر فى مانزيكرت (٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م) ***Manzikert*** بالقرب من بحيرة وان شرقى آسيا الصغرى وشمال شرقى العراق ، وفيها أسر السلاجقة المسلمون الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع . وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول خطيرة فى التاريخ بين الشرق والغرب إذا أنها بالإضافة إلى أنها أخذت تبعث روحاً بطولية جديدة فى العالم الإسلامى

فإنها أيضاً أدت إلى انكماش الدولة البيزنطية ، وكان ذلك أيضاً دليلاً على نهاية الدور الذى كانت تقوم به الدولة البيزنطية فى حماية المسيحية من ضغط المسلمين وحراسة المدخل الشرقى لأوروبا من غزواتهم .

إزاء هذا الخطر الملح أخذت الدولة البيزنطية تواصل استنجادها بالغرب المسيحى وبذلك أصبح الغرب الأوروبى ملزماً بأن يقوم بدوره فى هذا المضمار وهكذا وجدت البابوية الفرصة سانحة لتحقق أطماعها فى بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية بحيث تصبح كنيسة روما هى الكنيسة العالمية صاحبة النفوذ الفعلى فى العالم الغربى المسيحى بالإضافة إلى أن البابوية وجدت فى هذه الحروب الطريق إلى الاستيلاء على بيت المقدس وتحقيق أطماعها الشخصية فى إقامة مملكة صليبية فى بيت المقدس تكون رئاستها للبابا أو أحد كبار رجال كنيسته .

ورب متسائل لماذا لم يجرؤ البابا والغرب إلى المسارعة لنجدة الدولة البيزنطية بعد مانزيكرت سنة ١٠٧١ م مباشرة وإنما جاءت هذه النجدة بعد ربع قرن من الزمان سنة ١٠٩٥ م ؟

والإجابة عن ذلك نقول أنه عندما كانت دولة السلاجقة مرهوبة الجانب قوية النفوذ لم يجرؤ الغرب الأوروبى على التفكير فى مهاجمة المسلمين ولكن عندما ضعفت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م) وانقسمت الدولة بين خلفائه جرؤ الغرب وعلى رأسه البابا والكنيسة فى الجهر بعداوتهم للدولة الإسلامية وفكروا فى تنفيذ حروبهم الصليبية التى بدؤوها فى أسبانيا .

ولكن إذا كانت الفاقة والجرمان والذل والهوان هى التى دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة فى

الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل فما الدافع الذى دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة فى تلك الحركة ؟

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا فى الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفليب أوغسطس وفردريك الثانى فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لمحاربة المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها بل تهديدها ، وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة فى حالة واحدة هى حالة لويس التاسع ملك فرنسا الذى اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى أنه لقب بالقديس والذى أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة فى الحركة الصليبية مشاركة فعالة ، أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية نفسها يشهد على السفارات العديدة التى دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوروبا يلحون عليهم فى الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوروبى فى تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً وغلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرضه أو بولاء شعبه وأبرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثانى الذى أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين ، ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان ، وعندئذ خرج الإمبراطور – مكرهاً لا بطل – على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبى ليشرح له موقفه وأنه ما له غرض فى القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا فى الحركة الصليبية فمعظمهم كان يجرى وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيه والمعروف أن النظام الإقطاع ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية فى المجتمع ، وفى ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التى يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هى عدم وجود إقطاع أو أرض لـه مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعى فى الغرب الأوروبى إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض لأنه من القواعد الأساسية فى هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبناءه ، ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء بقية الأبناء بدون أرض وه وضع ممقوت فى المجتمع الإقطاعى الأمر الذى جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الإلتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض فى غرب أوروبا فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة فى تلك الحركة لعلهم ينجحون فى تأسيس إمارات لأنفسهم فى الشرق تعوضهم عما فاتهم فى الغرب ، حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم فى بلادهم الأصلية وجدوا فى المشاركة فى الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية من الخلافات التى كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبى ، وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى

أخذوا يقسمون الغنيمة وهم فى طريقهم إلى الشام أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام إنطاكية من أجل رغبة كل منهم فى الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً فى الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى من مواصلة المسيرة ومشاركة إخوانه فى الزحف على بيت المقدس وهو الهدف الأساسى للحملة ، كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا فى بلاد الشام كثيراً ما دب لخلاف فيما بينهم وبين بعض حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة ، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام بأن المسلمين يحيطون بهم وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً ولم يكن يهمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه ، بل أن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا – كما سنرى – عن مخالفة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الدينى كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية .

يضاف إلى ذلك كله عامل آخر شجع كثير من فرسان الغرب الأوروبى على المشاركة فى الحركة الصليبية ذلك أنه من المعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة وأن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب ، وعندما كثرت الحروب الإقطاعية وهددت المجتمع الغربى تهديداً خطيراً تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم " هدنة الله " وهى أوقات معلومة يحرم فيها القتال ، وعندئذ بحث الفرسان الغربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم فابتكروا المبارزة ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية استهدفت إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء ، لذلك لم يقتنع

الفرسان بتلك الوسيلة حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية فضلاً عما فى المشاركة فى تلك الحركة الجديدة من سعى مشكور وذنب مغفور . (٧)

رابعاً : نظرة الغرب إلى الشرق والاتصال الروحى بينهما :

إذا كانت الأحوال التى سادت العالم الأوروبى فى جبهتيه الشرقية والغربية منذ القرن السابع الميلادى حق قيام الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر تلقى الضوء على الظروف التى مهدت لقيام هذه الحركة فلاشك أن هناك عوامل أخرى متفاوتة التأثير أسهمت بدورها فى إخراج هذه الفكرة إلى حيز الواقع والأشياء الملموسة ، ومن هذه العوامل الرئيسية نظرة الغرب إلى الشرق منذ القدم ، وقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون طويلة .

لقد كان الشرق منذ أقدم العصور محور العلم والمعرفة ومهبط الوحى والأديان ومركز الحضارة والإشعاع الثقافى وازداد الشرق رفعة ومكانة لدى الغرب عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة عام ٤٧٦ م واجتياح البرابرة لدول غرب أوروبا وقضائهم عليها وعلى معالم الحضارة والمدنية الرومانية الزاهرة بل وعلى جهاز العمل الرومانى العتيق فى القانون والسياسة والاقتصاد والدين والفكر مما أوجد حالة من الفوضى والدمار عانى منها الغرب الأمرين ، هذا بينما لم يصب الشرق من غزوات أولئك البرابرة إلا القليل ففى الوقت الذى تضاءلت فيه معالم الحضارة والمدنية فى أوروبا وفى الوقت الذى تدهورت فيه الصناعة والزراعة والتجارة وفى الوقت الذى عمر فيه البؤس والفقر والجهل ، وفى الوقت الذى انتشرت فيه الأمراض والأوبئة والطواعين فى هذا الوقت بالذات ازدهرت المدنية فى الشرق

وظهرت على مسرح الأحداث مدن لها مكانتها مثل الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس وفى الشرق قامت الرهبنة والديرية التى أخذها عنها الغرب وفيه عقدت المجامع المسكونية الكبيرة المعروفة فى تاريخ العصور الوسطى ، وفيه أيضاً نشأ الفن المسيحى الأول ، وفيه نشأت الجامعات العلمية التى اقتبسها عنه الغرب ، وفيه ظهرت المسيحية التى انتقلت إلى الغرب كل هذا يدل على مدى التقدم الفكرى والثقافى الذى وصل إليه الشرق فى وقت كان فيه الغرب الأوروبى يعانى الأمرين من عوامل التدهور والانحلال التى حلت به عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط .

فلا عجب إذا اهتم أهل الغرب بالشرق ذلك الاهتمام الواضح الذى يرجع إلى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون عديدة ، ولا عجب أن يجد أهل الغرب فى الرشق العزاء والسلوى بعد أن أنهكتهم وهدت كيانهم الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أتت على الدولة الرومانية القديمة وعلى نظمها وحضارتها لذلك وجد الغرب المتعب المنهوك القوى فى الرشق بفلسفاته ولا هوتياته وأديانه العزاء والسلوى فى عصر تغير وانتقال ، كان كل شئ فيه فى تغير تدريجى مستمر ولم يكن هناك شئ ثابت على حاله .

كذلك كان يحج إلى الشرق كثير من الأوروبيين وكانوا يجدون لذة فائقة ومتعة كبيرة فى سبيل ذلك على الرغم من الصعاب والمخاطر التى كانت تواجههم فى الطريق بسبب بعد الشقة وصعوبة المواصلات فى وقت كانت فيه المواصلات بطيئة محفوفة بالمخاطر ، وكان مسيحيو الغرب الأوروبى يتهافتون لسماع أخبار الشرق من الرواة والحجاج العائدين الذين كانوا يروون لهم القصص المثيرة والأخبار التى لا تخلو من المبالغة والتهويل والتى هى أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية .

هذا ومن بين الأمور التى نبهت الغرب إلى الشرق وجود جالية من التجار الغربيين فى الشرق ، فضلاً عن وجود جاليات وفيرة العدد من التجار الشرقيين فى أوروبا نفسها وكانوا يطلقون عليهم فى أوروبا اسم السوريين سواء أكانوا من سورية أو من غيرها من مدن الشرق ، وقد احتكر أفراد هذه الجاليات التجارة بين الشرق والغرب وأمكنهم بفضل نفوذهم وثرائهم من الوصول إلى أرفع المناصب ومنها كرسى البابوية نفسه ، وأصبح بعضهم أساقفة لمدن كبيرة فى أوروبا ولم تكن تجارتهم قاصرة على استيراد وتصدير السلع والبضائع بل أنهم جلبوا معهم إلى الغرب نظم الرهبنة والديرية وبعض المعارف والعلوم والآداب والفنون ، وكانت كل هذه الأمور أول معرفة الغرب بها فزادتهم تشوقاً للشرق وتلهفاً لزيارته وسماع أخباره والحج إليه .

فلا غرو إذا أن يصادف الشرق هوى فى نفوس الغربيين لكل هذه المغريات التى يقدمها لهم فى وقت كانوا هم فيه فى أمس الحاجة إلى ما يخفف عنهم عبء الحياة فى الغرب وإلى ما يزيح عن كواهلهم حالة القلق والاضطراب التى كانوا يعانونها ولاشك أن هذا العامل النفسانى كان له أثره غير المباشر إلى جانب العوامل الأخرى فى تهيئة الجو لقيام الحروب الصليبية . (٨)

خامساً : أحوال أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية :

كانت أوروبا حتى القرن الحادى عشر الميلاد لا تزال مجرد منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسى ، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية مختلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطى والعالم العربى الإسلامى فقد وصلت كل من الحضارة البيزنطية والحضارة العربية الإسلامية إلى قمتها ، وبدأت بيزنطة منذ القرن الحادى عشر الميلادى تعانى مظاهر التآكل البطئ والضعف الناجم عن الصراع الداخلى والهزيمة الخارجية الفادحة على

يد المسلمين فى مانزكريت (أو ملاذكرد) سنة ١٠٧١م ، أما العالم العربى الإسلامى فكان يعانى التشرذم والضعف السياسى على الرغم من أنه لا يزال يحتفظ بإمكاناته العسكرية والبشرية وثرواته الأسطورية وعلى الرغم من أن الزمان كان لا يزال يحتفظ لـه ببعض من اعظم إنجازات العسكرية والفكرية .

وقد كان القرن الحادى عشر الميلاد بالنسبة للغرب الأوروبى بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع فى تاريخ العصور الوسطى ، وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التى أخذت تتشكل منذ القرن السادس الميلادى قد رسخت بحيث كانت الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين الأوروبيين المتخصصين فى دراسة تاريخ العصور الوسطى يطلقون على تلك الفترة اسم " العصور الوسطى الناضجة " أو العالية ***The High Middle Ages*** .

لقد شهد القرن الحادى عشر الميلادى من وجهة نظر الغرب قادة كباراً وزعماء بارزين مثل : وليم الفاتح ملك إنجلترا ، والإمبراطور هنرى الثالث وابنه هنرى الرابع ، وروجر الأول النورمانى حاكم صقلية ، وروبروت جويسكارد الذى كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى ، والفونسو السادس ملك قشتالة ، وقد كان أولئك جميعاً من الحكام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والنظام والكفاءة يمثلون الغدر والطموح والعصب من وجهة النظر الشرقية ، كما عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى معظم البابوات الإصلاحيين وأبرزهم جريجورى السابع (الشيطان المقدس) الذى رغب فى تحقيق السمو البابوى ، وكان خليفته أربان الثانى صاحب الدعوة إلى الحملة الصليبية ، وكانت الكنيسة قد مرت بأهم عملية إصلاحية تحت زعامة أولئك الذين تربوا فى الأديرة الكلونية ، أما الفلاحين

المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات ويزرعون أرضها بالمحاصيل التى تحتاجها أوروبا وبحارة جنوه وبيزا الذين طردوا المسلمين من شواطئ أوروبا فلابد من أنهم كانوا مدفوعين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى ميزت حركة التاريخ الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن ناحية أخرى كانت ثمة تغيرات اجتماعية وتكنولوجية تجرى فى تلك الفترة ولا شئ يكشف عن تأثير هذه التغيرات فى غرب أوروبا أفضل من أن نلاحظ أن الناس كانوا يبحثون لأنفسهم عن حياة أفضل ، فقد أخذ الناس يسافرون إلى مناطق الحدود وما وراء البحار بحثاً عن فرص أحسن وأملاً فى تحقيق طموحاتهم ، وباختصار كان التوسع والتنظيم أهم سمات القرن الحادى عشر الميلادى ، لقد أخت أوروبا توقن بأن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة ، فأخذت تسعى إيجاد منافذ خارجية لها ، وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذى شمل جبها عديدة كما بدأت أوروبا تفيد من عقول أبنائها فى التنظيم وكان لا يزال بدائياً وق كانت الحملات الصليبية جزءاً من التوسع الأوروبى ولمن يكن ممكناً القيام بهذه الحملات دون وجود المقدرة على تنظيمها .

كان الطابع الريفى هو الغالب على أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد توزع سكان أوروبا بين نموذجين رئيسيين للاستقرار " البلدة ***Hamlet*** " التى كانت عبارة عن عدد قليل من أكواخ الفلاحين وبيوتهم المكدسة قرب مساحة الأرض التى يتولون زراعتها ، وقد خلت هذه البلدة من أى كنيسة وفى اسكتلندة ، وويلز ، وأيرلندة ، وبريتانى ، وأقاليم فرنسا الجبلية كان نمط البلدة هو السائد . أما بقية مناطق أوروبا فقد كانت القرية تمثل النمط السائد فيها لمراكز الاستقرار السكانى وفى القرية عادة ما كانت توجد كنيسة ، وبيت صاحب الإقطاع ، أو قلعته ثم بيوت الفلاحين التى

بنيت من الطين وأغصان الأشجار وحول القرية زمامها من الأرض الزراعية والمراعى ، ثم منطقة البرارى والغابات وعلى حواف الحقول التى تمثل زمام القرية من الأرض الزراعية كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من آن لآخر لكى يزرعوا محصولاً أو اثنين فى الأرض التى خصبها الرماد الناتج عن الحرق .

وعلى الرغم من أننا نعرف بعض المعلومات عن تحسن الزراعة وأساليبها فى القرن الحادى عشر الميلادى إلا أننا لا نعرف إلى أى مدى تحسنت وسائل الزراعة على وجه الدقة ، لقد كان اختراع الطواحين الهوائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال كما أن عمليات إزالة الغابات واستصلاح الأرض كانت تجرى فى كل مكان فى غرب أوروبا وكانت الأخشاب الناتجة من قطع الأشجار تستخدم فى بناء المساكن والقلاع والكنائس فى مناطق الريف والحضر على حد سواء كما أن الفلاحين غيروا من نظام الزراعة فى شريطين أو ثلاثة بسبب الابتكار الذى غير شكل المحراث الجرمانى القديم الذى كان يفرض أن يكون حرث الحقول بشكل مستقيم على هيئة شريطين أو ثلاثة فتحسن الإنتاج . (٩)

لقد أدت محاولات استصلاح الأرض على حساب الغابات والمستنقعات إلى زيادة الإنتاج الزراعى وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن اقتصاديات الزراعة فى غرب أوروبا آنذاك إلا أنه يبدو أن القرية كانت قادرة مع قلة إمكانياتها على أن تعول الناس الذين عانوا من قسوة الطبيعة والقانون الإقطاعى على السواء ، ولا ينبغى أن نبالغ فى قيمة عمليات النمو الزراعية لأن التحسن النسبى الذى طرأ على مجال الزراعة فى أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى لم يؤد إلى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية وإنما أدى إلى زيادة موارد السادة الإقطاعيين المادية والبشرية .

كان الناس فى أوروبا العصور الوسطى تحت رحمة الطبيعية إلى حد بعيد إذ كانت الأرض المزروعة فى القرن الحادى عشر الميلادى لا تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البرارى والغابات والأرض البور وكانت كل هذه المساحات مرتعاً حراً للدببة والذئاب وغيرها ولم يكن غريباً أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى أو تجوس فى الحقول المزروعة وفى كوخ حقير كان يعيش القروى حياة أدنى من حيوان الحقل الذى يهتم به ، أما طعامه فكان فقيراً وبسيطاً من إنتاج حقله وملابسه مصنوعة من جلود حيواناته أو من صوف أغنامه ، وكان يومه شاقاً مضنياً يقضيه فى أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوى إلى فراشه الحقير فى المساء وقد هده التعب .

ولم يكن الفلاح الأوروبى يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة فى أعياد الميلاد ، ثم يحتفظ بالباقى مقدداً ومملحاً ليأكل منه طوال العام ، ولكنه فى كل الأحوال لم يكن ليأمن على نفسه من غائلة المجاعة فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل فى ذلك الزمان كان تدهور المحصول المحلى فى أى إقليم مؤشراً على حدوث المجاعة .

وكانت السنوات العشر التى سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ م سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولاسيما فى شمال فرنسا وغرب ألمانيا إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة ، ومنذ سنة ١٠٨٩ م كان الرعب يتملك السكان فى تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذى كان يضرب فجأة إحدى القرى أو المدن فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطئ ومن الطبيعى أن يكون رد فعل الناس فى إطار رد الفعل الجماهيرى المعتاد ، أى التعلق بأهداف الدين أو محاولة التكفير عن الذنوب ، والتجمع حول الزاهدين والنساك بحثاً عن الخلاص ، ولذا راقت الدعوة التى وجهها

البابا لشن حملة صليبية ضد المسلمين فى عيون الفلاحين الفقراء ورأوا فيها نبوءة تعدهم ***Prophetae*** بالخلاص .

وبالنسبة لمعظم سان الغرب الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت القرية هى الوحدة الأساسية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، وعلى المستوى الدينى أيضاً ، إذا أن التقسيم الإقطاعى فرض نوعاً من الاقتصاد الطبيعى جعل الفلاحين فى كل قرية يحاولون تحقيق الاكتفاء الذاتى فى حدود ما تنتجه القرية وفى أعياد القديسين الذين يبجلهم أخل القرية (وهم تعبير عن عبادة قوى الطبيعة على نحو آخر ، ولم تعترف الكنيسة بأولئك القديسين الريفيين أبداً) كان القروى يجد المتعة والتسلية وكان قساوسة الأبرشيات الريفية يقدمون للسكان الفلاحين معلوماتهم المشوشة عن المسيحية وأفكارهم الضيقة عن العالم ولما كان القسيس الأبرشى أميا فى أغلب الأحوال فإن لنا أن نتصور طبيعة ما كان يقدمه من خدمات للفلاحين المساكين وما ينتج من هذه الخدمات الجاهلة المقدمة من قسيس جاهل من تعصب وتزمت مقيت . لقد كان القرويون يجمعون بين التدين العاطفى والإيمان بالخرافات والمعجزات ، وكان سكان كل قرية يعتقدون بأن الينابيع والمجارى المائية والأشجار التى تحيط بقريتهم تضم بعض الأرواح التى يمكنها إتيان المعجزات . (١٠)

سادساً : أحوال الشرق العربى الإسلامى عشية الحروب الصليبية :

عشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسى والتناحر العسكرى مخيماً على العالم العربى ، وفى ظل هذه الظروف نجح الصليبيون فى زرع إمارتهم ومملكتهم ، لقد انتصرت الحملة الصليبية الأولى بفضل هذا التمزق وحاز الفرنج انتصاراتهم الأولى وتم محو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة فى بلاد الشام واحدة تلو الأخرى فى طيات الموجة الصليبية ،

وكانت إمارة سلاجقة الروم وعاصمتها نيقية أو ضحايا التشرذم السياسى من جهة والهجوم الصليبى من جهة أخرى ثم تلتها بقية الإمارات ، ولنعرض لهذا بشئ من التفصيل :

ففى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان المسلمون فى المنطقة العربية موزعين فى ولائهم السياسى بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، والإضافة إلى النزاع والتخاصم بين الخلافتين فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذى جعل بلاد الشام – وهى المجال الحيوى الذى تنازعت الخلافتان السيادة عليه – موزعاً بين عدة إمارات صغيرة فقبيل الحملة الصليبية الأولى كانت كل مدينة كبيرة فى بلاد الشام تقريباً إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربى أو من الأتراك السلاجقة ، وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سبباً فى العداء السياسى والعسكرى الذى سبب تنافر هذه القوى وعدم توحدها فى مواجهة الغزو الصليبى .

كانت الأحوال السياسية الداخلية فى الخلافة العباسية قد جعلت الخلافة رهينة لدى البويهيين الشيعة ، وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) نجح السلاجقة بزعامة طغرل بك فى القضاء على النفوذ الشيعى فى بغداد بعد قتل البساسيرى الذى أراد أن يحدث انقلاباً سياسياً لصالح الخلافة الفاطمية من داخل عاصمة الخلافة العباسية ، حقيقة أن هذه الواقعة كانت بمثابة الدفعة التى أنعشت الخلافة العباسية بفضل الحيوية العسكرية للأتراك السلاجقة ، ولكن الفاتحين الذين جاءوا منقذين سرعان ما بدأوا يتصرفون باعتبارهم غزاة مثلما يحدث غالباً .

لقد صارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسى اسمياً ، ولكنها تدين بالخضوع الفعلى لسلطة سلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك ، ألب أرسلان ، ملكشاه) ، ومنذ وقت مبكر اتجه السلاجقة نحو الشمال والغرب على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين وفى الوقت الذى كانت قوات ألب أرسلان تضرب فلول الجيش البيزنطى بعد أسر الإمبراطور المهزوم رومانوس ديوجينيس فى ملاذكرد سنة ١٠٧١م كانت قوات أحد القادة التركمان قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين وهو " أتسز بن أوق " .

وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م عين ملكشاه أخاه تاج الدين تتش والياً على الأجزاء التى استولى عليها السلاجقة فى بلاد الشام وفوض إليه مهمة الغزو مستقبلاً فى هذه المناطق كما عين سليمان بن قتلمش والياً على بلاد الروم (أى آسيا الصغرى) ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى استمرار التوسع السلجوقى فى بلاد الشام على حساب الفاطميين والقوى المحلية ، وفى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين .

وبعد حصار فاشل ضد حلب قاده جيش تتش مع حليفه أمير الموصل " شرف الدولة مسلم العقيلى " استطاع هذا الأخير أن يقتنص المدينة لنفسه من آخر أمرئها أبو الفضائل سابق بن محمود آخر الأمراء المرداسيين الذين ظلوا يحكمون حلب حوال نصف قرن من الزمان ، وهكذا قامت فى حلب إمارة قصيرة العمر سنة ١٠٧٩م وقد أورد ابن القلانسى هذا الخبر بصورة مقتضبة للغاية إذ قال فى حوادث سنة ٤٧٢ هـ : " ... فيها تسلم شرف الدولة مسلم بن قريش حلب ... " . (١١)

ومن ناحية أخرى كان الأمير التركمانى أتسز قد استولى من الفاطميين على معظم أنحاء فلسطين ، وفى سنة (٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦م)

كانت دمشق تعانى من تدهور اقتصادى وغلاء فاحش فى الأسعار ، ونقص فى الأقوات اقترب من حافة المجاعة مما اضطر أهلها إلى تسليم المدينة إلى أتسز بالأمان ، وقد أغرى هذا النصر أتسز بالسير إلى مصر لمحاولة الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية ولكن أمير الجيوش بدر الجمالى ألحق به هزيمة منكرة " وأفلت هزيماً بنفسه فى نفر يسير من أصحابه " ثم وصل دمشق وبعدها جاءت أخبار وصول تتش إلى بلاد الشام وبذلك صارت دمشق إمارة سلجوقية .

ودار الصراع بين سلاجقة الشام بقيادة تتش وسلاجقة الروم بقيادة سليمان بن قتلمش حول السيادة على حلب وانتهى القتال سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م بمصر سليمان وتحول حلب إلى إمارة سلجوقية وكان من النتائج السلبية لمصر سليمان بن قتلمش ازدياد حدة التفكك والتشرذم السياسى بين السلاجقة .

ولسنا نقصد أن نتتبع تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية الكثيرة والمتشابكة المتلاحمة فى الفترة السابقة على الحملة الصليبية الأولى لأن هذه الدراسة لا تهتم بهذه الأحداث فى حد ذاتها وإنما تهتم بإبراز الحقيقة القائلة أن المنطقة العربية فى أخريات القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلاد كانت نهباً للمعارك بين الحكام الكثيرين الذين اقتسموا حكم مدنها وأقاليمها بصورة فسيفسائية مربكة .

فالخلافة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة التدهور السياسى الداخلى بعد أن سيطر الوزراء العظام على الخلفاء وحولوهم إلى دمى يحركونها كيفما ، وعلى الرغم من محاولاتهم العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا فى استرداد نفوذهم الضائع فى بلاد الشام وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين الأتراك السلاجقة حماة الخلافة

العباسية الطامحين إلى ضم الشام ومصر تحت رايتها ، كما كانت هناك منازعات بين السلاجقة والسلاجقة ، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية ... وهكذا .

فعندما وصل الصليبيون غلأى المنطقة كانت هناك إمارة فى حلب يحكمها رضوان (١٠٩٥ – ١١١٣م) الموالى للفاطميين وكان العداء مستحكماً بينه وبين إمارة دمشق التى يحكمها دقاق الموالى للخلافة العباسية السنية (١٠٩٥ – ١١٠٤ م) ، أما إمارة شيزر على نهر العاصى قرب حماة فكانت تحت حكم بنى منقذ الذين برز منهم الفارس المؤرخ الشاعر " أسامة بن منقذ " على حين كانت طرابلس تحت حكم بنى عمار الشيعة ، أما بيت المقدس فقد ظلت بأيدى السلاجقة حتى استعادها الفاطميون فى سنة ١٠٩٨ م أثناء وجود الصليبيين فى أنطاكية ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوها بعد مذبحة مروعة ارتكبها الصليبيون الأوائل بعد أن استولوا على القدس التى كانت هدف رحلتهم ذات الألف ومائتى ميل ، أما مدن الشمال فى آسيا الصغر وأعلى بلاد الشام والتى أخذت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين ثم العكس بطريقة تبادلية وإيقاع سريع فكانت ضحية التخريب والتدهور السكانى .

لقد كانت هذه الكيانات السياسية المتصارعة كلها متورطة تماماً فى الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين وعندما قدموا لم يكن لدى الحكام سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر ، ومن ثم مضت قوات الصليبين كما تمضى السكين فى الزبد وفى طيات الموجة الصليبية الأول غرقت هذه الإمارة الصغيرة واحدة تلو الأخرى وكان سقوط مدينة نيقية فى أيدى قوات الحصار المشتركة من الصليبيين

والبيزنطيين صدمة ونذير لجميع القوى الإسلامية ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة وذلك النذير بلا فائدة . (١٢)

سابعاً : الحركة الصليبية عدوان استعمارى :

يقول الدكتور حوزيف نسيم يوسف فى هذا الشأن : أحدث البحوث التاريخية البعيدة عن الميل والهوى أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن الحركة الصبية لم تكن من صنع الله ولكنها كانت من صنع الإنسان وأنها كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية وأن غرضها الحقيقى هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب اللاتينى يستخدمونه لتفتين وحدة العالم العربى وكسر شوكته ضماناً لبقاء نفوذهم فى المنطقة .

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين المحدثين الذين اشتهروا بتعصبهم لبنى جنسهم والذين نظروا إلى الحركة الصليبية من وجهة نظر غربية بحتة قد اعترفوا ضمناً أو صراحة بحقيقة اتجاهات تلك الحركة ، ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسى رينيه جورسيه ***R.Grousset*** الذى قال فى كتابه " خلاصة التاريخ " إن الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعمارى للغرب المسيحى فى الشرق العربى ، بينما قال زميله جورج تريفيليان ***G.Trevelyn*** الإنجليزى فى كتابه " مختصر تاريخ إنجلترا " إن الحركة الصليبية هى حركة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الإقطاعية ضد العرب ، أما الأستاذ برنارد لويس ***B.Lewis*** فقد أوضح فى كتابه " العرب فى التاريخ " أن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب تحركها اعتبارات مادية دنيوية ويغلفها الدين كعامل

نفسانى . ويتحدث المؤرخ المعروف هنرى وليم كارلس ديفز فى كتابه " أوروبا فى العصور الوسطى " عن الحروب الصليبية تحت عنوان " الاستعمار الأوروبى " ويزيد ديفز الأمر وضوحاً فيقول " وكثيراً ما كان ينتحل الباعث الدينى بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب ، وفى موضع آخر يقول : إنه كلما ازداد اقتراب زعماء الحملة الأولى من الأراضى المقدسة كلما ازداد وضوحاً أن إنقاذهم للكنيسة المقدسة ليس إلا اعتباراً ثانوياً ، ويستمر قائلاً بأن الشغل الشاغل للحكام اللاتين فى الثمانين سنة التى أعقبت تأسيس المستعمرات الأربعة فى الأرض المقدس هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس . (١٣)

هذه شهادة عدد من الكتاب الغربيين الحديثين عن حقيقة اتجاهات الحركة الصليبية ، ومن حسن الحظ أنه ظهر فى المكتبة العربية فى السنوات الأخيرة العديد من الكتب والبحوث الجادة الواعية التى تناولت تلك الحركة أو أحد فصولها تناولاً يتسم بالدقة والأمانة العلمية ، فأماطت اللثام عن دوافعها الحقيقية ، يقول الدكتور جمال الدين الشيال : إن الحملة الصليبية الأولى وما تلاها من حملات إنما تمثل المرحلة الأولى من مراحل الاستعمار الأوروبى لمنطقة الشرق الأدنى العربى ... وهى إنما لبست مسوح الدين واتخذت شارة الصليب لأن العصر كان عصر تزمت دينى . ويعزز هذا الرأى قول الدكتور محمد مصطفى زيادة من أن : الحركة الصليبية دلت على اتجاهات توسعية نائية جغرافياً عن فلسطين ... وأن زعماء الصليبيين حتى الأولين منهم لم يكن غرضهم جميعاً خدمة الدين فحسب . وجاء فى مقدمة الدكتور حسن حبشى للترجمة العربية لمذكرات روبرت كلارى عن الحملة الرابعة : أن التاريخ لا يعرف حرباً شنها الغرب الأوروبى تحت ستار الدين ثم كشف القناع عن حقيقة نواياه الاستعمارية

مثل الحرب التى خرجت فيها أوروبا عام ١٢٠٢م بحجة إنقاذ المسيحيين واستخلاص بين المقدس ومحاربة مصر ثم غيرت الحملة اتجاهها منذ البداية وأسفرت عن وجهها فهاجمت إمبراطورية الشرق النصرانية وهى الإمبراطورية البيزنطية . ويزيد فيليب حتى الأمر وضوحاً فيقول فى كتاب " تاريخ العرب " : إنه ليس كل الذين حملوا الصليب كانت تدفعهم اعتبارات دينية فكثيرون أمثال بوهيمند كانوا يطمعون فى تأسيس إمارات لهم هناك ، كما كان لتجار بيزا والبندقية وجنوة مصالح تجارية يسعون إلى تحقيقها ، فضلاً عن فئات عديدة منن المغامرين واللصوص والقتلة والمجرمين وقطاع الطرق والخارجين على القانون وطغام الشعوب وأرقاء الأرض ممن قدوا من مختلف بلدان الغرب مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والأطماع والسب والنهب وأقلها بلا شك العامل الدينى .

وهكذا تحت ستار الدين قامت جحافل الصليبيين من أوروبا متجهة صوب الشرق الأدنى العربى وفى سنوات قلائل أحرزت عدة انتصارات سريعة لم تكن تحلم بها فى يوم ما فلقد تمكن الصليبيون فى الفترة من مايو ١٠٩٧ إلى يونيو ١٠٩٨ من القضاء على سلطنة السلاجقة فى آسيا الصغرى وشمال الشام ومن تأسيس أول مستعمرتين لهما ونعنى بهما إمارة الرها فى أعلى الفرات وإمارة إنطاكية فى أعلى الشام ، وتم هذا كله فى حوالى عام .

ولنا أن نتساءل عن السر فى هذا التقدم السريع الذى أحرزه الأوروبيون وهل يرجع إلى صفات خاصة تميزوا بها دون العرب والسلاجقة كالجرأة أو استبسال فى القتال حتى الموت والاستشهاد ، يجيب عن هذا السؤال المؤرخ شالر أومان ***Ch.Oman*** فى كتابه " فن الحرب والقتال فى العصور الوسطى " فيقول : إن القوات الصليبية كانت ضعيفة من الناحية

العسكرية كما كان ينقصها النظام وحسن الإعداد والترتيب والإلمام الكافة بالتكتيكات الحربية السليمة وإنها كانت تتكون من جيوش إقطاعية متفرقة لا تجمع بينها قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء .. ومع ذلك فقد أحرزت انتصارات كبيرة على قوات كانت تفوقها أعداداً وترتيباً وتنظيماً وتدريباً ، وإن الحقيقية التى تكم وراء تلك الانتصارات لهى أعمق من ذلك بكثير فهى ترجع أولاً وقبل كل شئ إلى انقسام العرب والسلاجقة على أنفسهم وقتذاك .

كانت هذه إحدى مراحل الهزيمة التى نزلت بالشرق الأدنى العربى فى عصر من عصور الضعف التى مر بها عند بداية العدوان الصليبى وهى استمرار للحالة التى كان عليها اعتباراً من القرن العاشر وقد ترتبت عليها أسوأ العواقب وأوخمها ، فقد كان الخلاف مستحكماً بين ملوك العربي وأمرائهم ، ففى مصر خلافة الفاطميين الشيعية على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية فى بغداد ، وقد دب فى كيانهما الانحلال والهزال فالضعف باد والانقسام بينهما سياسى ودينى والتناحر على أشده . وهكذا كان كلا الفريقين آخذاً فى التدهور بينما القبائل التركمانية ومن بينها السلاجقة تختطف من أملاك الفاطميين والعباسيين على السواء ما يمكن اختطافه من الأقاليم كما حدث مثلاً عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين وحتى سلطنة السلاجقة كانت هى الأخرى قد انقسمت إلى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث فى أنطاكية وحلب ودمشق ويؤكد هذا الوضع أحد المؤرخين العرب ممن عاصروا بدايات العدوان الصليبى وكتبوا عنها وهو ابن القلانسى إذ ذكر أنه لو كان صاحبا حلب ودمشق قد اتفقا وقتذاك لألحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ولحلاً بينه وبين التوغل فى آسيا الصغرى وسورية الشمالية ، ولكنها بالرغم من الخطر الداهم الذى كان يهددها وبدلاً من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك لم يبذلا مجهوداً إيجابياً ى سبيل وقف تقدمه فى الشرق العربى . (١٤)

هوامش الفصل الثانى
أسباب دوافع الحروب الصليبية

١) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص٥٧ .

٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧– ٣٠ .

وانظر أيضاً :

سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١، ص ٣٩ ، ١٩٤ .

توماس أرنولد : الدعوة للإسلام ، ص ٣١ ؟

٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٠ – ٣٣

سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٦٣

٤) محمود الحويرى : بناء الجبهة الإسلامية ودورها فى التصدى للصليبيين ، ص ٣٢ – ٣٣

هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، مراجعة د. عز الدين فردة ، (القاهرة : ١٩٨٥) ، ص ١٤٥ .

بارك (إرنست) : الحروب الصليبية ، ص ١٤ ، ١٥

٥) جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية ، ١٩٨٦) ، ص ١٨٨ – ١٩٠

٦) محمود الحويرى بناء الجبهة الإسلامية ، ص ٣٠ – ٣٢

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٢ – ٣٥

٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٧ – ٣٩

سعيد عاشور : اوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٨١

٨) جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية ، ص ١٦٠– ١٦٢ .

٩) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ٥٨ – ٦١

كانتور : التاريخ الوسيط ، جـ ١ ، ص ٣١٣ ، جـ٢ ، ص ٣٢٨

١٠) قاسم عبد قاسم : ماهية والحروب الصليبية ، ص ٦١ –

قاسم عبده قاسم : الحروب الصليبية – نصوص ووثائق ، ص ٦٨– ٧٠

١١) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص .

سعيد عبد الفتاح عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، (بيروت ، ١٩٧٢) ، ص ٥٨ – ٥٩

١٢) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، (الإسكندرية ، ١٩٨٨) ، ص ٨ – ١٠ .

حوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتينيين فى الحملة الصليبية الأولى الصليبية الأولى ، (الإسكندرية ، ١٩٦٣)

ديفز (هـ. و. ك) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الحميد وحمدى محمود ، (الإسكندرية ، ١٩٥٨) ، ص ١٧٨ .

١٣) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١٠ –

محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ، ١٩٦١) ، ص ٤ – ٥

كلارى (روبرت) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة : د. حسن حبش ، (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ٥

جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ، ص ١٨٨ – ١٩٥

عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، (بيروت ، ١٩٦٦) ، ص ١٥٢ .

تدريبات على الفصل الأول

السؤال الأول : **اكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن**:

(أ)الأوضاع السياسية في المشرق الإسلامى قُبيل الحروب الصليبية.

(أ) الأوضاع الدينية في غرب أوروبا عشية الحروب الصليبية

السؤال الثالث: **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة**

١- – انتشر مرض الطاعون في غرب أوروبا عام ١٠٩٤م .

٢- كانت مصر تحت حكم السلاجقة قبيل الحروب الصليبية

٣- تعرضت الدولة السلجوقية لحالة من الإنقسام والتدهور عام ١٠٩٢م.

الفصل الثالث

النشاط الصليبى

فى القرن الثانى عشر الميلادى

الحملات الصليبية الأولى والثانية والثالثة

أهداف الفصل الثالث

يهدف هذا الفصل إلى

١- التعريف بالأسباب المباشرة للحملة الصليبية الأولي والدعوة إليها وقادة الحملة وأبرز نتائجها.

٢- التعرف علي احداث الحملة الصليبية عام ١١٠١م

٣- التعرف علي أحداث الحملة الصليبية الثانية ودور البابوية ونتيجة الحملة

٤- التعرف علي أسباب الحملة الصليبية الثالثة وفادة الحملة وأحداث ونتائج.

٥- التعرف على :

٦- الإمارات الصليبية التي تمكن الصليبيون من تأسيسها في بلاد الشام بعد

تحولت آسيا الصغرى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى إلى دول سلجوقية إقليمية صغيرة ، وعلى رأس كل منها حاكم يتبع السلطان السلجوقى الأعظم فى بغداد . هذا بالإضافة إلى سلطنة سلاجقة الروم التى كانت لا تزال مستمرة فى فتوحاتها فى آسيا الصغرى على حساب بيزنطة . ولقد حاول الإمبراطور ألكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨) وقف زحفهم دون جدوى .

وباتت عاصمته معرضه لخطر الهجوم عليها بين حين وآخر . لذلك لم ير ألكسيوس كومنين بداً من اللجوء إلى البابوية فى روما للاستنجاد بها ضد السلاجقة ، والعمل على وقف زحفهم ، مثلما فعل سلفه الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٨) ، فبعث رسله إلى البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) وإلى ملوك وحكام أوربا يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم فى الشرق ، وحماية القسطنطينية من الخطر السلجوقى ، وكان من الطبيعى أن يستجيب البابا وملوك وحكام الغرب الأوربى لنداء الإمبراطور، وذلك لتحقيق أطماعهم فى كل من الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية .

ولا شك أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، قد تضافرت جميعا وتحكمت فى توجيه الحملات الصليبية إلى منطقة الشرق الادنى الإسلامى . كما لعبت البابوية دوراً رئيسياً فى قيام الحروب الصليبية ، فهى التى دعت إليها وتبنتها ووجهت مسارها بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين فى الشرق .

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧-١٠٩٩م)

بدأت سلسلة الأحداث التى أدت إلى قيام الحروب الصليبية بعقد مجمع بياكنزا (بياتشنزا ***Piaccenza***) برئاسة البابا أوربان الثانى الفرنسى الاصل وحضرته سفارة من قبل الامبراطور البيزنطى لطلب العون من البابا ضد السلاجقة ، ولقد رحب البابا بمعاونة الإمبراطورية ، وبعد أن أنهى مجمع بياكنزا أعماله قضى البابا فصل الربيع فى ايطاليا ثم انتقل الى فرنسا لعقد مجمع كلير مونت ***Clermont*** الذى استمر من ١٨ إلى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ . وبعد مناقشة الامور الكنسية ألقى البابا خطابه التاريخى الذى دعا فيه الى الحرب المقدسة ضد المسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم . ووجدت كلمات البابا قبولا وحماسة عند الحاضرين إذ هتف جمهور الحاضرين بعبارة " ولتكن مشيئة الله" (***Devs Le Volt***) (***it is God's will***) التى تردد صداها فى أوربا الغربية من ادناها الى اقصاها ، وتقدم الألوف من سامعية حاملين الصلبان واتخذوا صليباً من قماش أحمر على اكتافهم فعرفوا بالصليبيين ، وعرفت هذه الحروب بالحروب الصليبية وتحدد يوم ١٥ أغطس سنة ١٠٩٦ موعداً لرحيل الصليبيين على أن تلتقى جيوشهم فى القسطنطينية [١].

---

[١] فوشية الشارتيري : **الوجود الصليبي في الشرق العربي ، الإستيطان الصليبي في فلسطين ، تاريخ الحملة إلي بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م ، ترجمة ودراسة وتعليق الدكتور / قاسم عبده قاسم (الكويت ١٩٩٣) ، ص ٨٧-٩٤ .**

Charles (M.B) & Philip (G) &Anthony (C) : ***Crusades Vol .1 in the Oxford Dictionary of Byzantium ., p . 558 . ;*** *Chalandon (F)* ***: The Earlier comneni in cam . Med . Hist . vol . IV p . 333 . ;*** *Brooke (Z.N)* ***: History of Europe from 911 to 1198 ., vol . II (London , 1938) , p . 236 . ;*** *Previte :* ***The shorter Cambridge Medieval History ., vol . 1 (Cambridge , 1952) ., p . 520 . ;*** *Hitti (P.K)* ***: History of Syria .,***

ولقيت دعوة البابا استجابة واسعة لدى أوربا وكانت خطة أوربان محكمة تماما في اختيار القواد وتوجيه الغزاه خاصة بجنود من فرنسا التى كانت تمثل الروح الصليبية ، حيث لعبت الخبرة دوراً فى رجال أمثال ريموند دى سانجيل كونت تولوز الذى حارب المسلمين فى أسبانيا [1].

وإذا كان البابا قد حدد وقت الرحيل فى أغسطس سنة ١٠٩٦ وارتبط الأمراء بهذا الموعد ، إلا أن جماهير الغوغاء والفقراء لم يكن لديهممن الاسباب ما يدعوهم الى الانتظار ، وعلى ذلك فقد انقسمت الحملة

(London , 1957) ., p.590 . ; Hulm (E.M) : The middle age ., (New York , 1938) ., p . 472 . ; Eyre : European Civilization : Its Origin and Development . by various contributors under the direction of Eyre . vol III (London , 1935) ., p . 192 . ; Mango (Cyril. A) : Constantinople . City on the Golden Horn . (New York, 1969) . , p . 107 . ; Grabois (A) : The Illustrated Ency of Medieval Civilization (London , 1988) . , p . 248 . ; Matthew (D): Atlas of Medieval Europe . , p . 91 . ; Milton (J) & Steinberg (R) : The cross and the cresent ., p . 76 .

(2) Parkes (I) : Hist. Of Palastine from 135.A.D to modern times (London , 1949) . p 107 .

الصليبية الاولى الى قسمين متباينين عن بعضهما تماماً ، فالقسم الاول أطلق عليه حملة العامة أو الشعبية وكانت على شكل مجموعات مختلفة ، أما الثانية فتسمى الحملة النظامية أو حملة الأمراء وقد قادها أمراء أقطاع .

وبعد أن دعا البابا أوربان الثانى إلى الحروب الصليبية فى مجمع كليرمونت أخذ الدعاه يبشرون بتلك الحروب .ومن هؤلاء الدعاه بطرس الناسك الذى اشتهر بحماسة الشديد ، وأحرز نجاحا هائلا فى دعوته . وقد أثرت هيئته تأثيرا كبيرا على جموع العامة فى غرب أوربا ، فقد كان قصير القامة ودرج على السير حافى القدمين فى ثياب رثه ، لم يتناول فى طعامه الخبز أو اللحم بل جعل غذاءه السمك ، وصار ينتقل من مكان إلى آخر على حماره الأعرج داعيا إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية . وبدأ رحلته من برى ***Berry*** ، وفى فبراير ومارس سنة ١٠٩٦ اجتاز أورليانز وشامبنى إلى اللورين ومنهما إلى مدن الميز ، وآخن إلى كلن ، وحيث أمضى عيد القيامه وحشد من مريديه من انفذهم الى المناطق التى لم يكن بوسعه أن يزورها ومن هؤلاء المريدين ، والتر المفلس ***Walter Sans Avoir*** ورينالد لدبرايس ، وجفرى يوريل ووالتر برتيل وجوتشالك الالمانيان ، ولم يكد يبلغ كولونيا حتى بلغ عدد اتباعه ١٥ ألف شخص ، وازداد عدد من انحاز إليه فى المانيا [١].

---

(3) Runciman (Steven): ***A history of the crusades ., vol . 1 pp . 113-114 .***

رنسيمان : **تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٧٩-١٨٠ .**

Milton (J) & Steinberg (R) ***: The cross and the cresent . , p . 76 .***

سعيد عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .** ؛ محمود الحويري : **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبين ، ص ٣٦-٣٧**

وفى ابريل سنة ١٠٩٦ ، أى قبل ثلاثة أو اربعة أشهر من الموعد المحدد الذى حدده أوربان الثانى تم حشد خمسة جيوش من الفقراء ، على أن ثلاثة من هذه الجيوش بقيادة فولشر صاحب أورليان وجوتشالك ووليم النجار على الترتيب ، لم تستطع الوصول إلى القسطنطينية إذ لقيا جيشا فولشر وجوتشالك فى يونية ١٠٩٦ الدمار على يد المجريين جزاء ما ارتكبه الجند من أعمال العنف والتخريب . أما الجيش الثالث فقد أهلك نحو عشرة آلاف من اليهود وذلك بعد أن اشترك فى قتالهم بالبلاد الواقعة بوادى نهر الراين ،وكان ذلك من بوادر النتائج الاولى للحماس الصليبى الذى مالبث ان تبدد فى بلاد المجر [١].

وعلم الإمبراطور البيزنطى أن جيشاً للفرنج اجتاز بلاد المجر ، ونفذ الى الامبراطورية فقام بعمل الترتيبات اللازمة وتوفير ما يحتاجونه من المؤن ، ثم أمر ألكسيوس قواده بالتوجه إلى دورازو وأفالونا وهى الأماكن التى سوف تستقبل الصليبيين . كما أرسل أيضاً المترجمون الذين يجيدون اللاتينية مع القوات الصليبية ، وأوصى قواده وقواته بضرورة وقف هذه القوات الصليبية إذا قامت بالإغاره والنهب والسرقة فى أراضى الامبراطورية حفاظاً على سلامتها وسلامة شعبها [٢].

وكانت حملة والتر المفلس هى أول حملة شعبية قامت فى أوربا . فلم يرغب هذا الرجل فى انتظار بطرس وجماعته فلم يكد ينتهى عيد القيامة

---

[١] باركر (أرنست) : الحروب الصليبية ، نقله إلي العربية / السيد الباز العريني (بيروت – الطبعة الثانية) ص ٢٥-٢٦ .

William (B) & Litt (D) : ***The first crusade in cam . med . His . vol . v (cambridge , 1979) ., pp . 276-277 .***

محمود الحويري : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(2) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 310 .***

حتى غادر والتر على رأس جيش يتكون من حوالى خمسة آلاف شخص من الطبقات المعدمة . وعندما بلغ الحدود المجرية أرسل إلى ملك المجر كولمان يستأذنه فى اجتياز المملكة وتزويدهم بما يحتاجونه من الاقوات ، ولما وصلوا مدينة سملين *Semlin* الواقعة على الحدود المجرية البيزنطية وقعت بينهم وبين المجريين بعض المناوشات البسيطة ثم واصلوا سيرهم بعد ذلك ، فعبروا نهر الساف *Save* ودخلوا أراضى الدولة البيزنطية ومروا بمدن نيش وصوفيا وأدرنة ، وفى يوليو سنة ١٠٩٦ وصلوا إلى مدينة القسطنطينية وكانت أولى الجماعات التى وصلت واستجابت لنداء الحرب المقدسة [١].

وسمح الامبراطور ألكسيوس كومنين لهذه الجموع بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول جموع بطرس الناسك وأمر بإمدادهم باحتياجاتهم المختلفة [٢].

أما بطرس الناسك فقد غادر مدينة كولونيا على رأس جموعه فى ٢٠ أبريل سنة ١٠٩٦ مخترقاً ألمانيا والمجر ، وعندما وصلوا إلى مدينة سملن تملكهم الغضب عند رؤيتهم منظر ملابس وأسلحة رجال والتر معلقة على الأسوار ، كما ترامى اليهم ما ذاع من الشائعات عما حل برجال والتر

---

(3) Albert d'Aix : ***Historia Hierosolymitana ., ED R.H.C HOCC . IV (Paris , 1879) ., pp 275-276 . ;*** *William of tyre :* ***A History of deeds done Beyond the sea , Translated and Annotated by Babcock and A.C Krey (New York, 1943) ., vol .1 p. 98 .***

والترجمة العربية وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ترجمة د. حسن حبشي (القاهرة ١٩٩١-١٩٩٢-١٩٩٤-١٩٩٥) جـ ١ ، ص ١١٢-١١٥**

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 123 .***

رنسيمان : **المرجع السابق، جـ ١ ، ص ١٩١-١٩٢ .**

(1) Albert d'Aix : ***Historia Hierosolymitana ., ED R.H.C . p . 276 .***

سعيد عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .** ؛ إسحاق عبيد : **روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ٨٦٩-١٢٠٤ . (القاهرة – ١٩٧٠م) ، ص ٨٩ .** ؛ جوزيف نسيم يوسف : **العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولي (الإسكندرية ، ١٩٦٧) ص ١٥٩ .**

من المصاعب فأمر بطرس رجاله بالانتقام ومهاجمة المدينه ، ونجحوا فى الاستيلاء على قلعتها ووقعت مذبحة راح ضحيتها أربعة آلاف من اهلها . ثم تركوا المدينة خوفاً من انتقام ملك المجر [١].

مر بطرس الناسك فى رحلته على مدينة نيش ***Nish*** وصوفيا والتقى بسفراء الامبرطور الذين أبلغوه قلق الامبراطور من سوء سلوك جموعه،وطلبوا منه عدم إقامتهم فى موضع واحد أكثر من ثلاثة أيام ، ومع ذلك فقد أمر الإمبراطور بتوفير احتياجاتهم ، وعندما وصلت الحملة إلى مدينة فليبوبوليس ***Philippolis*** تأثر البيزنطيون عند سماعهم أخبار ما تعرضوا له من المتاعب وقام السكان المحليون بتقديم الكثير من الاموال والخيول [٢].

وفى ٣٠ يوليو ١٠٩٦ وصل بطرس إلى العاصمة البيزنطية وهناك انضم إليه اللمبارديون [٣] وغيرهم كثيراً ، فأمر الامبرطور بتزويدهم بالمؤن بقدر ما تسمح به طاقة البلد وقال لهم : " لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لأنكم لستم بالكثرة التى تمكنكم من محاربة الترك ، فسار الصليبيون أسوأ سيره إذ ضربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران

---

(2) Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 276 . ;*** *William of tyre :* ***A History of deeds done Beyond the sea . vol . 1 . p . 104 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١١٥-١١٦** . ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٠٩** .

(3) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 282-283 . ;*** *William of tyre :* ***op . cit ., vol . 1 p . 105 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 1 p . 126 .***

رنسيمان : **المرجع السابق، جـ ١ ، ص ١٩٦-١٩٧** . ؛ **إسحاق عبيد : المرجع السابق ، ص ٩٠** .

[٣] اللومبارديون : **أحد الشعوب الجرمانية التي عاشت في أحد السواحل الجنوبية لشبة جزيرة اسكندیناوة ، ثم نزحت في القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد إلي منطقة الدانوب ، وفي القرن السادس نزحوا إلي إيطاليا بقيادة زعيمهم ألبوين ، وقد قضي شارلمان علي مملكتهم سنة ٤٧٤ م . انظر :**

محمود الحويري : **اللومبارديون في التاريخ والحضارة (مصر-١٩٨٦م)** .

وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للإغريق ، وخوفا من تماديهم فى تلك الأعمال أمر الامبراطور بنقلهم إلى الساحل الأسيوى عبر البسفور (١).

وفى ٦ أغسطس تم نقل قوات بطرس عبر البسفور ومن شاطىء البسفور الآسيوى اتخذوا طريقهم دون أن يلتزموا النظام ، فصاروا ينهبون الدور والقصور الواقعة على امتداد شاطىء بحر مرمرة حتى نيقوميديا التى هجرها سكانها بعد أن نهبها الترك منذ خمس عشرة سنة ، ووقع فى هذا الموضع شجار بين الألمان والايطاليين من جهة ، وبين الفرنسيين من جهة أخرى . ثم نصب الصليبيون معسكرهم عند بلدة كيفيتوت *Civitot* الواقعة على الضفة الجنوبية لخليج نيقوميديا وكانت السفن البيزنطية تتردد عليهم باستمرار محملة بالمؤن (٢).

غير أن الصليبيين بقيادة بطرس الناسك سرعان ما تناسوا نصائح الإمبراطور ،وبدأ فريق منهم يشنون غاراتهم على القرى المجاورة وأخذ الصليبيون يزحفون على الأرض التى كانت بأيدى الترك والاستيلاء على ماشية وممتلكات السكان دون تمييز عما إذا كانوا من الرعايا البيزنطيين أو

---

(5) Gesta Fruncorum et aliorum Hierosolimitanorum : ***The Deeds of the franks and the other Pilgrims to Jerusalem edited by Rosalind Hill . (London , 1962 ., pp . 2-3 .***

والترجمة العربية : المؤرخ المجهول : " **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس " ترجمة قدم لها وعلق عليه دكتور حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٦٠**

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 pp . 127-128 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٧-١٩٨ .** ؛ جوزيف نسيم : **المرجع السابق ، ص ١٦٠-١٦١ .**

(1) Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 283 . ;*** *William of tyre :* ***op . cit ., vol . 1 p . 106 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٥ .** ؛ جوزيف نسيم : **المرجع السابق ، ص ١٦٢ .**

الترك ، ثم توغلوا فى داخل آسيا الصغرى حتى بلغوا أبواب مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقى قلج أرسلان ، فنهبوا القرى وساقوا ما صادفهم من الماشية والأغنام وقتلوا السكان المسيحيين فى وحشية فاقت كل وصف ، وتذكر الأميرة آناكومنين أنهم قطعوا أطراف بعض الأطفال وثبتوا البعض الآخر على ألواح خشبية ثم قاموا بشيهم على النيران ، وأنزلوا شتى صنوف العذاب بكبار السن ، والتحم معهم أهالى نيقية فى معركة عنيفة ورجع الصليبيون إلى معسكرهم فى كيفيتوت محملين بالغنائم والأسلاب (١).

والواقع أن الصليبيين كان يستوى عندهم المسلمون والمسيحيون الشرقيون ، فقد كان المسيحيون الشرقيون فى نظرهم هراطقة لأنهم على غير مذهبهم ، وقد أثار ما أحرزه هذا الفريق من الصليبيين فى غاراتهم من غنيمة مثمرة غيرة فريق آخر ، فكان هذا مدعاه لانقسام جماعات بطرس على نفسها ، كل يريد أن يكون له نصيب الأسد من الغنيمة ، وكان من أثر ذلك أن انسحب فريق من الصليبيين ومضوا فى سيرهم حتى بلغوا قلعة اكسريجوردوس *Xerigordus* فاستولوا عليها وعثروا فيها على كميات وفيرة من الميرة كالحنطة واللحوم وغيرها من المؤن ، واتخذوها مركزا يغيرون منه على الارض الزراعية المجاورة ، ولما علم السلطان السلجوقى قلج ارسلان باستيلائهم على القلعة بعث بقوة كبيرة على رأسها القائد التركى إلخان *El Khanes* تمكنت من استعادة القلعة بعد ان أعمل السيف فى رقاب كل من وجده (٢).

---

(2) Anna comnena : ***The Alexiad ., pp . 311-312 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 1 pp .128 –130 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٩ . ؛** جوزيف نسيم : **المرجع السابق ، ص ١٦٢ .**

(3) Anna comnena : ***The Alexiad ., pp . 312-313 . ;*** *Albert d'Aix* : ***op . cit ., p . 288 . ;*** *William of tyre* : ***op . cit ., vol . 1 pp . 108-109 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .**

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 130 .***

وهنا نلاحظ أن المؤرخ المجهول صاحب كتاب " أعمال الفرنجة " – وهو شاهد عيان – قد أورد معلومات لم ترد عند غيره من مؤرخى الحروب الصليبية عن هذه الواقعة حيث ذكر " أن الترك قاموا بحصار القلعة ومنعوا عنها الماء ، فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم ، وشراب دمائها ، وألقى الاخرون الخرق معلقة بالخطاطيف فى الكنف وعصروها فى أفواههم وكان أحدهم يبول فى يد رفيقه ثم يشرب الاثنان وحفر بعضهم الاراضى الرطبة واضطجعوا فيها وهالوا التراب على صدورهم " [1].

ولم يبق خبر هذه النكبة خافيا على من فى كيفيتوت الذين راحوا يتدبرون الأمر فيما بينهم، كما أن الترك السلاجقة كانوا يعدون العدة للقضاء على الصليبيين فقاموا بنصب الكمائن فى مواضع مختلفة على طول الطريق من المعسكر الفرنجى فى كيفيتوت إلى مدينة نيقية [2].

واشتدت ثائرة الجيش الصليبي وحماسة للمضى للإنتقام فى أكسيريجوردون ، غير أن والتر المفلس حث زملاءه على أن ينتظروا قدوم بطرس الذى توجه إلى القسطنطينية وسوف يعود خلال ثمانية أيام غير أنه لم يعد ، وفى تلك الاثناء شاع أن الترك أخذوا يقتربون بجيوشهم من كيفيتوت ، فاجتمع مجلس الحرب وأصدر قراراً بألا يجرى شىء إلا بعد

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ .**

William (B) & Litt (D) : ***op . cit ., p . 276 .***

قاسم عبده قاسم : " **الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية ، (القاهرة –١٩٨٣) ص ١٦٦** .

(1) Gesta Fruncorum ., pp 3-4 . ;

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٢٠ .**

(2) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 312 .***

وصول بطرس غير أن جودفرى الملقب ببوريل ويسانده الرأى العام فى الجيش أصر علي أنه من الجبن والحماقة ألا يزحف الجيش للقاء العدو [١].

وفى ٢١ من أكتوبر تحركت من كيفيتوت جموع الصليبيين ، ولم يتركوا خلفهم سوى الشيوخ والنساء والأطفال العزل من السلاح ، وتم تسليح الجيش البالغ عدده خمسة وعشرين ألفاً من المشاه المدججين بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أفضل تجهيز بما عليهم من الزرديات ، وصفوا صفوفهم للقتال وزحفوا فى طريق زاخر بالغابات وكانت وجهتم ناحية نيقية وما كادوا يتقدمون ثلاثة أميال فى الغابة حتى كان قد بلغها أيضا قلج أرسلان على رأس جيش ضخم . وعند نهر دراكون ***Dracon*** نصب الترك كمينا وسار الصليبيون دون أن يلتزموا النظام فانهال عليهم سيل من السهام فجأة وتلقفتهم الجيوش السلجوقية وأعملت فيهم السيوف بلا رحمة وهزمتهم شر هزيمة ، وتعقبوهم حتى معسكرهم وأعملوا فيهم مذبحة شنيعة [٢].

---

(3) William of tyre : ***op . cit ., vol . 1 pp . 107-108 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٧ . ؛**

Runciman ***: The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 283 .*** *Runciman* ***:A history of the crusades ., vol . 1 p . 131 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .**

(1) William of tyre : ***op . cit ., vol . 1 pp . 108-109 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .**

Runciman ***:A history of the crusades ., vol . 1 pp . 131-132 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .**

Ostrogorsky ***: History of the Byzantine state ., p . 321 . ;*** *Robinson (F)* ***: A short Hist. Of Mediaval peoples . (London – 1912) ., p . 614 . ;*** *William (B) & Litt (D) :* ***op . cit ., p . 276 . ;*** *Loewe (H.M.J) :* ***The Seljuqs in cam. Med. Hist ., vol . IV . p . 315 .***

ولم ينج من هذه المذبحة سوى بطرس الناسك وقليل من اتباعه ، ولقد قتل فى هذه المعركة بضعة رجال من ذوى المكانة فى معسكر بطرس منهم والتر المفلس ورينيه دى بروس وفولشر دى أورليانز وغيرهم [١].

وعندما علم الامبراطور البيزنطى بما حل بالجموع الصليبية بادر بإرسال قوة كبيرة مسلحة لإنقاذ الصليبيين اتجهت الى كيفيتوت ، وعند وصول تلك القوة رفع الترك الحصار وتمكنت القوة البيزنطية من إنقاذهم وإعادتهم سالمين إلى ألكسيوس الذى رحب بهم [٢].

ثم قام الامبراطور الكسيوس بمعاتبة بطرس وأخذ يذكره بعدم التزامه بالنصائح والتعليمات التى بذلها له وذكر له أن الكوارث التى حلت به وبقواته إنما تعود إلى عدم أخذه بنصائحه التى أسداها من قبل ، وأجاب بطرس بأنه ليس السبب فيما حدث ، وأن رفاقه لم يطيعوه وانقادوا وراء شهواتهم متهما إياهم بأنهم لصوص مخربون وغير جديرين بالتعبد عند ضريح المسيح [٣].

---

(2) William of tyre : ***op . cit ., vol . 1 pp . 108-109 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .** ؛ قاسم عبده قاسم : **المرجع السابق ، ص ١٦٧ .**

(3) Anna comnena : ***The Alexiad ., p . 313 . ;*** *Albert d'Aix :* ***op . cit ., p . 289 .*** *William of tyre :* ***op . cit ., vol . 1 pp . 109-110 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٣٠ .**

Runciman : ***The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 284 .***

(4) Anna comnena : ***The Alexiad ., p . 313 . ;*** *Albert d'Aix :* ***op . cit ., p . 189 .***

ماكسيموس مونروند : **تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب . ترجمة / مكسيموس مظلوم جزوان (أورشليم –١٨٦٥م) جـ ١ ، ص ٢٨ . ، وجدير بالذكر أن آنا كومنين مخالفة لجميع المؤرخين حيث تؤكد علي أن بطرس كان موجوداً في المعركة بينما يري باقي المؤرخين أنه كان في القسطنطينية عند حدوث المذبحة والحقيقة**

ورغم ما قام به الامبراطور ألكسيوس من انقاذ هذه الحملة ، إلا أننا نجد أن المؤرخ المجهول الذى عاصر الحملة الصليبية الأولى وكتب عنها بذكر أن الامبراطور عندما بلغه خبر فناء جماعات بطرس الناسك على أيدى التركمان لم يخف فرحة العظيم بذلك ، وأصدر أمره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح حتى يأمن شرهم [١] وعلى الرغم من هذا الاتهام الموجه للامبراطور بأن له اليد الطولى فى هذه المأساة إلا أننا نجد اختلاف الصورة التى رسمها البرت أوف دكس للامبراطور عما قاله المؤرخ المجهول حيث تحدث عن كرمه وحسن معاملته وتقديم النصائح لهم ومبادرته لانقاذ من بقى منهم على قيد الحياه ، وإن كان قد اتفق مع المؤرخ المجهول بأنه أظهر نوعا من الفرح بما حدث للصليبيين عند نيقية [٢].

وجدير بالملاحظة هنا أن المؤرخة آنا كومنين تعتبر أن بطرس وجماعته السبب الرئيسى فى هذه الكارثه لعدم إستماعهم للنصح الذى بذله لهم الامبراطور ، ونلاحظ أيضاً أن مؤرخى هذه الفترة بما فيهم آنا والمؤرخ المجهول والبرت أوف دكس اتفقا جميعاً على عدم سير هذه الجماعات الصليبية فى نظام وسلوكهم المسلك المشين فى آسيا الصغرى واستعجالهم وعدم استماعهم لنصح الامبراطور وعدم تقصير الإمبراطور الكسيوس ، فعندما علم بالمذبحة أرسل سفن وقوات لإنقاذهم .

أننا نميل إلي الأخذ برأى باقي المؤرخين خاصة إذا علمنا أن تاريخ تأليف الكتاب كان بعد حوالي خمسين عاماً من انتهاء الحملة ويبدو أن الأمر ألتبس علي آنا كومنين .

*(1) Gesta Fruncorum ., **p . 5** .*

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٢٢ .**

*(2) Albert d'Aix : **op . cit ., pp . 284-289 .***

ويعلق رنسيمان على ما حدث للجموع الصليبية قائلا " بأنها علمت الناس أن الايمان وحده لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس إذا تجردوا من الحكم والنظام " (١).

وهكذا فشلت تلك الحملات الشعبية وتلقت ضربة شديدة على يد الأتراك السلاجقة وتركت صورة سيئة فى أذهان المسيحيين الإغريق فى آسيا الصغرى الذين لقوا على أيديهم المهانة والسرقة والقتل ، وقد انتظر من تبقى من هذه الحملات الشعبية فى العاصمة وضواحيها حتى تصل الحملات المعروفة بالنظامية أو حملات الأمراء .

كانت الجيوش النظامية متأهبة للرحيل الى الارض المقدسة بقيادة النبلاء وكبار الساده الإقطاعيين والفرسان من مناطق متفرقة من أوربا . وفى أواخر صيف سنة ١٠٩٦ استقبلت القسطنطينية زعماء الحملة الصليبية الاولى فى نوفمبر سنة ١٠٩٦ حيث وصل جيش صليبى بقيادة هيوكونت فرماندو ***Hugh Count of Vermandois*** شقيق فيليب الأول ملك فرنسا ، وكان هذا الجيش أول الجيوش الصليبية وصولاً إلى الأراضى البيزنطية (٢).

وتلى جيش هيو فى الوصول الى القسطنطينية جيش بقيادة جودفرى دى بويون ***Godfrey of Bouillon*** دوق اللورين ، حيث وصل فى ديسمبر سنة ١٠٩٦ ومعه أخواه بلدوين وإيوستاس ***Eustace***(٣) كما

---

(3) Runciman :***A history of the crusades ., vol . 1 p . 133 .***

رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠٦.

(4) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 315 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 1 p . 145 . ;*** *Loewe :* ***op . cit ., vol . IV , p . 316 . ;*** *Rice (T.T) :* ***Byzantium . , p . 95 . ;*** *Mango :* ***op . cit ., p . 107 . ;*** *Ahrweiler (Helene) :* ***Byzance et la Mer . , p . 190 .***

(1) Anna comnena ***: The Alexiad ., pp . 319-320 . ;*** *William of tyre :* ***op . cit ., vol . 1 pp . 116-117 . ;*** *Doggan (Alfred) :* ***The story of the***

وصل إلى القسطنطينية فى ابريل سنة ١٠٩٧ جيش النورمان بقيادة بوهيموند النورمانى أمير تارنتو ***Taranto*** وابن روبرت جويسكارد [١].

ووصل أيضاً الى الفسطنطينية فى ابريل سنة ١٠٩٧ جيش بقيادة ريموند الرابع كونت تولوز وبرفانس بجنوب فرنسا ***Raymond IV of Toulouse*** والمعروف بالصنجيلى – نسبة إلى مقاطعة سان جيل ***Saint Gilles*** –وهو أول أمير نورمانى أعلن انضمامه إلى الحركة الصليبية وكان بصحبته أدهيمار أسقف لى بوى والمندوب البابوى القائد الروحى للحملة [٢].

ولقد وصلت أيضاً إلى القسطنطينية فى أوائل مايو سنة١٠٩٧ جيوش روبرت كونت نورماندى، وستيفن كونت بلوا وشارتر وروبرت الثانى كونت فلاندرز [٣].

---

crusades . (London , 1963) ., p . 32 . ; *Runciman* : ***op . cit ., vol . 1 pp . 145 -147 . ;*** *Mayer (H.E) :* ***The crusades . Translated by John Gillingham . (Oxford , 1988) ., 45 . ;*** *Painter (Sidney) :* ***A Hist. of The Middle Ages 284-1500 (New York, 1954) . p . 204 .***

(2) Gesta Fruncorum ., ***p . 10 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٢٤ .**

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 pp . 156-157 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .**

(3) William of tyre : ***op . cit ., vol . 1 pp . 139-141 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 1 pp . 159-163 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٤٣-٢٤٧ .**

(4) William of tyre : ***op . cit ., vol . 1 pp . 148-149 . ;*** *Runciman* ***: The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 288 .***

باركر : **الحروب الصليبية ، ص ٢٧** . ؛ حسن حبشي : **الحروب الصليبية الأولي ، ص** ٦٨ .

ولقد دخلت هذه الجيوش الصليبية الأراضى البيزنطية من ثلاثة اتجاهات مختلفة ، فالأول كان طريق الحجاج عبر المجر ،والثانى عن طريق شمال أيطاليا ودالماشيا ، أما الثالث فكان طريق البحر من جنوب إيطاليا إلى ساحل اليونان [١] وعلى الرغم من أن مجىء الصليبيين إلى أراضى الدولة البيزنطية قد قلب خطط الامبراطور الكسيوس كومنين ومشاريعه رأساً على عقب كما كان تهديدا إيجابيا لدولته ، إلا أننا نراه يعمل على الاستفادة بهم لخدمة مصالحة ومصالح بلاده [٢]. والحقيقة أن الطريقة التى سلكها الامبراطور فى تعامله مع الموقف الجديد كشفت بوضوح عن ذكائه السياسى وشجاعته .

ولما كان الأمراء الصليبيون أتوا منفصلين ، فقد قرر ألكسيوس أن يتعامل مع كل أمير صليبى على حدة قبل أن تواتيهم الفرصة للتجمع وتوحيد صفوفهم [٣] . وبمهارة فائقة تمكن الكسيوس من إقناع القواد بأداء يمين التبعية والولاء له بعد مشاحنات ومنازعات قاسية ، فوعدوه بإعادة جميع الأراضى والمدن التى يقومون بغزوها فى طريقهم إلى بلاد الشام إلى الامبراطورية – والتى كانت فيما قبل تابعة للامبراطورية– وتعهد الامبراطور من جانبه بتقديم المساعدات لهم [٤].

ومما يجدر ذكره أن الامبراطور نجح فى التعامل مع بوهيموند عدوه وابن عدوه اللدود جويسكارد النورمانى ، وإن صرح لأحد قواد الحملة الصليبية الأولى–ريموند الصنجيلي –بتخوفه وعدم الثقه فيه لانه ورث الغدر

---

(5) Brooke (Z.N) : op . cit ., p . 240 .
(6) Ostrogorsky : op . cit ., p . 322 .
(1) Brooke (Z.N) : op . cit ., p . 241 .
(2) Hulm : op . cit ., p . 476 . ; Robinson : op . cit ., p . 615 . ; Brooke (Z.N) : op . cit ., p . 241 . ; Mango : op . cit ., p . 107 . ; Ostrogorsky : op . cit ., p . 322 .

وعدم الوفاء بالعهود عن اجداده ،وطلب منه أن يراقب أفعاله ،وقد قوبل طلب الكسيوس لدى سانجيل بالقبول وأعلن هو الآخر عدم ثقته فى بوهيموند وأنه سوف يفعل ما يراه مناسب(١).

بارحت الجيوش الصليبية النظامية القسطنطينية وعبرت مضيق البسفور متوجهة إلى آسيا الصغرى ،ولا شك أن هدف الإمبراطورية البيزنطية الأول هو القضاء على الاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى باستعادة الأراضى التى فقدتها ،ولكن المدهش فى الأمر أن الامبراطور الكسيوس كومنين رفض عرضا من قادة الحملة بأن يكون قائداً عاماً لهذه الجيوش واعتذر مدعيا أن مشاغل الامبراطورية تحول دون قبوله هذا الشرف العظيم . وتذكر المؤرخة آنا كومنين أن والدها كان يرغب فى المشاركة فى الحملة وفى قتال الترك لكن كثرة أعداد هذه الجيوش قد أخافته (٢) . ويبدو أن الامبراطور الكسيوس تخوف من حدوث خلاف مع اللاتينيين أثناء تحركاتهم فيضر ذلك بالجيش البيزنطى الذى لو تحرك معهم فإنه بالضرورة سوف يصبح فى المرتبة الثانية بالنسبة للجيوش الصليبية من الناحية العددية والقوة .

وكان أن وعد الكسيوس بتقديم المعونة العسكرية براً وبحراً مع احتمال أن يقوم بنفسه بقيادة الجيوش البيزنطية المتعاونة مع الجيوش الصليبية . كما تعهد الامبراطور بتزويدهم بالمؤن والاطعمة وتعويض الفرنجة عن كل الخسائر التى تلحق بهم وتأمين مرور الحجاج والمسافرين

---

(3) Anna comnena **: The Alexiad ., p . 330 . ;** *Lamb (Harold) :* ***The crusades (London , without date) ., p . 104 .***

(4) Anna comnena **: The Alexiad ., p . 330 .**

[١] . واكتفى الامبراطور الكسيوس بإنفاذ كتيبة عددها ألفين من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس ***Taticius*** للمشاركة مع القوات الصليبية [٢].

وفى السادس من مايو سنة ١٠٩٧ وصلت بعض الجيوش الصليبية إلى مشارف مدينة نيقية (أزنيق الحالية) عاصمة سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وإحدى مدن إقليم بيثينيا ، وكانت مدينة نيقية مقر قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، ولقد تحدثت المصادر التاريخية بما اشتهرت به هذه المدينة من حيث مناعتها وحصانتها حيث اشتهرت بتحصيناتها الطبيعية التى تتكون من بحيرة كبيرة تصل إلى أسوارها وخندق ملىء بالماء المتدفق من الجداول فى جانبها الغربى ليسد المدخل من ثلاث جهات ، وقد أحيطت نيقية بأسوار عالية جدا حتي أن المدينة لم تكن تخش هجوم الأعداء ولا قوة أية آله ، وكانت نيقية مصدر قلق كبير لبيزنطة لقربها من القسطنطينية ، كما تتمتع تلك المدينة بأهمية خاصة فى التاريخ المسيحى ، وكانت من أهم المدن البيزنطية فى آسيا الصغرى قبل وقوعها فى يد السلاجقة منذ حوالى ستة عشر عاما تقريبا ولهذا تم تحديد نيقية لتكون الهدف الأول للجيوش الصليبية ،وكانت ضرورة أمن الصليبيين الحربي تتطلب السيطرة على قونية إذ لو ظلت نيقية بيد السلاجقة فسوف تكون البقعة التى تهدد مواصلاتهم وامداداتهم الحربية عند مضيهم فى جوف آسيا الصغرى [٣] والحقيقية أن من ينظر فى خريطة آسيا الصغرى

---

[١] عبد الغني محمود عبد العاطي : **السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م) ص ٢٩٣** . ؛ إسحاق عبيد : **المرجع السابق ، ص ١٠٤** . ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٧** .

(1) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 336 .***

حسن حبشي : **الحروب الصليبية الأولي ، ص ٨٥** .

(2) William of tyre : ***op . cit ., vol . 1 p . 152 .***

يجد ويتبين عند قراءاتها ان نيقية كانت خط الهجوم الاول على القوات الصليبية والبيزنطية .

جرى اختيار الوقت المناسب للهجوم على العاصمة ، إذ أن السلطان السلجوقى قلج أرسلان كان بعيدا عن العاصمة ومشغولاً بنزاعه مع أمراء بنى دانشمند من أجل السياده على مدينة ملطية [١] . كما أنه لم يهتم كثيراً بأنباء الغزو الصليبي ، ولم يدرك ما يتهدده من خطر من جهة الغرب فما أحرزه من انتصار على جموع بطرس الناسك فى سهولة ويسر حمله على احتقار الصليبيين . ولعل حرص جواسيسه وعيونه فى القسطنطينية على إرضاء سيدهم جعلهم يبالغون فى أنباء النزاع بين الامبراطور والأمراء الغربيين ، ولاعتقاده أن الحملة لن تتوغل مطلقا حتى تصل نيقيه فترك داخل الاسوار زوجته وأمواله وأولاده [٢].

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ١٩٩-٢٠١ .** ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١٠٧ .** ؛ ريموندأجيل : **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ترجمة / محمد حسن محمد عطية ، (الإسكندرية ١٩٨٩) ، ص ٧٧ .**

Runciman :***A history of the crusades ., vol . 1 pp . 175-177 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .**

Maalouf (A) : ***The crusades through Arab eyes (London , 1984) p . 5 . ;*** *Chalandon (F)* ***: Essai sur le reigne d'Alexis ler comnene ., p . 188 .***

(3) Matthieu d'Edesse ***: Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse in (R.H.C.D.Arm)., pp . 214-215 ,211-212 . ;*** *Michel le Syrien* ***: Extrait de la chronique de Michel le Syrien , patriarchd . Antioche (1166-1199) editee etitee et traduite en francais par J.B chabot ., p . 187 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 1 p . 177 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ .**

Maalouf : ***op . cit ., pp . 10-11 .***

(1) Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 177 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ .**

غير أن السلطان قلج أرسلان عندما علم أن مدينته تعانى أهوال الحصار ، أرسل إثنين من اتباعه ليدخل الطمأنينة فى قلوب الحامية التركية المرابطة فى نيقية ويشجعهم على الاستمرار فى الصمود ، وقد أرسلهما فى قارب يعبر بهما البحيرة وبعث معهما عبارات التشجيع التى جاء فيها " أن قدوم هؤلاء المتبربرين الذين يظنون أنفسهم قادرين على فرض الحصار على مدينتنا لا ينبغى أن يسبب لكم خوفا لأننى مرابط إلى جواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء ، كما أننى فى انتظار اعداد اخرى قادمه بعدهم ، وحين يتم شمل هذه القوات فى جمع واحد، فسوف تفاجىء معسكرهم بالهجوم فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم لمساعدتنا وكونوا مستعدين لفتح الأبواب وانهضوا متحدين لا يشغلكم شاغل سوى مهاجمتهم ولا ترهبنكم كثرة عددهم إذ ليس عندهم من العدد والعدة ما يكافىء ما عندنا لأنهم جاءوا من أقصى بلاد الغرب فأعياهم طول السفر " ، إلا أن أحد هذين الرسولين قتل على ايدى الصليبيين ووقع الآخر فى الأسر ، و اعترف لهم تحت التهديد والتخويف بما يعرفه [1].

وعلى أية حال ، فقد حاصر الصليبيون مدينة نيقية فى ٣ يونيه سنة ١٠٩٧ ، وكان الامبراطور الكسيوس كومنين يترقب الاحداث من عاصمته ، ويرسل إليهم الامدادات تباعاً عن طريق البحر [2].

ثم غادر الامبراطور الكسيوس القسطنطينية وعبر الساحل الأسيوى وعسكر فى بليكانيوم ***Pelecanum*** استعداداً لتسلم نيقية من الصليبيين فور سقوطها طبقا للاتفاقية المعقودة بينه وبين الصليبيين وكان

---

(2) William of tyre : ***op . cit ., p . 155 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ٢٠٢ .**

[2] فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١٠٩ .**

الامبراطور يخشى أن تتعرض المدينة للسلب والنهب من قبل الصليبيين بعد سقوطها فى أيديهم [١].

ورغم أن الترك الذين كانوا فى مدينة نيقية بعثوا برسالة إلى قلج أرسلان يستنجدونه لإنقاذ المدينة وختموها بقولهم : " أقدموا غير هيابين ،واقتربوا آمنين وادخلوها من الباب القبلى لأنكم لن تجدوا فى هذه الناحية أحداً ما يعترض سبيلكم أو يقف في طريقكم [٢] ،إلا أن النجدة من الجانب السلجوقى تأخرت فى الوصول إلى نيقية مما دفع رجال الحامية السلجوقية إلى الدخول فمفاوضات مع القائد البيزنطى مانويل بوتوميتس بشأن تسليم المدينة للامبراطور ، إلا أن هذه المفاوضات انتهت بالفشل لما تردد عن اقتراب وصول النجده من السلطان السلجوقى ، وتجدد الأمل من جديد فى عدم سقوط المدينة [٣].

وفى حوالى ٢١ مايو سنة ١٠٩٧ قدم السلطان قلج أرسلان بجيشه من جهة الجنوب محاولا بذلك أن يشق له طريقا ينفذ منه إلى المدينة وكان الصليبيون يحاصرون هذا القطاع من المدينة تحت قيادة ريموند كونت تولوز ، وأسرع قلج أرسلان فشن غارة شعواء على رجال

---

(4) Anna comnena ***: The Alexiad ., pp 330-331 . ;*** *Rice (T.T) :* ***The Seljoukes in Asia Minor ., p . 52 . ;*** *Lile (R.J) :* ***Die schlacht von Myriokephalon (1176) Auswirkungen auf das Byzantinische Reich imausgehenden 12 Jahrhundert Revve des Etudes Byzantines . ome 35 . pp 257-275 . Institut Francais D'Etudes Byzantines . (Paris , 1977) p . 28 .***

(1) Gesta Fruncorum ., ***p . 14 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٤ .**

(2) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 334 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 1 p . 178 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٧ .**

الكونت الذين صمدوا للهجوم وشتتوا شمل الصف الأول من عسكر الترك الذين فروا هاربين [١].

بيد أن ظهور قلج أرسلان على رأس إمدادات قوية أحيا عزيمة عسكره فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انفرط عقد نظامهم ، ولم يكن بوسع كل من كونت فلاندر أويوهموند أن يخاطر بتخليه عن القطاع الذى يحاصره من المدينة ، غير أنهما نهضا لمساعدة ريمون بعد أن لاحظا أن الارهاق قد بلغ من رجال كونت تولوز مبلغا جاوز الحد بسبب جيش الأتراك الكاسح ، ودارت رحى القتال ولم يستطيع الترك أن يشقوا لهم طريقا إلى العاصمة وتعرض الجيش لخسائر فادحة فى الارواح وأحرزت القوات الصليبية النصر على الاتراك [٢] . وقد زاد هذا الانتصار من اعتدادهم بأنفسهم وكان من دواعى سرور الصليبيين أنهم عثروا بين القتلى على الحبال التى أحضرها معهم الترك لكى يسحبوهم مصفدين إلى خراسان ، ورغبة فى بث الذعر بين سكان المدينة قام الصليبيون باجتزاز رؤوس القتلى الاتراك وقذفوا بها من فوق الاسوار إلي المدينة [٣] . وكان لذلك كله دور كبير فى اضعاف الروح المعنوية للحامية المحاصرة داخل المدينة .

---

(3) William of tyre : ***op . cit ., p . 156 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ٢٠٤ .**

Gesta Fruncorum ., ***p . 14 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٤** . ؛ ريموندأجيل : **المصدر السابق ، ص ٧٧** .

(4) William of tyre : ***op . cit ., p . 156 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ٢٠٤-٢٠٥** .

Anna comnena : ***The Alexiad ., p . 334 . ;*** *Matthieu d'Edesse :* ***op . cit ., p . 215 . ;*** *Albert d'Aix :* ***op . cit., pp 220-221 .***

(5) Gesta Fruncorum ., ***pp . 14-15 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٤-٣٥** .

Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 221 . ;*** *Runciman :* ***A history of the crusades ., vol . 1 pp . 179-180 .***

كما بعث الصليبيون الى الامبراطور ألفا من هذه الرؤوس وطائفه من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب فى نفسه ، وقام الكسيوس بمكافأة زعماء الجيوش بمبالغ مالية طائله وأرسل إليهم المواد الضرورية من غير إبقاء عليهم (١).

وكان أن أدرك السلطان قلج أرسلان أنه من الحكمة أن يرتد عبر الجبال تاركا المدينة تواجه مصيرها المحتوم بعد أن أدرك أن قوة الصليبيين أكبر مما كان يتوقع ، وأخبر الحامية أن تقوم بعمل ما تراه مناسباً إذ ليس فى وسعه أن يمد لهم يد المساعدة (٢).

وبدأ الصليبيون إحكام الحصار على المدينة من كل جوانبها وذلك بوضع القواد فى أماكن استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من النيران على الأهالى عسى أن يحملونهم على الاستسلام دون مشقه وكان الصليبيون قد قسموا منطقة السور إلى أقسام متساوية وعهدوا بكل قسم منها الى فريق معين من الزعماء (٣).

وراح القاده الصليبيون يحاولون بكل مافى وسعهم نصب آلاتهم على الاسوار عسى أن يتمكنوا من شق طريق لأنفسم يقتحمون منه المدينة حتى انهم نصبوا آله صنعت من جذوع البلوط وجهزت على أن تسع فى جوفها عشرين من الفرسان عهد إليهم بتقويض السور ، ولكن حين

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ .**

(1) William of tyre : ***op . cit ., I , p . 157 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ٢٠٥ .**

(2) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 334 .***

(3) William of tyre : ***op . cit ., I , p . 158 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ٢٠٥ .**

Gesta Fruncorum ., ***p . 15*** *.*

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٥ .**

أسندت هذه الآلـه إلـى الجدار اشتد الأهالى فـى رميهـا بالقذائف الحجريـة فتناثرت أجزاؤها وهلك جميع من كان بداخلها [١].

والحقيقة أن الامبراطور الكسيوس كان يعرف قوة ومناعـه تحصينات نيقية ،وأن الصليبيين لـن يستطيعوا إسقاطها بسـهولة حتـى لـو كانـت قواتهم تفـوق قـوات الحاميـة التركيـة بكثيـر ، لـذا بـادر بإرسـال العديـد مـن آلات الحصار غير التقليدية [٢].

كانت هناك محاولات من قبل ريموند كونـت صنجيل وأدهيمر أسقف بوى لنقب أحد الابراج الواقعة إلى الجنوب واتفق الرأى علـى انفاذ فريـق مـن الرجال يحميهم حاملوا الاقواس ورماة النشاب
،وقـد تمكنـوا مـن هـدم الجـدار واشـعلوا النيران،غيـر أن مـا أحـدثوه فـالجـدار أصلحه المحاصرون ليلاً [٣].

وعلـى الـرغم مـن شـدة الحصـار فقـد صـمدت المدينـة . وتبـين للصليبيين أن الحصار لم يكن تاما حيث كانت الحامية السلجوقية تتصل بالعالم الخـارجى عن طريـق البحيـرة التـى فـى الجنـوب وكانـت منفـذا لتلقـى المؤن وغير ذلك .وبعد أن إجتمـع القادة أرسلوا إلـى الامبراطور وطلبوا منـه المسـاعدة بإرسـال سـفن عـن مينـاء كيفيتـوت لإغـلاق البحيـرة فـى وجـه

---

(4) William of tyre : ***op . cit ., I , p . 159 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، ص ٢٠٨ .**

(5) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 336 .***

(1) Gesta Fruncorum ., ***p . 16 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٥ .**

Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 322-323 .***

ريموندا جيل : **المصدر السابق ، ص ٧٨ .**

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 180 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .**

السلاجقة ، واستجاب الامبراطور على الفور وأرسل عددا كبيرا من القوارب تم سحبها بطريق البر [١] . كما أرسل الامبراطور الكسيوس قوات بيزنطية بقيادة تاتيكيوس وتزتياس *Tzitas* لمساندة الصليبيين وليكون لها السبق في السيطرة على المدينة عند سقوطها [٢].

استمر حصار المدينة وأورد وليم الصورى محاولات من جانب الصليبيين لهدم أسوار المدينة والتى انتهت بنجاحهم فى هدم أحد الأبراج مما أحدث فزعا كبير لدى الحامية التركية [٣].

وبعد أن سيطرت القوات البيزنطية الصليبية على البحيرة تأكد للحامية التركية أمر سقوط نيقية ،وأيقن الترك أنهم لن يستطيعوا تلقى أية نجده من جيوشهم فبعثوا إلى الامبراطور سفارة تحمل اليه استعدادهم تسليمه المدينة إذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون [٤].

---

*(2) Gesta Fruncorum ., **p . 16** .*

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٦** . ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١١٠** .

*William of tyre : **op . cit .,vol . I , p . 160 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠٩** .

*Anna comnena **: The Alexiad ., p . 330 .***

*(3) Anna comnena **: The Alexiad ., pp . 336-337 .***

*(4) William of tyre : **op . cit .,vol . I , pp . 161-165 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢١١-٢١٦** .

*(5) Gesta Fruncorum ., **p . 17** .*

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٧** . ؛ حسن حبشي : **المرجع السابق ، ص ٨٧** .

وأجرت الحامية إتصالاً بالقائد البيزنطى بوتوميتس ودارت مناقشات وتم الاتفاق معه على كيفية تسليم المدينة ، وأرسل بوتوميتس إلى زميله تاتيكيوس الذى لعب دورا كبيرا فى المفاوضات ونجح فى إقناع الحامية بضرورة تسليم هذه المدينة إلى الامبراطور حيث شككهم فى كل أمان يقطعه لهم الصليبيون الذين كانوا يجهلون ما يدور فى الخفاء ،وساق العديد من الحجج التى حملت الأهالى على الموافقة بالاستسلام ،وفى اليوم التالى عندما احتشد الفرنجة للهجوم على المدينة فوجئوا بالأعلام والرايات البيزنطية ترفرف فوق أسوارها ،وهكذا سقطت نيقية فى أيدى البيزنطيين [١] **وكيفما كان الأمر فقد أعيدت نيقية إلى الامبراطورية البيزنطية فى ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧ بعد أن استمرت تحت حكم السلاجقة ستة عشرعاما وأصبح بوسع القسطنطينية أن تتنفس بحرية بعد جلاء التركمان عن هذا المعقل الامامى الحصين** [٢].

---

(1) William of tyre : ***op . cit ., p . 165-166 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .**

Anna comnena ***: The Alexiad ., pp . 337-338 . ;*** *Anonymous Syriaac Chronicle :* ***The first and second crusades . translated by A.S Triton with notes by H.A.R . GIBB . in the journal of the Royal Asiatic Society . (London , 1933) p . 70 . ;*** *Runciman* **: op . cit ., vol . 1 p . 181 .**

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .**

Loewe : ***op . cit ., p . 315 . ;*** *Maalouf :* ***op . cit ., p . 13 . ;*** *Charles(M.B) :* ***Crusades in the Oxford Dictionary of Byzantium . Vol .1 ., pp . 558-559 .***

حسن حبشي : **المرجع السابق ، ص ٨٨ .** ؛ ديورانت (ول) : **قصة الحضارة . ، جـ ٤ ، ص ٤،٢٢ .** ؛ **يشير** بن القلانسي : **أن الأفرنج هم الذين فتحوا نيقية وهو أول مكان يفتحوه . انظر :** ابن القلانسي : **المصدر السابق ، ص ١٣٤ .**

[٢] جوزيف نسيم : **المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .** ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : **المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .**

ولقد سقطت نيقية بعد حصار دام ثمانية أسابيع [١] ولم يخف الصليبيون استياءهم من وقوع نيقية فى أيدى البيزنطيين ، وكاد الأمر يصل الى نزاع بين الصليبيين والامبراطور ، فالصليبيون كانوا يأملون دخول المدينة والاستيلاء على ثرواتها ونهب كنوزها وسبى سكانها ، وبدلاً من ذلك لم يسمح للصليبين بدخول المدينة الا من جماعات قليلة العدد لا تزيد فى كل مرة عن عشرة أشخاص بدون سلاح ، وخضعت لمراقبة شديدة من قبل جند الإمبراطور ، ورأوا الترك ينقلون مع أمتعتهم إلى القسطنطينية تحت الحراسة وشعر الصليبيون بأنهم خدعوا كما ذكرت آنا كومنين صراحة أن البيزنطيين خدعوا الصليبيين [٢].

ومما زاد من كراهية الصليبيين للامبراطور أنه تعهد لهم أن يسلمهم كل ما فى نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعه موجودة داخل المدينة،وإنه سوف يقيم ديراً للاتينيين وملجأ للفقراء من الفرنجة ، وأنه سوف يعطيهم بسخاء يجعل كل جندى منهم يود أن يخدم الامبراطور مدى الحياه ، ووثق الفرنجة فى هذه الكلمات وفرحوا لإستعادة نيقية ، ولكن ما إن أصبحت نيقية فى أيدى الكسيوس حتى تصرف مع الجيش الصليبى بجحود حتى أن " الناس سيسبونه ويصمونه بالخيانه طالما كان حياً " [٣].

Atil : ***op . cit ., p . 21 .***

(3) Lilie : ***op . cit ., p . 28 .***

(4) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 340 . ;*** *William of tyre :* ***op . cit ., p . 167-168 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٠** . ؛ رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧٠** .

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 181 .***

[٣] ريموناجيل : **المصدر السابق ، ص ٧٨** . ؛ جوزيف نسيم : **المرجع السابق ، ص ٢٢٩** .

وقد خفف من حدة هذه الكراهية إلى حد ما ، ما إشتهر به الامبراطور من السخاء ، حيث أراد الامبراطور أن يرضى حلفاءه الصليبيين وبادر باصدار الأوامر بتوزيع الهبات والصدقات والأطعمه على الفقراء [١].

ثم دعا الامبراطور القادة الصليبيين إلى بليكانوم للاحتفال بالنصر وبذل لهم كميات ضخمه من الذهب والجواهر ، ثم طلب الامبراطور من القاده والفرسان الذين لم يقسموا له يمين الولاء أن يؤدوه فاستجابوا [٢].

وكان من بين الأسرى زوجة قلج أرسلان (وهي ابنه الامير تزاخاس " جكا ") مع أبنها وجرى استقبالها بحفاوة فى القسطنطينية ، وعاملهما الامبراطور معاملة طيبة وبالغ فى الإحسان إليهم وإكرامهم [٣] . وكان لابد أن تبقى فى القسطنطينية حتى تصلها رسالة من زوجها عن الموضع الذى تلحقه به وتقرر انفاذها مع ابنها الى السلطان دون دفع الفدية [٤].

---

(1) Gesta Fruncorum ., ***p . 18 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٨ .** ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١١١.**

Runciman ***: The first crusade constantinople to Antioch in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 291 .***

(2) Anna comnena ***: The Alexiad ., pp 340-341 .***

فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١١١.**

Grousset : ***Histoire des croisades et du Royaume France du Jerusalem ., pp . 30-31 . ;*** *Runciman* ***:A history of the crusades ., vol . 1 p . 181 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .** ؛ سعيد عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .**

(3) William of tyre : ***op . cit ., pp .168-169 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .**

(4) Runciman ***:A history of the crusades ., vol . 1 p . 182 .***

والحقيقة أن الامبراطور الكسيوس اشتهر بالرأفه والأمان ، كما أنه من واقع تجاربه السابقة ومن تعاملاته مع المسلمين يدرك أهمية العفوعند المقدرة ويقدر قيمة ما يبديه من تسامح ومروءة مع العدو المغلوب ، ولكن الصليبيين اعتبروا أنه يتصرف بوجهين مختلفين وأنه خائن ، فقيام الامبراطور بالاحسان إلى الاسرى قد فسره المؤرخ المجهول بسوء نية الكسيوس نحو الصليبيين وأنه لم يغفل ذلك إلا لكى يكونوا على أتم استعداد لنصب الكمائن للفرنجة ووضع العقبات فى سبيلهم [١] . ويرى البعض الأخر أن الدافع وراء ذلك هو ما كان يراوده من الأمل فى كسب مودة الترك [٢].

وهناك بعض المصادر التى أشارت الى أن الامبراطور الكسيوس كومنين قام بتحذير الترك في نيقية وجيرانها من الهجوم عليهم وقتلهم [٣] . وكما يرى أحد المؤرخين المحدثين أن الامبراطور الكسيوس كان يرغب فى تفادى التورط فى حرب مع المسلمين وعمل جاهداً على ألا تشتعل نار التعصب أو احياء حركة الجهاد عند المسلمين [٤].

وفضلا عن ذلك ، فان الامبراطور الكسيوس كان دائما ما يرتاب فى نوايا حلفائه الصليبيين ، وكان يتوقع اخلالهم بعهودهم هذا بالإضافة الى ان

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٤٧ .**

Runciman ***: The first crusade constantinople to Antioch in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 291 . ;*** *Rice :* ***op . cit ., p . 53 .***

(5) Gesta Fruncorum ., ***p . 17 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٧ .**

(6) William of tyre : ***op . cit ., pp .168-169 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .**

(1) Anonymous Syriaac Chronicle : ***op . cit ., p . 70 .***

(2) Lamb : ***op . cit ., p . 110 .***

السلطان قلج أرسلان كان بالأمس القريب الحليف للإمبراطور الكسيوس [١].

وعلى الرغم مما أصاب الصليبيين من خيبة أمل فى أنهم لم يستولوا على مدينة نيقية ، ولم يسهموا فى الحصول على ثرواتها ، فان تحرير نيقية ملأهم غبطة وسروراً وأملا فى المستقبل ، إذ جرى انفاذ الرسائل الى الغرب الأوربى تعلن أن هذا الموضع المبجل عاد مسيحيا مرة أخرى وتلقى الناس الخبر بحماس شديد ،وأثبتت الحملة الصليبية النظامية أنها أحرزت نجاحا باهراً ، فكثر قدوم العساكر وأخذت المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الحين شديدة الحذر وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ما وعدت به من مساعدة تزداد اهتماما بالحركة الصليبية [٢].

وقد مكن سقوط نيقية على أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٧ من إعادة غزو مساحة عظيمة من ساحل الاناضول (آسيا الصغرى) وسيمرنا وافسوس [٣] ، كما أدى سقوط نيقية إلى ارتفاع الروح المعنوية لدى الصليبيين وشجعهم على المضى قدما فى مواصلة زحفهم فىآسيا الصغرى عبر طرقها المختلفة [٤] وبدأت القوات المشتركة تغادر نيقية فى ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧ فى طريقها الى بلاد الشام ، وقاموا بتقسيم قواتهم إلى قسمين ضم القسم الاول النورمان : نورمان ايطاليا بزعامة بوهموند وتانكرد ، ونورمان فرنسا واتجه القسم الاول ناحية شمال شرق آسيا الصغرى ،

---

(3) Cahen : ***pre-ottoman Turkey ., p . 85 .***

(4) Runciman :***A history of the crusades ., vol . 1 p . 183 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧٥** . ؛ سعيد عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٣٠** .

(5) Diehl (Charles) : ***Histoire de l'empire Byzantin (Paris , 1920) ., p . 147 .***

[٤] عن الطرق **المختلفة التي تجتاز آسيا الصغرى** . انظر :

Ramsay (W.M) ***: The Historical geography of Asia Minor , pp . 74-82 .***

والقسم الثانى ويضم المندوب البابوى أدهيمر ومعه من الامراء جودفرى بوايون وريموند الصنجيلى اتجه ناحية الجنوب الشرقى على أن يكون اللقاء عند دوريليوم (١).

وفى الوقت الذى سقطت فيه نيقية فى أيدى البيزنطيين والصليبيين وفشل قلج أرسلان فى انقاذها ، اضطر إلي الانسحاب إلى الجنوب الشرقى ليحشد جيوشه من جديد ، حيث عقد صلحاً مع الأمير الدانشمندى وأقنعه بتكوين جبهة إسلامية واحدة لمواجهة هذا الخطر الصليبى وسد الطريق فى وجه الصليبيين ،وتم حشد جيش إسلامى تحت قيادة قلج أرسلان والامير الدانشمندى والامير حسن أمير التركمان النازلين فى قبادوقية واجتمعوا فى دوريليوم استعداد لمواجهة الصليبيين (٢).

وقد عسكر الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند فى سهل بالقرب من دوريليوم وعند شروق الشمس انقض عليهم الترك ،وهم يصرخون صرخات مدوية مرددين بأعلى أصواتهم " الله أكبر " فأمر بوهيموند فرسانه على الفور بأن يترجلوا وأخذ يشجع جنوده ويرفع من معنوياتهم قائلا : " أيها المبجلون ويا فرسان المسيح الاشاوس أمامكم معركة صعبة ،والعدو محدق بنا من كل جانب " وتم الاستعداد لخوض المعركة وتولت النساء نقل المياة إلى الخط الامامى (٣).

---

(7) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 327-328 . ;*** *Gesta Fruncorum .,* ***p . 18 .***
المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٨ .**
William of tyre : ***op . cit ., pp .170-171 .***
وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .**
Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 341 .***
(1) Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 329 . ;*** *Anna comnena* ***: The Alexiad ., p . 341 . ;*** *Runciman :****A history of the crusades ., vol . 1 p . 184 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧٨** . ؛ علي بن صالح المحميد : **الداشمنديون وجاهدهم في بلاد الأناضول ، ص ١٦٩-١٧٠ .**
(2) Gesta Fruncorum ., ***p . 19 .***

أخذ الجيش الاسلامى يطوق الجيش الصليبى من كل جانب ، وتراءى للصليبين أن عدد الترك لا حصر له ، والتحم الفريقان فى قتال عنيف ، واستخدم الترك ما برعوا فيه من الخطط الحربية حيث رموا الصليبيين بالحراب ورشقوهم بالنبال .ولم يكن يسمع إلا صليل السلاح وهتافات العسكر الحماسية التى تعالت حتى خيل أنها تبلغ عنان السماء وسدت على الصليبيين مسالك الفرار ، ورجحت كفة الجيش الاسلامى عن كفة الجيش الصليبى الذى اخذت شوكته فى الضعف [١].

وأثناء القتال بعث بوهيموند رسولاً إلى القسم الثانى من الجيش الصليبى يطلب النجده على عجل للمشاركة فى هذه المعركة [٢] **، فوصلت بقية الجيوش الصليبية إلى أرض المعركة بقيادة جودفرى دى بويون وهيو وكانت قواتهما أول القادمين ثم تلتها قوات أدهيمر أسقف لى بوى وكونت صنجيل** [٣].

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ .**

(3) William of tyre : ***op . cit ., pp .173-175 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٣-٢٢٦ .**

Gesta Fruncorum ., ***p . 19 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ .** ؛ ريموندانجيل : **المصدر السابق ، ص ٧٩** . ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١١٢ .**

(4) Gesta Fruncorum ., ***p . 20 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ .** ؛ ريموندانجيل : **المصدر السابق ، ص ٧٩** .

(5) Gesta Fruncorum ., ***p . 20 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ .**

William of tyre : ***op . cit ., p .175 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .** ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : **المرجع السابق ، ص ١٣١ .**

أدى وصـول هـذه القـوات إلـى تغيـر دفـة القتـال وغيـر مـن مصـير المعركـة المقبلـة وقلبهـا رأسـاً علـى عقـب حيـث تشـجع الصـليبيون وقويـت روحهـم المعنويـة ،وشـرع الجـيش الصـليبى الموحـد فـى القيـام بهجـوم علـى الاتـراك المسـلمين ، وانتصـر الصـليبيون علـى الاتـراك فـى أول يوليـو سـنة ١٠٩٧ فى دوريليوم وإضطر الترك إلى الإنسحاب وتركوا معسكرهم بما حواه من نفائس فاستولى عليها الصليبيون [١] وعلى الرغم من الانتصار الساحق الذى أحرزه الصليبيون فى هذه المعركة إلا أنهم فقدوا الكثير من رجالاتهم الاقوياء [٢].

والحقيقـة أن وقـع الهزيمـة لـم ينصـب علـى الاتـراك وحـدهم بـل علـى المسـلمين قاطبـة ، حتـى أن المـؤرخ ابـن القلانسـي علـق علـى هـذه المعركـة قائلا " واشترى ملك الروم من السبى خلقاُ كثيراً وحملهم إلـى القسطنطينية وتواصلت الاخبار بهذه النوبه المستبشعة فى حق الاسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق " [٣].

---

(1) William of tyre : ***op . cit ., pp .175-176 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٦-٢٢٧** . ؛ المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٠-٤١** . ؛ ريموندانجيل : **المصدر السابق ، ص ٧٩** .

Gesta Fruncorum ., ***p . 21 . ;*** *Anna comnena :* ***The Alexiad ., p . 342 .***

فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ٧٩** .

William (B) & Litt (D) : ***op . cit ., p . 286 . ;*** *Rice :* ***op . cit ., p . 55 . ;*** *Loewe :* ***op . cit ., vol . IV , p 315 . ;*** *Lilie :* ***op . cit ., p . 29 . ;*** *Lamb :* ***op . cit ., pp . 114-120 . ;*** *Rice (T.T) :* ***Byzantium . op . cit ., p . 96 . ;*** *Halt (P.M) :* ***TheAge of the crusades ., p 169 .***

(2) William of tyre : ***op . cit ., p .174 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٥** . ؛ المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤١** .

Gesta Fruncorum ., ***p . 21 .***

[٣] ابن القلانس : **المصدر السابق ، ص ١٣٤** .

وتعتبر معركة دوريليوم [١] من المعارك الهامة ، وينظر اليها المؤرخون باعتبارها من المعارك الفاصلة فى التاريخ التى لا تقل فى اهميتها عن معركة ملاذكرد التى جرت قبل ذلك بحوالى ربع قرن ١٠٧١ م (٤٦٣ هـ) ، ففيها تمكن الصليبيون من القضاء على قوة السلاجقة لفترة من الزمن ،وهى القوة التى كثيرا ما عجزت الجيوش البيزنطية عن وقفها ، كما أن النصر الذى أحرزه الصليبيون كان ذا أهمية خاصة بالنسبة لهم اذ فتح لهم الطريق الى الاراض المقدسة ،كما أوضحت هذه المعركة للصليبيين أن السلاجقة قوة لا يستهان بها إذا ما توحدت وليس أدل على تقدير الصليبيين لقوة السلاجقة ما قاله المؤرخ النورمانى المجهول فى حقهم حيث اعتبر الترك من أروع العناصر وأكثرها شجاعه وبساله ، وتمنى لو كانوا مسيحيين وردد الاسطورة التى تجعل من الفرنج والترك أقارب باعتبارهما منحدرين من سلالة الطرواديين ، وهى أسطورة قامت على اشتراكهما معا فى مناهضة اليونانيين ولا تستند على أساس عنصرى [٢].

---

[١] دوريليوم : تقع دوريليوم التي سميت المعركة باسمها علي بعد ميلين من الشمال الشرقي لمدينة اسكي شهر الحالية *Eski-Shehir* أما الموضع الدقيق للمعركة فلازال موضع خلاف بين المؤرخين حيث أشار ألبرت الآخي أن المعركة وقعت في وادي ديجورجا نهي *Degorganhi* الذي يعرف الآن باسم أوزيليس *Ozellis* بينما أشارت آنا كومنين أن هذه المعركة جرت في سهل دوريليوم ، واشار هجنماير أن المعركة دارت عند *Boisuzak* الحالية .انظر :

Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 329 .*** *Anna comnena* ***: The Alexiad ., p . 341 . ;*** *Runciman* **: *op . cit ., vol . 1p . 186 . ;*** *Guerdan (Rene) :* ***Byzantium . its triumphs and tragedy . translated by D.L.B Hartley with a preface by Charles Diehl . (New York , 1962) ., p 115 .***

(1) Gesta Fruncorum ., ***p . 21 .***

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤١-٤٢ .

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 187 .***

لكن الشئ اللافت للنظر هو ألا نجد فى كتابات المؤرخين المعاصرين من الفرنجة ما يشير إلى أى دور قام به البيزنطيون فى هذه المعركة ، وأن دل هذا على شىء فأنما يدل على شدة كراهية المؤرخين – خاصة المؤرخ المجهول – للبيزنطيين والحرص على استئثار الصليبيين وحدهم بالنصر دون البيزنطيين .

أما بالنسبة لقلج أرسلان [١] الذى فقد الكثير على يد الصليبيين فقد أدرك أنه لا جدوى من محاولة وقف زحف الصليبيين في ذلك الوقت ، وعندما التقى أثناء انسحابه بقوة عربية قوامها عشرة آلاف مقاتل كانت قادمة من بلاد الشام للاشتراك فى المعركة ولكنها وصلت متأخرة ، أوضح لهم ملابسات المعركة وأن ما لدى الصليبيين من جند وقوة يزيد كثيراً عما كانوا يتوقعونه ، وأنه ليس فى وسعه أن يقاومهم ونصحهم بالرحيل فوراً قبل ان يعلم الصليبيون بوجودهم [٢].

وكيفما كان الأمر ، فإن انتصار الصليبيين فى معركة دوريليوم على السلاجقة قد سمح للبيزنطيين بإعادة غزو الجزء العربى للاناضول وإضعاف سلطنة قونية [٣] . إذ أن الصليبيين بعد أن استراحوا مدة فى

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨١** . ؛ حسن حبشي : **المرجع السابق ، ص ٩٣** .

[١] **من الملاحظ أن معظم المؤرخين الغربيين كانوا يطلقون علي قلج أرسلان اسم سليمان بن سليمان** .

(3) Gesta Fruncorum ., ***p . 22*** .

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٢-٤٣** .

Runciman : ***op . cit ., vol . 1 p . 187 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨١-٢٨٢** .

(4) Grabois (A) : ***The Illustrated Ency of Medieval Civilization ., p . 248 .***

دوريليوم راحوا يدبرون خلالها خطة زحفهم ، وواصل الجيش الصليبى زحفه فى ٣ يوليه ١٠٩٧ (شعبان ٤٩٠هـ) فى جموع متصلة وذلك لكى يتجنبوا ما حدث فى دوريليوم ، وأخذوا يشقون طريقهم صوب الجنوب الشرقى عبر هضبة الاناضول ،وفى تلك المرحلة صادف الصليبيون كثيرا من المتاعب ، حيث واجهوا عدواً جديدا تمثل فى المناخ السىء وقسوة الطبيعة ،وساروا فريسة للخطرين الجسيمين : الظمأ وشدة قيظ يوليو ، فلم يصادفوا الماء إلا فى المستنقعات المالحة بالصحراء ، ولم يجدوا من النبات إلا الشوك الذى كانوا يقتلعونه واتخذوه طعاما ، وتعرضت معظم الخيول إلى الهلاك واضطر عدد كبير من الفرسان إلى الترجل ، ودفعهم نقص المطايا إلى ركوب الثيران ، وتم جمع الكلاب والماعز لحمل الآمتعة [1].

وقد حدث ذلك على الرغم من استعانة الصليبيين بالأدلاء البيزنطيين وذلك لخبرتهم بهذه النواحى ومعرفتهم بمسالكها وطرقها وشعابها وآبارها ، ولا شك أن البيزنطيين كانوا صادقين فى ارشادهم للطرق الآمنه إلا أنهم قوبلوا بروح الكراهية والشك من قبل المؤرخين الصليبيين ونسوا ان البيزنطيين مثلهم لا حول لهم ولا قوة فى طرق ومسالك كثيرا ما تعرضت لحروب طويلة بين المسلمين والبيزنطيين ، وما خلفته تلك الحروب من تغيير وهدم لمعالم الطرق . وفى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ بلغ الصليبيون قونية ***Iconium*** التى وقعت فى يد السلاجقة منذ ثلاثة عشرعاما والتى اتخذها قلج أرسلان مركزا لتجمعاته بعد هزيمته فى نيقية ،

---

*(1) Gesta Fruncorum ., **p . 23 . ;** William of tyre : **op . cit ., vol . 1 pp . 188-189 . ;** Dugan : **op . cit ., pp . 43-44 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٣-٤٤** . ؛ وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ،ص ٢٢٩-٢٣٠** . ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ٢٨٣** . رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨٣** .

وعندما دخل الصليبيون قونيه وجدوها مهجورة إذ هرب الترك الى الجبال بكل ما لديهم من منقولات وأمتعة ولم يوجد بالمدينة من يدافع عنها ، ووجدها الصليبيون فرصة للاستجمام حيث إنها كانت منطقة خصيبة زاخرة بشتى أنواع الحياه ،وأشار عليهم بعض الارمن المقيمين فى قونية ان يحملوا معهم كميات وفيرة من الماء قبل أن يقدموا على اجتياز الصحراء المقفرة بين قونيه وهرقلة (١).

واصل الصليبيون زحفهم حتى وصلوا هرقلة ،وعندها فوجىء الصليبيون بجيش من الترك بقيادة الامير حسن أمير دانشمند ، ونشب قتال بين الفريقين ، وكان بوهيموند يقود الصلبيين فى هذه المعركة ،وأبدى فيها شجاعة فائقه ، ولم يشأ الترك أن تكون هذه المعركة فاصلة بين الجانبين فاسرعوا بالانسحاب الى الشمال ،وتذكر الصليبيون هنا وصية الامبراطور الكسيوس كومنين فلم يقوموا بمطاردة الاتراك ، وسقطت هرقلة فى ايدى الصليبيين (٢).

وأشار المؤرخ المحدث رنسيمان الى أن الاميرين التركيين نظراً لحرصهما على أملاكهما فى قبادوقيا كانا يأملان من حضورهما إلى هرقلة أن يحملا الصليبيين على اجتياز جبال طوروس إلى ساحل البحر المتوسط

---

(2) Gesta Fruncorum ., ***p . 23 . ;*** *William of tyre :* ***op . cit ., vol . 1 p . 181 . ;*** *Loewe :* ***op . cit ., p . 315 .*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 1 p . 189 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٤** . ؛ وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ،ص ٢٨٤** . ؛ سعيد عاشور : **المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٣١** ؛ حسن حبشي : **المرجع السابق ، ص ٩٤** .

(3) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 342 . ;*** *Gesta Fruncorum .,* ***p . 23 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٤** . ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص** . ١١٧

وعدم سيرهما عبر الطريق المؤدى إلى أملاكهما فى قبادوقيا [١] ، إلا أنهما لم يحققا ما ارادوه وكانت محاولة فاشلة قام بها الترك لصد الصليبيين ذوى الروح المعنوية المرتفعة نظرا لتوغلهم المستمر فى اعماق آسيا الصغرى .

وبعد سقوط مدينة هرقلة فى أيدى الصليبيين وبقائهم فيها بضعة أيام للراحة كان لابد وقتذاك من مناقشة الطريق الذى ينبغى اتخاذه حيث كان هناك طريقان : الطريق الاول يخترق جبال طوروس خلال الممر الكبير لبوابات قيليقية ، والطريق الاخر يؤدى الى انطاكية عبر قيصرية ومرعش ، ولقد أوصى تاكيتوس نائب الامبراطور البيزنطي بالطريق الثانى لانه يجتاز بلاداً يحكمها مسيحيون ومزايا أخرى ، وقبل بعض القاده مشورته ، ولقى الاعتراض من بعض القادة الآخرين الذين يحملون الكره للبيزنطيين ، لذا قد انفصل تنكرد وبلدوين واتجها صوب قيليقية وسلكا الطريق الذى يمر عبر جبال طوروس [٢].

أما بالنسبة لبقية الجيوش الصليبية وعلى رأسها المندوب البابوى ،وجودفرى ، وبوهيموند ، وريموند ، فقد سلكوا طريقا ناحية الشمال الشرقى

---

(1) Runciman : **op . cit ., vol . 1 p . 189 .**

رنسيمان : **المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٢٨٥ .**

(2) Gesta Fruncorum ., **p . 24 .**

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٤ .**

Grousset : **Histoire des croisades et du Royaume France du Jerusalem ., p . 38 . ;** Runciman : **op . cit ., vol . 1 pp . 190-191 .**

رنسيمان : **المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٢٨٦ .**

Runciman **: The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 266 .**

سعيد عاشور : **المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .** ؛ محمود الحويري : **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين ، ص ٤٤ .**

نحو قيصرية ، وعند قلعة أوجو ستو بوليس ***Augustopolis*** [١] اصطدموا بجيش من الاتراك المسلمين يقودة الامير حسن أمير التركمان فى قبادوقية فالحق الصليبيون بهم هزيمة أخرى [٢].

ثم تقدم الجيش الصليبيى وأفضى به السير إلى أحد الحصون وتقرر تسليمه الى امير أرمن اسمه سيمون بناء على طلبه ،وكان معادياً للترك [٣].

ثم بلغ الصليبيون مدينة قيصرية واستولوا عليها فى ٢٧ سبتمبر ١٠٩٧ م ، وقد هجرها الترك ، وأسرع الصليبيين فى الحال الى الجنوب الشرقى فاستولوا على كومانا ***Comana (Placentia)*** وهى مدينة وافرة الغنى والرخاء سكانها من الارمن ،وكان الدانشمنديون يحاصرون هذه المدينة إلى أن ابتعدوا عنها عند علمهم باقتراب مسير الصليبيين إليها ، ولما وصل الجيش الصليبى إلى كومانا طلب سكانها من تاتيكيوس المندوب البيزنطى أن يرشح حاكماً يتولي أمر المدينة باسم الامبراطور ، فرشح لهذه الوظيفة فارس بروفنسالى اسمه بطرس الابوسى ***Petrusade Alpibus***

---

[١] أوجستوبوليس : أو أغوستوبوليس ، هو الاسم الذي عرفت به قلعة قيرشهر التركية ، والتي تقع علي بعد ثمانين ميلاً غرب مدينة قيصرية في وسط آسيا الصغرى . انظر : لسترنج : بلدان الخلافة الشرفية ، ص ١٧٩ .

(4) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 342 . ;*** *Runciman* ***:A history of the crusades ., vol . 1 p . 190 .***

رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨٦ .

Runciman ***: The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 297 .***

(1) Gesta Fruncorum ., ***p . 25 .***

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٥ .

ثم تقدم الجيش الصليبى من كومانا الى مدينـة كوكسن *Cocxon* فأقام بها ثلاثة أيام [١].

والحقيقـة أن أختيـار المنـدوب البيزنطـى لحـاكم لاتينـى لهـذه المدينـة هـى اختيـار ذكـى إن دل علـى شـىء فإنمـا يـدل علـى ذكـاء ودبلوماسـية تاتيكيوس الذى أعطى الانطباع بأن الفرنجـة والبيزنطيين لا زال بإمكانـهم أن يتعاونوا .

ثم تابع الجيش الصليبى زحفه الـى ان وصل إلـى مدينـة مرعش فـى ١٣ اكتـوبر ١٠٩٧ م ، فرحـب سـكانها الارمـن بالصـليبيين عنـد وصـولهم

---

*(2) Gesta Fruncorum ., **p . 26 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٦ .**

*Anna comnena **: The Alexiad ., p . 343 .** Grousset : **op . cit ., p . 38 . ;** Runciman :**A history of the crusades ., vol . 1 p . 191 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .**

*Duggan : **The story of the crusades ., p . 48 .***

وأعطوهم كل ما احتاجوه من مؤن [١] وكان يحكم مدينة مرعش موظف بيزنطى اسمه ثاتول *Thatoul* . فتقرر إبقاؤه فى وظيفته [٢].

والحقيقة إن قواد الصليبيين عملوا على إقامة روابط الصداقة مع المملكة الارمينية ،ولقد

استخدم الصليبيون طرقهم واستعانوا بقواتهم واستقبلوا سفاراتهم وقاتلوا أعدائهم ، وأقاموا حكومات إقطاعية بالقرب منهم [٣].

وهكذا وجد الصليبيون فى الارمن عوناً قوياً ووجد الارمن فى الصليبيين حليفاً كبيراً ، ولاشك فى أن هذه الصداقة التى قامت بين الطرفين فى أول الامر انما كانت تستهدف مواجهة العدو المشترك ممثلاً فى الدولة البيزنطية من ناحية ، والقوة الاسلامية ممثلة فى الترك من ناحية أخرى [٤].

---

(3) Gesta Fruncorum ., ***p . 27 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٨ .** ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١١٧ .**

Macler : ***Armenia in cam. Med. Hist. vol . IV . p . 168 . ;*** *Morgan (J)* ***: Histoire Du peuple Armenien ., p 168 . ;*** *William (B) & Litt (D) :* ***The first crusade in cam . med . His . vol . v . p . 286 . ;*** *Lang :* ***op . cit ., p . 201 .***

عاطف مرقص بطرس : **المرجع السابق ، ص ٢١٧** . ؛ عثمان الترك : **صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية ، ص ١٣٤-١٣٥ .**

*Runciman :****A history of the crusades ., vol . 1 pp . 192-193 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ .**

(4) Matthieu d'Edesse ***: op . cit ., p . 230 . ;*** *Runciman* ***: The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 298 .***

(1) Macler : ***op . cit ., p . 167 .***

إستارجيان : **تاريخ الأمة الأرمينية ، ص ٢٠٧ .**

[٤] سعيد عاشور : " **سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغري " ص ١٤٢.** ؛ **علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية ، ص ٤٦ .**

وقد قيم بعض المؤرخين هذه المساعدات الارمينية بأنه لولاها لما تمكن الصليبيون من الوصول الى هدفهم وهو الشام وفلسطين [١]. حتى أن البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥م) صرح بعد تلك الأحداث بفترة طويلة قائلاً : " إن الصليبيين لم يتلقوا المساعدة إلا من الشعب الأرمنى الذى قدم لهم الرجال والجياد والاسلحة والمؤن [٢]. ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين اتجهوا من مرعش نحو بلاد الشام حيث وصلوا إلى انطاكيه فى عشرين أكتوبر ، وبذلك بدأ الغزو الصليبى للشام [٣].

أما تانكرد وبلدوين الذين انفصلا عن الجيش الصليبى الرئيسي فقد اتجها إلى طرسوس فاستولى تانكرد عليها ،ووقع نزاع بين تانكرد وبلدوين مرتين أمام كل من طرسوس والمصيصة وذلك لمطامعهما الشخصية التى كانت تحركهما ، إلا أنهما أدركا فى النهاية أنه من الافضل أن يتوطد السلم بينهما ، فنبذا الخصومة جانباً ورحلا الاثنان إلى الشام ثم تكونت بعد ذلك إمارة الرها الصليبية وهى أول إمارة للصليبيين [٤].

---

[١] فؤاد حسن حافظ : **تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتي اليوم ، ص ١٤٩ .**

(4) Morgan : ***op . cit ., p . 169 .***

[٣] سعيد عاشور : **الحركة الصليبية ،جـ ١، ص ١٣٢ .**

(6) William of tyre : ***op . cit ., p .185 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٣٥-٢٤٧ .**

Gesta Fruncorum ., ***pp . 24-25 .***

المؤرخ المجهول : **أعمال الفرنجة ، ص ٤٥ .** ؛ فوشية الشارتيري : **المصدر السابق ، ص ١١٧-١١٩ .**

*Runciman :****A history of the crusades ., vol . 1 pp . 197-205 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٩٦-٣٠٥ .**

Runciman : ***The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 300 .***

على أن النجاح الذى حققه الصليبيون من غزوهم لأراضى سوريا وفلسطين قد وصل إلى مسامع لورد فرنجى اسمه بيتابين *(Poitevin ? Pitabin)* ودفعه ذلك إلى أن يخطط ليمر علي بامفيليا وكابادوكيا لكى يستولى على الاراضى الشمالية ، وقد وصل إلى القسطنطينية حيث حضر المجمع مع الكسيوس وسألهم مرشدين ممن يعرفون الطرق فى آسيا الصغرى . ويذكر الكاتب السرياني المجهول أن الكسيوس خدعه وخانه وضلله ، حيث أرسل معه رجال قادوه إلى الصحراء حيث لا يوجد ماء ولا طعام ، ووشى به إلى الترك وقاموا بتطويقه ورفاقه وباغتوهم لكونهم متعبين وأمطروهم بسحابات من السهام وقد ذبحوا وهزموا على يد الترك واستولوا على ذهب كثير كان معهم ، ولقد هرب اللورد الفرنجى مع قلة من رجاله وعادوا إلى أوطانهم [1].

ومما سبق يتضح لنا أن الحملة الصليبية الأولى قد شقت طريقها عبر آسيا الصغرى بعد أن حققت انتصارات عديدة على جيوش الأتراك المسلمين . ويجب تسجيل حقيقة هامة هنا . إن البيزنطيين لو لم يرشدوا الصليبيين لما استطاعوا أن يشقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى وذلك لما لهم من خبرة سابقة فى قتال الترك جعلتهم يبذلون النصيحة الصادقة . كما كان الصليبيون أوفياء بتعهداتهم للامبراطور البيزنطى حيث سلموه كل ما فتحوه فى آسيا الصغرى على الرغم من أن القاده الصليبيين كانوا يرتابون فى نوايا البيزنطيين .ولكن الصليبيين استقلوا بما سوى ذلك ، فكونوا فى الشرق الإمارات المختلفة . إمارة الرها (١٠٩٨ م) وانطاكية (١٠٩٨ م) ومملكة بيت المقدس (١٠٩٩ م) وطرابلس (١١٠١ م) .

(1) *Anonymous Syriaac Chronicle : **pp . 74-75 .***

الحملة الصليبية سنة ١١٠١ م :

لم يكد الغرب الاوربى يعلم بالنجاح الذى حققته الحملة الصليبية الاولى فى استرداد الاراضى المقدسة من المسلمين ، حتى تحمس كثير من ابناء غرب أوربا لحمل الصليب والزحف نحو الشرق .

وقد تتابعت الجيوش الصليبية على القسطنطينية فوصلت أولاً الجيوش اللومبارديـة فـى مـارس سـنة ١١٠١م ، وكانـت هـذه الحملـة قـد غـادرت مـيلان فـى ١٣ سـبتمبر ١١٠٠ م وتـولى قيادتهـا أنسـلم بويـه ***Anselim of Bois*** رئيس أساقفة ميلان وألبرت كونت بياندرانت وجيبريت كونت بارما وهيوكونت مونتبيللو . وكان عدد كبير ممن التحق بهذا الجيش قد سبق له الاشتراك فى حملة العامة بقيادة بطرس الناسك سنة ١٠٩٦ م – فى الحملة الصليبية الاولى – حيث تألفت غالبيتها من العامة والدهماء [١].

وبعد أن وصلت هذه الجيوش الى القسطنطينية نصبوا معسكرهم بناء على الامر الامبراطورى خارج المدينة على ذراع القديس جورج على شاطىء البسفور ، ومكثوا شهرين فى انتظار باقى الجيوش والامدادات القادمة من فرنسا وألمانيا ، غير إنهم لجأوا إلى السلب والنهب مما أثار سخط البيزنطيين ، ولذلك طلب منهم الامبراطور العبور الى الشاطىء الاسيوى والانتظار فى مدينة كيفيتوت أوفى ***Rufinel*** حتى تصل الفرق الاخرى ، ولكنهم رفضوا فاضطر الامبراطور الى قطع المؤن عنهم لثلاثة أيام

---

(2) Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 559 . ;*** *Anna comnena* ***: The Alexiad ., p . 335 . ;*** *Grousset :* ***Histoire des croisades . vol . 1 pp 322-323 . ;*** *Runciman :****A history of the crusades ., vol . 2 pp . 18-19 .***
رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .
Chalandon (F) ***: The Earlier comneni in cam . Med . Hist . vol . IV p . 340 . ;*** *Charles (M.B) :* ***Crusades . vol . 1 p . 559 .***

مما دفعهم إلى مهاجمة القسطنطينية ، كما هاجموا القصر الامبراطورى فى بلاخرناى *Blochernae* وقاموا بقتل أحد أقارب الامبراطور ولم يردهم إلا قوادهم الذين اعتذروا إلى الامبراطور وتحركوا إلى الشاطىء الأسيوي [١].

وبعد أن عسكر الجيش فى نيقوميديا وصلت الجماعات الألمانية بقيادة كونوراد كونستابل الامبراطور الالمانى هنرى الرابع (١٠٦٥-١١٠٥م) الذى قاد قواته عبر الاراضي اليونانية بدون متاعب ، وبعد استقبال كريم من قبل ألكسيوس عبر إلى آسيا الصغرى والتحق بالجيش اللومباردى ، كما وصلت الجماعات الفرنسية بقيادة ستيفن كونت بلوا ، وكذلك وصل العديد من القادة الصليبيين واستقبلهم الامبراطور استقبالاً طيباً وعبرت تلك القوات المضايق لتلحق بالقوات اللومباردية [٢].

قام الامبراطور باستدعاء ريموند الصنجيلى الذى كان قد وصل إلى القسطنطينية فى صيف سنة ١١٠٠ م ليصاحب الحملة كمستشار لما له من خبرة ودراية بالمنطقة ، وأيضاً القائد البيزنطى تزيتاس *Tzitas* كناصح ومرشد للحملة ، كما أمد الحملة بقوات مرتزقة تقدر بحوالى خمسمائه جندى

---

(1) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 560-562 . ;*** *Cate (J.L)* ***: The crusade of 1101 in setton : A hist. of the crusades ., vol . 1 , (pp.343-367) ., pp . 353 . ;*** *Maalouf :* ***op . cit ., p . 64 . ;*** *Chalandon (F)* ***: Essai sur le reigne d'Alexis ., p . 225 . ;*** *Grousset :* ***Histoire des croisades . vol . 1 p . 323 . ;*** *Runciman* **: op . cit ., vol . 2 pp . 19-20 .**

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٩-٤٠** . ؛ سميث (جوناثان ريلي) : **الحملة الصليبية الأولي وفكرة الحروب الصليبية ترجمة د. محمد فتحي الشاعر (القاهرة ١٩٩٣ م) ص ١٤٢** .؛ سعيد عاشور : **المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٢** .

(2) Cate (J.L) ***: op . cit ., vol . 1 p . 354 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 225 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . 1 . p . 323 .***

، وهى متخصصة فى تسلق الجبال [١] ويذكر رنسيمان أن هذه القوات من الراجح أنها من البشناق (البجناك) [٢].

وكان هدف الحملة الصليبية لسنة ١١٠١م الوصول إلى الارض المقدسة فى بلاد الشام ، وكان الاتجاه الغالب والذى اقترحه كل من ستيفن كونت بلوا وريموند أوف تولوز هو أن يسلكوا الطريق المألوف لديهم والذى سلكوه في عام ١٠٩٧ الماضى وهو طريق نيقية ، ودوريليوم وقونية الذى يؤدى بعد ذلك إلى الاراضى المقدسة ،وكان هذا الإقتراح مطابق لتعليمات الامبراطور ألكسيوس، ولكن كان للومبارديين وجهة نظر أخرى ، حيث أصروا على اجتياز آسيا الصغرى والاتجاه إلى بنى دانشمند فى قبادوقيا لغزو البحر الأسود أو خراسان كما كانوا يسمونها ، لإطلاق سراح بوهيموند من الاسر [٣]. والواقع أن بوهيموند قد وقع فى الاسر أثناء محاولات الجانب الإسلامى والصليبيى للسيطرة على مدينة ملطية ، حيث دخل فى معركة مع الملك الغازى جومشتكين الدانشمندي انتهت بهزيمته ووقوعه هو ونفر من أصحابه فى الأسر ، ولقد نقل الامير الدانشمندى

---

(3) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 560-562 . ;*** *Anna comnena* ***: The Alexiad ., p . 365 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit ., vol . 1 p . 354 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . 1 . p . 323 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 226 .***

(4) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 p . 121 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤١ .**

(1) Anna comnena ***: The Alexiad ., pp . 355-356 . ;*** *Albert d'Aix :* ***op . cit ., pp . 563-564 . ;*** *Lamb :* ***The crusades ., p . 241 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 226 . ;*** *Brehier :* ***Les Crosades . , p . 84 . ;*** *Cahen (Cloud)* ***: La Syrie du nord al'Epoque des Croisades (Pars 1940) ., p . 231 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit ., vol . 1 p . 354 .***

زبيدة عطا : **الترك في العصور الوسطي ، ص ٨٢ .**

بوهيموند إلى قلعة نيكسار التى تقع فى المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الاسود [١].

ومن الواضح أن هذا الرأى الذي اتخذه اللومبارديون بشأن انقاذ بوهيموند بعيد تماماً عن الصواب لأن قلعة نيكسار التى وضعوا فيها بوهيموند تقع بالقرب من الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الاسود ،وهذا يعنى أن الحملة سوف تخوض مغامرة محكوم عليها بالفشل لانها سوف تتوغل فى أقصى شمال شرقى الأناضول ، وكان اللومبارديون يجهلون الصعوبات الطبيعية والاستراتيجية .

تحرك الجيش الصليبى بعد ذلك من نيقوميديا فى بداية شهر يونية سنة ١١٠١م ومعه ريموند وفرقة التركوبولى فى طليعة الجيش ، حيث وصلوا فى ٢٣ يونيه إلى أنقره واستولوا عليها بعد ان أدركوا ضعف دفاعاتها وحاميتها التركية وقاموا بالاستيلاء عليها ، ثم قاموا بتسليمها إلى ممثلى الامبراطور طبقاً للقسم الذى حصل عليه ألكسيوس من أمراء الغرب [٢].

على ان تحركات الصليبيين دفعت قلج ارسلان بعد استيلائهم على انقره إلى أن يكتب إلى أمير بنى دانشمند الامير غازى (١١٠٥-١١٣٥) لتجديد التحالف ويحثه على الاستعداد للقتال ، كما أرسل إلى رضوان أمير حلب وحثه على الجهاد لكى يبعث إمداداً من الجنوب [٣].

---

(2) Anonymous Syriaac Chronicle : ***op . cit ., p . 74 . ;*** *Albert d'Aix :* ***op . cit ., p . 524 . ;*** *Matthieu d'Edesse :* ***op . cit ., pp . 230-231 . ;*** *Boase and others :* ***The cilician Kingdom of Armenia edited by T.S.R.Boase (London 1978) . , p . 19 . ;*** *Gabriele :* ***Arab historians of the crusade . translated from the Italian by E.J Costello (London 1984) ., p 13 . ;*** *Loewe :* ***op . cit ., p . 315 . ;*** *Previte :* ***The shorter Cambridge Medieval History ., vol . 1 p . 523 .***

(3) Cate (J.L) ***: op . cit ., vol . 1 pp . 354-355 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 326 .***

(4) Matthieu d'Edesse ***: op . cit ., p . 243 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p . 22 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .**

اتجه الجيش الصليبى بعد ذلك من أنقره نحو جنجرة [١] *Gangra* فوجدوا أن تحصيناتها القوية تحول دون تدميرها فاكتفوا بنهب القرى والاراضى التى حولها ، وحصلوا على ما صادفوه من مؤن ، ثم تقدموا صوب الشرق ، ولما استبد بهم التعب والجوع والعطش بدأ يستمعون إلى نصائح الكونت ريموند الذى اقترح أن يسيروا صوب الشمال الشرقى الى قسطمونى *Kastamuni*، ومنها إلى احدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود ،ولقد عانى الجيش الصليبى فى الصحراء معاناة شديدة حتى قيل أن الاتراك رشوا ريموند حتى يقود الجيش إلى الهلاك [٢].

وفى طريقهم إلى قسطمونى تعرضت مقدمة الجيش الصليبى إلى هجوم تركى مفاجىء راح ضحيته سبعمائه مقاتل من اللومبارديين ، واتهم اللوبارديون ريموند بالخيانه والتواطىء مع الامبراطور ،ولقد أجبرت هذه الحادثه رجال الحملة على أن يسلكوا الطريق الرئيسى ،وسارت الحملة فاجتازت نهرهاليس ووصلت إلى آماسيا ثم إلى بلاد الدانشمنديين – وكان بوهيموند ما يزال أسيراً بمدينة نيكسار – ووصل الصليبيون بعد أن قاموا بنهب إحدى القرى المسيحية أثناء سيرهم إلى مرسيفان *Mersivan* التى تقع ما بين نهر هاليس وأماسيا فى أوائل اغسطس سنة ١١٠١ م [٣].

---

[١] جنجرا : تعرف بجنجرا أو خنجرة أو غنجرة ، وهي مدينة تقع على بعد خمسين ميلاً جنوب مدينة قسطموني ، وتعتبر هذه المدينة من أهم مدن البحر الأسود وأشهرها . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٩١ .
Choniates (Nicetas) : ***op . cit ., p . 28 .***

(1) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 566-567 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . 1 . p . 325 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton .,vol . 1 p . 355 .***

(2)Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 567 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., vol . 1 p . 356 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p . 23 .***

رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .

وفـى تلـك الاثنـاء أخـذت قـوى الأتـراك المسـلمين تتجمـع لمواجهـة الخطر الصليبى ، وضمت قوات الملك غازى جمشتكين الدانشمندى ،وقوات قلج أرسلان ،وقوات رضوان بن تتش أمير حلب وأمير مدينـة حران [١] قراجا التركـى ، والتقـت القـوات الاسـلامية بـالجيش الصـليبى ، ودارت معركـة بـين الجانبين استخدم فيها الترك مهارتهم وخططهم الحربيـة ، واستمرت المعركـة عدة أيـام ولـم يمـض وقـت طويـل حتـى فقد اللومبـارديون تماسـكهم ، فولـوا الأدبـار مـذعورين ، ولـم تفلـح محـاولات ريمونـد لحـثهم علـى الثبـات ،وظـل الفرنسيون والالمـان يستبسلون فـى القتـال حتـى أرتـدوا ، كمـا اضـطر ريمونـد الى الانسحاب ومعه حرسه من البروقنسالين والبيزنطين المصاحبين ،واتجـه شمالاً نحو البحر الاسود ، فوصل إلى ميناء بفرا ثم إلـى سينوب ومـن هنـاك أبحـر إلـى القسطنطينية وكـان انسـحاب ريمونـد بمثابـة إعـلان لنهايـة الحملـة لأن بـاقى الامـراء لاذوا مـن بعده بـالفرار ، وقـام التـرك بابـادة معظـم مـن كـان بالمعسكر الصليبيى وزخرت أسواق الرقيق ودور الحريم بما أصابه الترك من الفتيات والاطفال [٢].

وقد بالغت بعض المصادر التاريخية فى ذكر عدد قتلى هذه المعركـة حيث ذكر ابن الاثير إنـه : " لم يفلت أحد من الفرنج وكـانوا ثلاثمائـه ألـف

---

[١] حران : قصبة ديار مضر وهي قريبة من الرها والرقة . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ .

(4) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 569 –573 . ;*** *Anna comnena* ***: The Alexiad ., p . 357 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., p . 357 . ;*** *Duggan :* ***op . cit ., p . 85 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . 1 . p . 327 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p . 24 .***

رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٦ . ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ . ؛ زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ٨٢–٨٣ .

غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين " [1] . وإذا كان ابن الاثير محقا فيما ذكره فسوف يصبح عدد هذا الجيش مساوياً لعدد قوات الحملة الصليبية الأولى التى قدر عدد أفرادها بحوالى ثلاثمائه ألف مقاتل .

ولقد ترتب على هذه المعركة نتائج بالغة الأهمية على كافة الاطراف المشتركة فيها ، فعلى الجانب الاسلامى يعتبر الانتصار الذى حققه المسلمون على الصليبيين فى موقعة مرسيفان انتصاراً هاماً بلغ من اهميتة أنه قضى على الاثر السيء الذى تركه فى نفوس الأتراك المسلمين انتصار الصليبيين فى معركة دور بليوم . سنة ١٠٩٧ م . أما بالنسبة للصليبيين فقد فشلوا فى تحقيق هدفهم بإطلاق صراح بوهيموند ،واتهموا البيزنطيين بالخيانه واعتبروهم مسئولين عما حل بهم من كارثة ، بينما أغضب البيزنطيون غباء الصليبيين وجحودهم وإنكارهم لما بذلوه لهم من عطاء .

والحقيقة أن اللومباردين زينت لهم أنفسهم أن بإمكانهم التقدم إلى بغداد وتدمير الخلافة العباسية من خلال زحفهم على آسيا الصغرى [2]. ولقد تشكك ألبرت الآخنى فى سجلاته التاريخية أن ينجحوا فيما أقدموا عليه ، والغريب أن المؤرخ المحدث جوناثان ريلى سميث يعتبر اختيارهم للاناضول كطريق لتحقيق هذا الهدف هو اختيار مقبول ولا غبار عليه حتى ولو انطوى على مخاطر [3].

ويعلق أحد المؤرخين المحدثين ذاكراً إن هروب الفرسان فى المعارك تاركين خلفهم زوجاتهم وأطفالهم قد أصبح شيئاً مالوفاً دون توبيخ وتعنيف من الحوليات التاريخية ، هذا الامر هو بالفعل تعليق سيىء على تصرف

---

[1] ابن الأثير : **الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .**

(2) Albert d'Aix : ***op . cit ., p . 563 . ;*** *Brehier :* ***op . cit ., p . 84 .***

[3] سميث (جوناثان ريلي) : **المرجع السابق ، ص ١٤٣ .**

وسلوك الفارس الصليبى ومخالف لنظريات الفروسية والشهامة [١] المعروفة فى العصور لوسطى .

ولقد استقبل الامبراطور ألكسيوس الناجين من المعركة بكل ترحيب وحاول أن يعوضهم ويحسن إليهم بالعطايا والهدايا ثم جهزهم ليكملوا طريق حجهم إلى القدس عن طريق البحر [٢] . وفى الوقت الذى كان فيه الجيش الصليبى السابق يشق طريقه فى آسيا الصغرى وبعد أن غادر نيقوميديا وصل إلى القسطنطينية فى يونيه سنة ١١٠١ م جيش فرنسى يضم خمسة عشرة ألف مقاتل يقودهم وليم الثانى كونت نيفرز ***William II Count of Nevers***(١٠٨٩-١١٤٧م)،وكان وليم قد قاد قواده عبرايطاليا وبرنديزى إلي أفلونا والتزم الجيش الدقة والنظام أثناء عبوره، وحظى الكونت وجيشه باستقبال كريم مكن الامبراطور ألكسيوس وأعطى لهم معسكراً على خليج القديس جورج ،وكان وليم يومياً فى حضرة الامبراطور لكنه عزم على ألا يمكث فى القسطنطينية ، لذا عبر بجيشه إلى الساحل الاسيوى[٣].

وتحرك الجيش على امل الانضمام واللحاق بإخوانهم اللومبارديين ،وعندما وصلوا إلى أنقره أدركوا أنه ليس بمقدورهم اقتفاء أثر اللومبارديين ،وبعد توقف يوم كامل اتجه الجيش جنوباً صوب قونية وحاولوا الاستيلاء عليها ، لكن حاميتها السلجوقية دافعت عنها ببسالة ،ولما فشلوا فى الاستيلاء عليها سار الجيش إلى هرقلة شرق مدينة قونية ، وكان الترك قد

---

(4) Cate (J.L) ***: op . cit in setton ., p . 357 .***
(5) Anna comnena ***: The Alexiad ., p . 357 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., pp . 574-575 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., p . 358 .***
(1) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 574-575 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., p . 358 .***

إسحاق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتي الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين (٨٦٩-١٢٠٤) ، ص ١٣٢ .

دمروا كل مصادر المياه ، واشتد التعب بالجيش الصليبى ، فتقدم قلج ارسلان وملك غازى الدانشمندي الذين كانا قد قضيا على الجيش اللومباردى فى مرسيفان من قبل ، فهاجما جيش وليم وأبادوه إبادة تامة فى معركة لم تستمر طويلاً وذلك فى أواخر أغسطس سنة ١١٠١ م ، ولم ينج من المعركة إلا الكونت وليم واخوه وبعض الفرسان فى قيليقية ومنها توجهوا بصحبه مرتزقة التركوبولى (البجناك) ليقودوهم إلى انطاكية [١].

وفى الوقت الذى كانت القوات الاسلامية التركية تقوم بالقضاء على الجموع الفرنسية وصل إلى القسطنطينية الجيش الثالث من تلك الحملة فى أوائل يونيه سنة ١١٠١ م تحت قياده وليم التاسع دوق أكوتين وولف الرابع دوق بافاريا واستقبلهم الامبراطور بالود وعاملهم " كأبناء " وأمطرهم بالهدايا والاموال ، وحصل منهم على قسم الولاء والذى كان مشابها للقسم الذى اقسمه فى عام ١٠٩٧ م الصليبيون كما جعل ألكسيوس الاسواق متاحة لجميع الصليبيين [٢] .

غير أن الارتياب بدأ يساور الجنود الالمان من نوايا الامبراطور الكسيوس كومنين خاصة إنهم لم يسمعوا أى اخبار عن اللومبارديين ،وشكوا فى أن يكون اليونانيون (البيزنطيون) قد أجبروا الصليبيين على العبور إلى آسيا الصغرى كارهين قبل وصول الامدادات ،وخشوا أن يخدعهم لصالح

---

(2) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 575-578 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . 1 . pp . 329-330 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., p . 359 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 228 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 2 pp . 26-27 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٨-٤٩ .**

Brehier : ***The life and death of Byzantium . translated by Margaret Vaughan , p . 219 .***

إسحاق عبيد : **المرجع السابق ، ص ١٣٢ .**

(3) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 579-580. ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 229 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., p . 360 .***

الترك ، فاستولى الذعر على الحجاج حتى لجأ البعض إلى بيع خيولهم واشتروا حق عبور السفن إلى الاراضى المقدسة، وراجت الاشاعات أن بإمكان ألكسيوس أن يحطمهم فى البحر تماما ، كما يستطيع أن يدمرهم فى البر ، ومن ثم غادر كثير منهم السفن وعادوا إلى الرحلة البرية [١].

تحرك الجيش الصليبى بعد أن اتخذ الطريق البرى وزوده الامبراطور ألكسيوس بمرشدين من التركوبولى وسلك الصليبيون نفس الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية الاولى . ولقد اتبع الترك نفس أسلوبهم حيث تركوا المدن مفتوحه أمامهم بعد اخلائها تماماً مع احراق المحاصيل ، كما ضربوا مستودعات المياه والابار وكان الطقس شديد الحرارة [٢].

واصل الجيش الصليبى تقدمه ومر على قونية وقام الصليبيون بتحطيم " سلامية " ثم تقدموا إلى هرقلة واستولوا عليها ، ثم اندفعوا فى غير نظام إلى النهر الذى كان يجرى وراء المدينة ليطفئوا ظمأهم واضطرب نظام الصليبيين ، ثم انقضت عليهم قوات قلج ارسلان والامير غازى والامير قراجا وأطبقوا عليهم من جميع الجوانب ، فأبادوا الجيش الصليبى إباده شبه تامة ، ولم يستطيع النجاة سوى القلة القليلة التى هرب بعضها إلى الجبال والبعض الآخر تبع التيار طلباً للنجاه ،ومعظم المسيحيين إما قتلوا أو استبعدوا ونجى كل من وليم التاسع دوق أكوتين وولف الرابع دوق بارفاريا

---

(1) Cate (J.L) ***: op . cit ., in setton ., pp . 360-361 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 229 .***

إسحاق عبيد : **المرجع السابق ، ص ١٣٣ .**

(2) Cate (J.L) ***: op . cit ., in setton ., p . 361 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 229 . ;*** *Runciman* **: *op . cit ., vol . 2 p . 28 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥١ .**

اللذان اتجها الى طوسوس ثم الى انطاكية وكانت هذه الموقعة فى اوائل سبتمبر سنة ١١٠١م [١].

وهكذا لقيت حملة ١١٠١م بأقسامها الثلاثة خاتمة مشئومة ، ولا شك فى أن هذه الحملة كان لها نتائج خطيرة ، إذ انها عملت على تقوية الروح المعنوية لدى الاتراك المسلمين بآسيا الصغرى ، كما – لاول مرة – اثبتت ان اتحاد الترك فى ملاقاه الجيش الصليبى قد أتى بثمارة الطيبة ،كما أن تفرع الصليبيين وتقدمهم فى طرق مختلفة وبطرق مختلفة أيضاً وعدم استماعهم للنصح وعدم كفاية مؤنهم واصطحابهم جموعاً غفيرة من غير المقاتلين ، كل هذه الاسباب كانت من عوامل فشل الصليبيين في تحقيق أى نجاح ، أما البيزنطيون فقد حملهم الصليبيون مسئولية هذه الكارثة ،واتهموا الامبراطور ألكسيوس بالخيانه .

الحملة الصليبية الثانية فى آسيا الصغرى (١١٤٧-١١٤٩ م) :

جدت ظروف خطيرة فى الفترة التى وقعت بين الحرب الصليبية الاولى والحرب الصليبية الثانية . ففى جبهة الصليبيين حل الشقاق محل

---

(3) Albert d'Aix : ***op . cit ., pp . 581-582 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . 1 . pp . 231-232 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 229 . ;*** *Cate (J.L)* ***: op . cit in setton ., p . 361 . ;*** *Runciman* **: op . cit ., vol . 2 p . 29 .**

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .**

روت القصص الشعبية عن أن دوقة النمسا إدا *Ida* **قد وقعت في الأسر في هذه المعركة وعاشت في حريم أحد الأمراء المسلمين حيث ولدت منه ولداً أصبح بطلاً من أبطال المسلمين وهو زنكي** . انظر :

Cate (J.L) ***: op . cit ., in setton ., p . 362 .***

الوفاق وساءت العلاقات بين الامارات الصليبية فى بلاد الشام بالإضافة إلى التوتر الدائم بينهم وبين الدولة البيزنطية ، وبينما كانت الجبهة الصليبية تضعف بسبب ضعف التعاون بينها ، وبسبب الحقد والتنافس بين تلك الامارات الصليبية من جهة أخرى ، وكانت الجبهة الإسلامية تشتد وتقوى حول الصليبيين ، فقد أفاق المسلمون وهبوا من سباتهم وعملوا على استعادة ما فقدوه .

وكان أهم ما نجح المسلمون فى استعادته هو مدينة الرها من الصليبيين حيث استطاعت قوات عماد الدين زنكى أن تستولى عليها بعد حصار دام حوالى اربعة أسابيع ، حيث سقطت فى أيدى المسلمين فى ٢٦ جمادى الاخر ٥٣٩ هـ (٢٤ديسمبر ١١٤٤ م) . وكانت هذه أولى الامارات الصليبية التى تقوم فى الشرق العربى الاسلامى وأسبقها الى السقوط . وكان لسقوطها صدمة نفسية حيث أحدث سقوطها دوياً هائلاً فى أوساط الصليبيين فى بلاد الشام والعالم المسيحى فى الغرب الاوربى ،إذ أن المدينة كانت تتمتع بمكانة دينية فى تاريخ المسيحية ، وكان سقوطها مؤشراً بترنح البناء الصليبى الكبير الذى نجحت الحملة الصليبية الاولى فى إقامته بالشرق [١].

---

[١] عن سقوط الرها انظر :

ابن القلانسي : **ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩-٢٨٠** . ابن الأثير : **التاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية لاموصل ، ص ٦٦-٧٠** . ؛ ابن العديم : **زبدة الحلب من تاريخ حلب . جـ ٢ ، ص ٢٧٨-٢٧٩** . ؛ ابن العبري : **تاريخ الزمان ، ص ١٥٦-١٥٩** .

*William of tyre : **op . cit ., vol . II . pp . 140-144 . ;** Mayer (H.E) : **The crusades ., pp . 94-95 . ;** Grabois (A) : **The Illustrated Ency of Medieval Civilization . p . 248 .***

علية الجنزوري : **إمارة الرها الصليبية ، ص ٢٩٥-٣٠٨** .

بلـغ مسـامع الغـرب الاوربـى نبـأ سـقوط إمـارة الرهـا الصـليبية بأيـدى المسلمين حيث أذاع الحجـاج والمسـافرومن القـادمون من بيت المقدس إلـى أوطانـهم سنـةة ١١٤٥م الانباء الحزينـة عن سقوط الرها ، كمـا أن الاسـاقفة الارمن الذين قدموا إلى أوربا بعد ذلك بوقت قصير للتشاور مع البابـا إيـوجين الثالـث ***Eugenius III*** (١١٤٥-١١٥٣م) حـول إمكانيـة توحيـد كنيسـة روما مع الكنيسة الارمينية قد أبلغوه بأخبـار الشرق وفـى نفس الوقت أرسل الصليبيون فى الشرق رسلاً الى الغرب الاوربى لطلب النجدة [١].

وقام البابا إيوجين الثالث فى روما بتحريض الرأى العام الغربـى ضد المسلمين حيث أنفذ من ناحيته رسلاً الى شتى اقطار الغرب ليخبـروا الامـراء والشعوب بالمحنة التى يمر بها إخوانهم فـى الشرق ، وكـان مـن بين هؤلاء المبعوثون برنارد راعى دير كليرفو (١٠٩٢-١١٥٣ م) الذى نجح فـى إثـارة الغرب بالقيام بحملة صليبية ، فأبدى النـاس كافـة مواقفهم السريعة علـى مـا دعاهم إليـه وأقسموا ليزحفوا إلـى بيت المقدس ووضـعوا شـارة الصليب علـى أكتـافهم اسـتعداداً للرحلـة ،ولقيـت حملـة البابـا هـذه تأييـداً واسـعاً مـن أغلـب ملـوك أوربـا حيث قرر كـلاً من كونراد إمبراطور المانيا ولـويس السـابع ملـك فرنسا الخروج للدفاع عن الصليبيين فى الشرق [٢].

---

(2) Berry (virginia .G.) : ***The second crusade ., in setton , Hist . of the crusades . vol . 1 (pp . 463-512) ., p . 466 .***

(1) William of tyre : ***op . cit ., pp . 163-165 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٦٧-٢٦٩ .**

Berry : ***op . cit ., p . 248 . ;*** *Matthew (D) :* ***Atlas of Medieval Europe . , p . 91 . ;*** *Rice (T.T) :* ***Byzantium . , p . 98 . ;*** *Ahrweiler (Helene) :* ***Byzance et la Mer . , p . 237 . ;*** *Levtchenko (M.V) :* ***Byzance des origines A 1453 ., p . 230 . ;*** *Charles (M.B) :* ***Crusades . vol . 1 p . 559 .***

والحقيقة أن الملك لويس ملك فرنسا حين أبدى استجابة سريعة للاشتراك فى الحملة الصليبية ، لم يكن إلا رد فعل لما اقترفته يداه دون مبرر فى المذبحة التى قام بها جنوده فى مدينة فترى ***Vitry*** وهى المدينة التى أشعل فيها النيران أثناء صراعه مع كونت شامبانى وأحرقها بما فيها من أحياء حيث نذر للقيام بحملة صليبية كنوع من راحة الضمير والندم والتوبه [١] أما اشتراك الامبراطور الالمانى كونراد فيرجع الفضل فيه الى برنارد بعد أن استمع الى موعظته المؤثرة التى ألقاها فى كاتدرائية سبير ***Speyer*** فى ٢٤ ديسمبر ١١٤٦ م [٢].

وهكذا اكتسبت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ م طابعاً مختلفاً فى أساسه عن الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٦ م ، فبينما اتخذت الحملة الاولى فى أواخر القرن الحادى عشر شكل هجرة ضخمة تألفت من جموع مختلفة من المسيحيين الغربيين انتموا الى أجناس ودول متعددة ، إذا بالحملة الصليبية الثانية قرب منتصف القرن الثانى عشر تتألف من جيشين كبيرين ، ينتميان إلى أكبر دولتين فى الغرب الاوروبى ويقودهما أكبر عاهلين فى العالم الكاثوليكى وهما كونراد الثالث ولويس السابع [٣].

وعلى هذا النحو بدأت الحملة الصليبية الثانية على الشرق الاسلامى ، وقرر الملك لويس السابع أن يرتحل بجيشه فى ١٥ يونيه ١١٤٧ م ، بينما اتخذ كونراد الثالث منتصف مايو تاريخاً لرحيل الجيوش

---

(2) Tout (T.F) : ***The Empire and the papacy (918-1273) ., p . 284 .***

باركر : **الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .**

(3) Berry : ***op . cit ., p . 475 .***

باركر : **الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .**

[٣] سعيد عاشور: **المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٨٥ .**

الالمانية علي أن تلتقى الجيوش كلها بالقسطنطينية ، والملاحظ هنا أن العاهلين قررا أن يسيرا كل منهما مستقلاً عن الآخر وفى أزمنة مختلفة حتى يتجنبا أية منازعات تقع بين جيوشهما من ناحية وحتى لا يؤدى مسير الجيشين معاً إلى حدوث مشاكل فى التموين من ناحية أخرى [١].

اتخذ كونراد الثالث الطريق الرئيسى الذى سلكته الحملة الصليبية الأولى ، ولدى سماع الامبراطور البيزنطى مانويل (١١٤٣-١١٧٢ م) فى ذلك الوقت عن اعتداءات الجيش الالمانى على المدن البيزنطية فى البلقان سارع بإرسال جيش بقيادة بروزوخوس ***Prosuch*** والقائد البيزنطى بازيليوس الملقب تزكاندليس ***Tzicandyles*** واشتبكا مع الالمان عند مدينة أدرنة (أدريا نويل ***Adrianopol*** ومدينة لونجى ***Longi*** المجاورة . وعندما اشتد قلق الامبراطور مانويل أرسل إلى كونراد ، يطلب منه أن يتخذ الطريق الى مدينة سيستوس ***Sestos*** الواقعة على الشاطىء الاوربى لمضيق الدردنيل ، ويعبر منها إلى آسيا الصغرى مباشرة دون المرور بالقسطنطينية ، لكن طلب مانويل قوبل بالرفض من قبل الامبراطور كونراد ، وعزم الامبراطور مانويل على استخدام القوى فى مقاومة الصليبيين ،ولكنه غير رأية والغى الاوامر التى أصدرها الى بروزوخوس وبازيليوس [٢].

واصلت القوات الالمانية سيرها وكان الامبراطور مانويل يترقب أخبارها وشرع فى تحصين العاصمة ، ولما وصل الجيش الالمانى إلى حدود الدولة البيزنطية فى أوربا أرسل اليهم الامبراطور سفارة مكونة من مبعوثين

---

[١] محمود الحويري : بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين ، ص ١٠١ .

(1) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 p . 29 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠-٤٢١ .**
Berry : ***op . cit ., p . 485 . ;*** *Hussey* ***: Byzantium and the crusades in setton . , p . 135 . ;*** *Ostrogorsky* ***: op . cit ., p . 339 .***

هما ديمتريوس ومايروس ***Mairus*** للوقوف على نوايا كونراد ورفضا السماح لهما بعبور الاراضى البيزنطية إلا بعد أن أقسم كونراد وكبار قادة الجيش الالمانى للعمل على مراعاة مصالح الامبراطورية [١].

بلغ الجيش الالمانى العاصمة فى العاشر من سبتمبر ١١٤٧م و(الثانى عشر من ربيع الثانى ٥٤٢ هـ) وكانت العلاقات متوترة بين الطرفين ، ولقد أغلق أهالى القسطنطينية أبوابها فى وجه الالمان ،وكان الأهالى يدلون الحبال من فوق الاسوار مشترطين أخذ المقابل المادى مسبقاً قبل عملية المبادلة بالطعام ،ولقد استاء الالمان من البيزنطيين حيث لجأوا معهم الى الغش والخداع كما أن اللامبراطور مانويل استخدام كل الحيل ضد الالمان [٢].

ولم تلبث العلاقات التى كانت بين مانويل وكونراد أن تحسنت ، ويرجع ذلك إلى برتاسا من سولزباخ ***Bertha of Sulzbach*** زوجة الامبراطور مانويل ،وفى نفس الوقت هى أخت زوجة كونراد وكانت معروفة فى القسطنطينية باسم إيرين حيث لعبت دوراً فى التوفيق بين العاهلين [٣].

والحقيقية أن مانويل بذل كل ما فى طاقته ومارس كل الضغوط على كونراد الثالث ليجبره على عبور البسفور ،ونقل قواته الى آسيا الصغرى قبل وصول الجيش الفرنسى لان اجتماع الجيشين على ابواب العاصمة ربما بكل تأكيد يشكل خطورة على العاصمة لكبر حجم الجيشين ، ولقد حذا حذوه فى

---

(2) Kinnamos ***: Deeds of John and Manuel comnenus trans. By Charles M.Brand (New York 1976) ., pp . 66-69 .***
(3) Choniates (Nicetas) ***: Historia ., pp . 87-89 .***
(4) Berry : ***op . cit ., p . 486 . ;*** *Austin lan pool (M.A) :* ***Germany 1125-1152 n Cam. Med. Hist. (cam , 1979) ., p . 256 . ;*** *Runciman* ***:op . cit ., vol . 2 p . 267 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ .**
Ostrogorsky ***: op . cit ., p . 338 .***

هذه السياسة جده الامبراطور الكسيوس كومنين عندما جاءت الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٧ [١].

بعد أن عبر كونراد البسفور تقدم بقواته حتى وصل الى خلقدونية ، ثم طلب مانويل أن يمده بالادلاء ليصاحبوه اثناء اجتياز آسيا الصغرى ، فعهد مانويل بهذا الامر إلى ستيفن قائد حرس الورنك وفى الوقت ذاته نصح الالمان أن يتجنبوا الطريق المستقيم الذى يخترق شبه جزيرة آسيا الصعرى وأن يتخذوا الطريق الساحلى إلى أضاليا [٢] وبذا يسلكون بلاداً خاضعة للامبراطور ،واقترح أيضاً أنه لمن الخير لهم أن يعيدوا إلى أوطانهم كل الحجاج الذين لن يشتركوا فى القتال مما يترتب على بقائهم من ارتباك وتعطيل للجيش ولكن كونراد لم يأخذ بنصائح الامبراطور مانويل [٣].

تقدم كونراد بقواته حتى وصل إلى مدينة نيقية وهناك أعاد النظر فى خط سير الحملة ،ولهذا قسم جيشه الى قسمين القسم الاول الرئيسى جعله كونراد تحت قيادته وسار به فى ١٥ أكتوبر ١١٤٧ م على الطريق الذى يخترق قلب آسيا الصغرى ،والذى سبق أن اتخذته الحملة الصليبية الاولى ، إذ رأى أنه اقصر الطرق الى بلاد الشام ، والقسم الثانى وهو غير

---

(1) Vasiliev : ***op . cit ., vol II . p . 420 . ; Ostrogorsky : op . cit ., pp . 380-382 . ; Berry : op . cit ., p . 486 .***

(٢) أضاليا : هي مدينة أنطالية (أتاليا–أداليا) وهي ميناء كبير تقع على البحر المتوسط في القسم الجنوبي من آسيا الصغرى وقد ورد هذا الاسم كثيرا في أخبار الحروب الصليبية بصور ستالية *Setalia* أو أتالية *Attaleia* انظر :
ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ١٨٣–١٨٤ .

(3) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 pp . 267-268 .***
رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٠–٤٣١ .
*Grousset : **op . cit ., T.2 . pp . 233-234 . ; Berry : op . cit ., p . 486 . ; Brehier : Les Crosades . , p . 105 . ;*** *Ostrogorsky **: op . cit ., p . 339 .***
سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣–١١٨٠م ، (الإسكندرية ١٩٨٤م) ، ص ١٤٤ . ؛ محمد زكي نجيب : علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عهد أسرة كومنين ، ص ١٤٨ .

مسلح حيث ضم المشاة غير المحاربين من نساء وشيوخ وأطفال وعهد بقيادته الى أوتو أف فرايزنج – وهو أخ غير شقيق للامبراطور – ومطران فرايزنج واتخذ هذا القسم الطريق الذى يمر الى لاوديكا على نهر ليكوس ثم الى أضاليا [١].

ويعقد المؤرخ الفرنسى أودو أوف دويل مقارنة بين الطرق التى تؤدى إلى انطاكية ، حيث يذكر أنه كان هناك ثلاثة طرق كل طريق منها كان له سلبياته وايجابياته ، ويذكر أن الامبراطور قسم جيشه ، واختار اوتو فرايزنج الطريق الاوسط الذى كان أكثر اماناً عن الطريقين الأخرين وإن كان طويلاً قليلاً[٢].

أصدر كونراد أوامره إلى قواته بالتقدم من نيقية إلى قونية عاصمة السلطان ، ولم يأخذ كونراد مؤناً إلا ما يكفى لتموين الجيش لمدة ثمانية أيام فقط ، وكانت الرحلة شاقة ومرهقة أثناء سيرهم لوعورة الطريق عبر الممرات والجبال ، ومضى الجيش ببطء حتى إنهم استنفذوا إمداداتهم وقد رافقهم فى رحلتهم هذه مرشدين بيزنطيين [٣].

ولقد شكا الالمان من البيزنطيين من أن وكلاء الامبراطور خلطوا ما كان يقدم إليهم من الدقيق بالجير مما أضر بصحة الجيش الالمانى وإن البيزنطيين لجأوا الى تزييف العملة التى كانوا يستخدمونها فى البيع ، حيث

---

(4) Kinnamos : ***op . cit ., p . 68 . ;*** *Grousset :* ***op . cit ., T.2 . p . 234 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., pp . 495-496 . ;*** *Mayer :* ***op . cit ., p . 95 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 2 p . 268 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣١** . ؛ سعيد عمران : **المرجع السابق ، ص ١٤٥** .

(5) Odo of Deuil : ***De profection ludovici vii in orientem , Edited with an English translation by virginia Gingerick Berry (New York 1948) ., p . 89 .***

(1) Odo of Deuil : ***op . cit ., p . 91 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., pp . 495-496 .***

أمر الامبراطور بسك عملة من الفضة التالفة لشراء ما يبيعه الجيش الالمانى وإن الامبراطور طلب من المرشدين تضليل الحملة والهرب بعد ذلك ، وهذا ما أورده المؤرخ خونياتس فى هذا الشأن ويختم حديثه قائلاً إنه " لا يدرى إن كان قد تم هذا بموافقة الامبراطور أم لا وأيضاً إن كان ذلك صحيحاً أم لا " (١).

واصل الجيش الالمانى تقدمه فى الاراضى السلجوقية إلى قونية ثم استدعى الامبراطور كونراد الثالث المرشدين البيزنطيين حيث رأى انصرام الايام المحددة دون أن تبلغ الحملة قونية وسألهم عن ميعاد وصول الجيش الى قونية ، واستفسر منهم عما أدى الى ان يستغرق الجيش زمناً جاوز ما اتفقوا عليه فى البداية دون الوصول الى غايتهم ! فأكد له المرشدون ان الجيش سوف يصل الى قونية فى مدى ثلاثة أيام ، وصدقهم الامبراطور ، فلما كانت الليلة التالية هرب المرشدون أثناء الليل وتركوهم بلا هاد يهديهم طريقهم (٢).

ولقد روى المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل مراحل تحرك الجيش الالمانى فى آسيا الصغرى حيث كانت رحلتهم شاقة أثناء توجههم من نيقية الى قونية ،وفى اليوم الرابع من تحركهم هرب الدليل البيزنطى الخائن من خلال طرق قصيرة يعرفها ،وعند بزوغ الفجر علم حاملوا الرايات – الذين كانوا على علاقة سيئة به – بهروبه وفجأة رأى الصليبيون أن الاتراك السلاجقة قد تمركزوا على قمم الجبال المحيطة بهم وأن الالمان حزنوا لأن

---

(2) Choniates (Nicetas) ***: Historia ., pp . 87-89 . ;*** *Michaud (M) :* ***Histoire des croisades (Paris 1838) ., T.1 p . 382 .***
(3) William of tyre : ***op . cit ., vol . II pp . 168-169 .***
وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .**

الدليل البيزنطى هرب قبل ان يلقى الجزاء المناسب على جريمته ، ولقد علم الامبراطور بكل ذلك [١].

ويذكر المؤرخون السريان أن مانويل كومنين أمد الصليبيين بمرشدين ساقوهم الى طرق وعرة وجبال قالحلة لاماء فيها وظلوا تائهين بها خمسة أيام [٢] كما أن المؤرخ وليم الصورى يتهم المرشدين البيزنطيين بأنهم خونة لأنهم أخبروا الزعماء الصليبيين بالتخفف من الطعام والمؤن لانهم بلغوا قونية فى ايام قلائل على حد قوله فيجدون أنفسهم فى أخصب بقعة ولم يحدث ذلك ، كما تعتمد وإلى قيادة الكتائب الصليبية فى مجاهل آسيا الصغرى عبر طرق غير مألوفه أفضت بهم إلى نوح أتاحت لعدوهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، كما أشار المؤرخ أيضاً إلى أن الإمبراطور مانويل هو الذى أشار على المرشدين بالهروب ، أو أن الأتراك السلاجقة قد قدموا لهم الرشوة فى مقابل ترك الجيش الالمانى [٣].

والملاحظ هنا أن معظم المصادر كانت معادية للامبراطور مانويل والبيزنطيين عموماً ، صحيح أن الامبراطور مانويل كان فى تلك الفترة قد عقد معاهدة سلام مع السلطان مسعود سلطان السلاجقة [٤] ، ولكن لا ننسى أو نتجاهل أن الامبراطور مانويل قد نصح كونراد باتخاذ الطريق الساحلى إلى أضاليا ، وهذا الطريق لا يخترق قلب آسيا الصغرى الملىء بالأتراك . ولو كان مانويل يريد أن يطيح بالجيش الالمانى لما أشار عليه بشأن المسير فى آسيا الصغرى ، وقد أثبتت الاحداث صدق نصائح مانويل . أما

---

(4) Odo of Deuil ***: op . cit ., pp . 91-93 .***

سعيد عمران : **المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٤٦ .**

[٢] ابن العبري : **تاريخ الزمان ، ص ١٦٢ .**

(1) William of tyre : ***op . cit ., vol . II pp . 168-169 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .**

[٤] انظر : **الفصل الثالث من الرسالة ، ص**

بالنسبة للمرشدين البيزنطيين فيبدو أن نفاذ المؤن واتهام الالمان لهم بالخيانه قد دفعهم الى الهرب .

وقد يحسم هذا الموضوع نص الخطاب الذى أرسله الامبراطور الالمانى كونراد إلى ويبالد أسقف كورفرى ***Wibald of Corvey*** إذ لم يذكر كونراد عامل الخيانه من الجانب البيزنطى وذكر له أنه أختار هذا الطريق بنفسه لأنه أسرع طريق الى الشام ، ولقد كان فى امكانه أن ينفى المسئولية عن نفسه [١]. ويهمنا هنا أن نذكر أن الامبراطور كونراد بعدما اكتشف هروب المرشدين استدعى رجاله وعقد مجلساً لاستشارتهم حول هذه الموقف . ويقول المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل فى هذا الشأن : " لقد فات الوقت على هذا لأنهم أجبروا على الاختيار ، وليس اختيار الخير من الشر ،ولكن اختيار أحد الطريقين أقلهما شراً ، فليس أمامهم إلا التقدم أو التقهقر ، ولكن الجوع والعدو وجبال لوبيا تس ***Lopyainth*** الغير معروفة لديهم أجبرتهم على عدم التقدم للامام ، وأيضاً فإن الجوع والخوف من العار أجبرهم على عدم التقهقر [٢].

اختلفت الآراء فى هذا المجلس الذى عقده الامبراطور الالمانى اختلافاً بيناً ، فبينما تمسك البعض بوجوب رجوعهم إلى أوطانهم إذا بالبعض الآخر يصر على متابعة الزحف ، وكان الجيش الصليبى فى ذلك الوقت يعانى من الجوع لنقص المؤن ، وفى نفس الوقت كان الجيش السلجوقى على مقربه منهم ثم قاموا بغارة فجائية على المعسكر الصليبيى الذى ساءته الفوضى ، ودارت معركة شرسة أستخدم فيها الترك فنون القتال

---

(3) Berry : ***op . cit ., p . 496 .***

سعيد عمران : **المرجع السابق ، ص ١٤٦ .**

(4) Odo of Deuil : ***op . cit ., p . 93 .***

المعروفة عنهم وهى الكر والفر ، كما استخدموا الاسلحة الخفيفة كالسهام والنشاب وكانوا فى هجومهم هذا كأنهم يحاصرون احدى المدن فذبحوا منهم الآلاف ولم يبق من عسكرهم الكثيف سوى واحد من كل عشرة ، ووقع الكثير منهم فى قبضة الترك (١).

ولقد أورد أودو أف دويل تفاصيل هذه المعركة وذكر أن الاتراك لم يكونوا فى اغلب الاحيان يلتحموا كرجل واحد لرجل ،واستخدم الترك السهام التى أهلكت الجيش الصليبى وكان الكونت برنارد من بلوتزكو ***Bernard of Plotzkau*** ورجاله الذين كانوا يحمون مؤخرة لجيش ضحية هذه السهام ، وكل واحد من أفراد الجيش الصليبى ناح وندب على اقتراب أجله ، كما أصيب الامبراطور كونراد نفسه بجرح بالغ (٢).

ولم يقم السلطان السلجوقى بنفسه بهذه المهمة ، بل قام بها احد قواده وهو القائد مامبلانس (بامبلانس) ***Mamplanes (Pamlanes)*** (باراموس ***Paramos*** عند وليم الصورى) ،وحيث انتصر على الصليبيين عند نهر باثيز ***Bathys*** ، وقتلوا الكثير منهم ونجحوا فى منع البقية الباقية من الصليبيين من عبور نهر الماندر والتقدم صوب مدينة فيلو ميلوم (٣).

وحاول كونراد أن يعيد تنظيم فلول قواته المهزومة وهو جريح فتمكن بصعوبة بالغة من النجاة مع نفر قليل من رجاله عائدين الى نيقية

---

(1) William of tyre : ***op . cit ., vol . II pp . 170-172 .***

ابن العبري : **تاريخ الزمان ، ص ١٦٢** . ؛ ابن القلانس : **المصدر السابق ، ص ٢٩٧** .

Chalandon (F) ***: op . cit ., p . 366 . ;*** *Michaud (M) :* ***op . cit ., T. 2 p . 338 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., p . 496 .***

(2) Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 95 .***

(3) Choniates (Nicetas) ***: Historia ., pp . 89-90 . ;*** *William of tyre :* ***op . cit ., vol . II p . 122 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨** .

Kinnamos ***: op . cit ., p . 68 . ;*** *Vryonis(s)* ***: The Decline of Byzantine in Asia Minor ., p . 121 .***

مـع البقيـة الباقيـة مـن اتباعـه – وكانـت نيقيـة فـى حـوذة البيزنطيين منـذ أن استردوها من سلاجقة الروم سنة ١٠٩٧ م – واستولى الاتراك علـى الغنـائم التـى لا تحصـى مـن الجيـاد والسـلاح الـوفير [١] ومـلأت تلـك الغنـائم الـبلاد التركية حتى بيعت وزنات الفضة فى ملطية بيع الرصاص [٢].

هذا ما حدث بالنسبة للقوات الرئيسية التى قادها الامبراطور كونراد ، أما عن مصير القسم الثانى من الجيش والذى كان يقوده أوتواف فرايزنج والذى اتخذ الطريق الساحلى إلى اضاليا ، فقد تعرضوا لكمين من الترك السلاجقة فى مدينة لاوداكيا (اللاذقية) وتعرضوا لمذبحة رهيبة قتل فيها قائد الحملة والكونت بيرنارد والالاف من رجال هذه الحملة،والملاحظ هنا أن المؤرخ الفرنسى أودوأف دويل يتنهم حاكم مدينة لاوداكيا بأنه قاد الحملة الى أماكن مختصرة فى الطريق المؤدى الى كمين الترك انفسهم ، وإن هذا الحاكم ومن تبعه من اليونانيين قسموا الغنائم مع الترك ،ولم ينج من هذه المذبحة إلا قليل والذين واجهوا العطش والجوع والمجاعه بسبب نقص الامدادات ، وقد وصلت البقية الباقية إلى أضاليا فى حاله إعياء شديد متأخرة عن الميعاد المفترض وصولها بثلاثة عشر يوماً [٣].

والجدير بالذكر أن المؤرخين لم يشيروا بالمرة الى وضع المرشدين فى هذه المعركة أو ينسوا الكارثه التى حلت بهم اليهم كما حدث للقسم الاول ، ويبدو هنا أن هؤلاء الادلاء ظلوا مع هذا القسم حتى النهاية ، ولم

---

(4) William of tyre : ***op . cit ., vol . II p . 172 .***
وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨ .**
Vryonis(s) : ***op . cit ., p . 121 . ;*** *Vryonis :* ***Nomadization and Islamisation in Asia Minor ., pp . 45-46 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 2 p . 268 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., p . 496 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣١-٤٣٢ .**
[٢] ابن العبري : **تاريخ الزمان ، ص ١٦٢ .**
(1) Odo of Deuil : ***op . cit ., pp . 113-115 . ;*** *Michaud (M) :* ***op . cit ., T. 1 p . 389 . ;*** *Mayer :* ***op . cit ., p . 104 .***

يقف هؤلاء موقفاً عدائياً من هذه الحملة وإلا لاشار اليهم هؤلاء المؤرخون على الرغم من تعرض هذه الحملة أيضاً الى هجوم الترك السلاجقة ، وإن كان صمتهم عن ذكر وضع المرشدين لم يقلل من تحاملهم على الجانب البيزنطى .

وفى تلك الاثناء كان الملك لويس يمضي بالجيش الفرنسى إلى القسطنطينية ولقد وصل أمام أسوارها فى ٤ أكتوبر ١١٤٧ م حيث صدمه نبأ الصلح والهدنه التى عقدها الامبراطور مانويل مع سلاجقة الروم وبلغ من شدة قلق لويس أن اقترح عليه بعض قادة جيشه الاستيلاء على القسطنطينية . ولمواجهة هذا الخطر المنتظر أسرع مانويل بالتفكير فى نقل القوات الفرنسية الى آسيا الصغرى [١]. وعلى أية حال اعتبر لويس هذا الامر بمثابة خيانة عظمى فى حق الفكره الصليبية بوجه عام وفى حق الحملة الصليبية الثانية على وجه الخصوص [٢].

وفى تلك الاثناء انتشرت شائعة كاذبة فى وسط الجيش الفرنسى الذى كان يعسكر أمام أسوار القسطنطينية تشير الى أن الالمان حققوا نصراً كبيراً على السلاجقة الاتراك وذبحوا حوالى أربعة عشر ألفا من الترك ، واحتلوا قونية ،وترتب على ذلك أن تشجع الفرنسيون للعبور إلى آسيا الصغرى لعلهم يفوزون بجانب من هذا النصر [٣].

ويتهم المؤرخ وليم الصورى الادلاء الذين كانوا يرافقون جيش الامبراطور كونراد بأنهم أصحاب هذه الاشاعة حيث راحوا يؤكدون لملك فرنسا ذلك الامر كى يحملوه على سلوك الطريق ذاته فيتردى فى نفس

---

(2) Vasiliev : ***op . cit ., vol II . p . 421 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p . 268 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢** . ؛ حسنين محمد ربيع : **دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٢١** .

[٢] سعيد عاشور : **الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٨٨-٤٨٩** .

(4) Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 73 .***

المهالك التى تردى فيها كونراد ،ويجعلوه يصدق ما قالوه من نجاح كونراد حتى يحولوا بينه وبين المبادرة إلى نجدة إخوانهم الذين أحدق بهم الخطر ، وربما اخترعوا هذه القصة ليبعدو العقاب عن انفسهم لانهم لو كانوا قد أخبروا لويس بهلاك جيش كونراد لامسكهم وعدهم خونة[١].

ويميل البعض إلى ان يكون الامبراطور مانويل مصدراً لهذه الشائعة خاصة وأنه كان يود التخلص بسرعة من القوات الفرنسية حتى لا يتحرج موقفه إذا تغلب الرأى الذى يطالب بالتحالف مع الملك روجر الثانى ملك صقلية ضد مانويل ،أو إذا أدت أى حادثة غير متوقعة إلى صدام بين الفرنسيين والبيزنطيين ، هذا إلى جانب أن الامبراطور البيزنطى كان يتشكك فى نوايا لويس الذى سبق له الاتصال بالملك روجر ودخل معه فى مفاوضات بشأن نقل الحملة بالطريق البحرى ، بالاضافة الى رفض لويس بالتعهد برد الاراضى التى يفتحها وكانت من قبل تابعة للامبراطورية البيزنطية [٢].

ومهما يكن الأمر ، فقد تخلص مانويل من القوات الفرنسية التى عبرت البسفور إلى شاطىء آسيا الصغرى والتى اتجهت الى خلقدونية ولم يكد يعلم الامبراطور مانويل بذلك ،وبعد أن اطمئن على عاصمته اصدر اوامره بوقف إمداد الصليبيين بما يلزمهم من مؤن إلا إذا أقسم له الملك لويس والامراء المشتركين فى الحملة يمين الولاء عما يفتحونه من اراضى آسيا الصغرى فى مقابل أن يتعهد مانويل بإمداد الفرنسيين بالمؤن والمرشدين اللازمين ، فضلاً عن الهدايا لكبار البارونات الفرنسيين ، كما أن الامبراطور تعهد بأن تقوم المدن البيزنطية بتقديم كافة المساعدات

---

(1) William of tyre : ***op . cit ., vol . II pp . 169-170 .***

(٢) وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٧٤-٢٧٥ .**

(٣) سعيد عمران : **المرجع السابق ، ص ١٥١-١٥٢ .**

للفرنسيين ،وكان من ضمن شروط لويس هو أن يكون من حق القوات الفرنسية نهب البلاد البيزنطية التى ترفض أن تقدم لهم الامدادات[١].

وصل الجيش الفرنسي إلى نيقية فى أول نوفمبر سنة ١١٤٧ م ليفاجىء بالكارثة التى حلت بالالمان وامبراطورهم كونراد الثالث ، حيث وصل فردريك دوق سوابيا إلى معسكر لويس السابع قادماً من معسكر كونراد ، فأخبر لويس عن هذه الكارثه ،وتأثر لويس تأثراً بالغاً بهذه الفاجعة ، وطالبه بالقدوم لمقابلة كونراد حيث وافق لويس على طلبه ، وفى هذه المقابله ،وبعد أن تبادل العاهلان التحايا المألوفة عقد اجتماعاً أسفر عن قرارهما بإكمال هدفهما وتوحيد قواتهما فى زحفهما معاً عبر الطريق الساحلى وترك الطريق الذى سلكه الامبراطور كونراد من قبل [٢].

ونظراً لما حل بالجيش الالمانى من خسارة فقد عرض الملك لويس ونبلاؤه الاموال والمعدات على الامبراطور كونراد وجيشه واتفقوا على أن ينتظروا فى لوباديوم حتى يستطيع مونرد أن يجمع المزيد من الامدادات قبل الاستمرار فى الرحلة ،ولكن الاسواق أصبحت أكثر ارتفاعاً وندرة ، حتى لجأ الفرنسيون إلى سلب ونهب الارياف تماماً ، كما تسمح لهم اتفاقيتهم السابقة مع مانويل ،وكان رد فعل الاهالى والسكان على هذا بأن أزعجوا وقتلوا افراداً من القوات الالمانية الضعيفة التى جاءت بعد ذلك[٣].

ولقد عبر كونراد اجتماع عقد فى ذلك الوقت عن رغبته فى أن يواصل لويس الحملة الصليبية بجنوده ،وطلب أن يتمركز فى منتصف

---

(3) Odo of Deuil ***: op . cit ., pp . 77-79 .***
(4) William of tyre : ***op . cit ., vol . II p . 173 .***
وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠ .**
Kinnamos ***: op . cit ., p . 70 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 367 . ;*** *Grousset :* ***op . cit ., T.2 . p . 239 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., p . 497 .***
(1) Berry : ***op . cit ., p . 497 .***

الجيش حيث إنه لم يكن هو وقواته أقوياء بالقدر الكافى لأن يحموا مقدمة أو مؤخرة الجيش ،وبخصوص هذا الطلب عين الملك لويس بعض القاده علىراس قوات إضافيه الى قوات الامبراطور (١).

زحفت القوات الفرنسية والألمانية تارة عبر الطريق الداخلى ، وتارة أخرى عبر الطريق الساحلى ، جاعلة فيلادفيا على يسارها فكانت أزمير أول محطة وصول بلغوها ، واتجه منها الجميع الى افسوس ***Ephesus*** فى منتصف ديسمبر سنة ١١٤٨ م (٢).

وعلى الرغم من أن الهدف كان واحداً لكل من الفريقين الفرنسى والالمانى فإن القوات الفرنسية لم تكن على وفاق مع القوات الالمانية التى تعرضت للسخرية من قوات لويس بسبب تأخرهم عن متابعتهم ، حيث سار الجيش الفرنسى فى المقدمة بينما شق الالمان طريقهم متأخرين عنهم ،وكان الفرنسيون يسخرون من الالمان وينادونهم على سبيل الاحتقار " تحركوا أقبلوا أيها الالمان " (٣).

وفى مدينة إفسوس سقط الامبراطور الالمانى كونراد صريع المرض بسبب اعتلال صحته ولم يتمكن من مواصلة الرحلة ،وعندما سمع مانويل وزوجته بهذا قاموا بدعوة كونراد بالحضور الى القسطنطينية حتى يأخذ فترة نقاهه ويتمكن من استعادة عافيته وكان مانويل سعيداً حينما نجح فى فصل الجيشين الغربيين ، كما كانت فرصة عندما استضاف كونراد ليقوى الاتفاقية القديمة بينه وبين كونراد ضد صقلية وهنغاريا (٤) . ويتساءل هنا وليم

---

(2) Ibid ., p . 497 .

*(3) William of tyre : **op . cit ., pp . 173-174 .***

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠-٢٨١ .

*Chalandon (F) **: op . cit ., p . 367 .***

*(4) Kinnamos **: op . cit ., p . 70 .***

*(5) Berry : **op . cit ., p . 498 . ;** Chalandon (F) **: op . cit ., pp . 367-368***

.

الصورى عن الاسباب التى حملت كونراد علي الذهاب إلي القسطنطينية إلا إذا كان ما أحسه من شجي ومرارة علي القتلى الكثيرين من جيشه الذين كانوا تحت قيادته أو ربما مرجع ذلك إلى ما لقيه من صلف الفرنسيين الذى لا يحتمل ، ومهما يكن من أمر فإن الامبراطور مانويل قد رحب به ترحيباً فاق ترحيبه فى المرة الاولى ، فظل مقيماً هو ورجال دولته فى القسطنطينية حتى مستهل الربيع الثانى [١].

والحقيقة أن الامبراطور كونراد تأثر تأثراً بالغاً لما حظي به من اهتمام الامبراطور والامبراطوره ،واثناء وجود الامبراطور كونراد فى القسطنطينية والذى استمر حتى أول مارس سنة ١١٤٨م ثم تدبير زواج هنرى دوق أوستريا شقيق كونراد من ثيودوار ابنة اندرونيقوس شقيق الامبراطور مانويل [٢].

ومما هو جدير بالذكر أن الامبراطور مانويل كومنين مع اهتمامه بالامبراطور كونراد من جهة لم ينس أن ينال الامبراطور لويس جزاءاً من هذا الاهتمام ،إذ أرسل إليه أثناء وجوده على رأس جيشه فى مدينة إفسوس يبلغه محذراً أن الاتراك السلاجقة قد جمعوا قوات هائله لمحاربة الصليبيين وينصحه أن يتجنب نزالهم ، وحثه على ان يتخذ من الحصون البيزنطية مأوى له كما أوضح له أنه ليس فى مقدور السلطات البيزنطية كبح جماح المواطنين البيزنطيين فى آسيا الصغرى إذا ما تعرضوا للاذى من قبل الصليبيين ، ولم يرد لويس على رسائل الامبراطور مانويل ،ولم يهتم بها

---

(1) William of tyre : ***op . cit ., p . 174 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ .**

(2) Kinnamos : ***op . cit ., p . 72 . ; Runciman*** : ***op . cit ., vol . 2 p . 271 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ .**

Chalandon (F) ***: op . cit ., p . 368 .***

وسار الملك بجيشه متقدما لانه كان يرغب في الاحتفال بأعياد الكريسماس فى وداى ديكرفيون [١].

ولقد اتخذ الجيش الفرنسى طريقه المستدير بوادى نهر الميندر ،وعند ديكيرفيوم أمضى الفرنسيون عيد الميلاد ، ثم تقدمت القوات حتى وصلت الى مدينة انطاكية فى اول يناير سنة ١١٤٨م (السابع من شعبان ٥٤٢هـ) وفى هذا الموضوع وعلى ضفاف نهر الميندر نشبت معركة حامية بين الصليبيين والترك انتهت بهزيمة الترك ووقوع اعداد منهم فى الاسر واستولى الصليبيون على المعسكر التركى الذى وجدوه زاخراً بكل أنواع الاسلاب وشتى ضروب الغنائم [٢].

والغريب هنا أن المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل يذكر أن هذه المعركة كانت مع جيش الترك تحت قيادة القادة اليونانيين (البيزنطيين) متهماً بذلك البيزنطيون أنهم سبب كل الكوارث [٣].

وصل الصليبيون بعد ذلك مدينة لاوداكيا [٤] فى الثالث أو الرابع من يناير سنة ١١٤٨م فوجدوها خالية من السكان حيث هجرها سكانها إلى

---

(3) Odo of Deuil ***: op . cit ., pp . 107-109 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., p . 497 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p . 271 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ .**

(4) William of tyre : ***op . cit ., p . 174-175 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ .**

Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 109 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p . 271-272 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٧ .**

Berry : ***op . cit ., p . 498 .***

(1) Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 109 .***

[٤] لاوداكيا : **لاوديقية – لاذق – اللاذقية) ، تقع هذه مدينة في أقليم فريجيا الصغري بقرب آسيا الصغرى غرب مدينة قونية ، قد سماها الأتراك ديزكي لوفرة المياة فيها ، ويعرف هذا الموضع في وقتنا الحاضر باسم اسكي حصار ، أي القلعة القديمة** . انظر :

Ramsay : ***op . cit ., p . 52 , 88 , 134 .***

التلال بكل ما معهم من مؤن خوفاً من الصليبيين من أن يقوموا بنهبها ، لذلك تعذر عليهم جمع المؤن اللازمة لهم فى رحلتهم الشاقة إلى اضاليا [١]. وإن كان وليم الصورى ذكر أنهم حينما بلغوا هذه المدينة تجهزوا بالمؤنه التى تكفيهم عدة أيام ثم ساروا جميعهم كتله واحدة [٢].

شقت القوات الفرنسية طريقها فى آسيا الصغرى قاصده مدينة أضاليا (أنطاليا) ، فالطريق إلى أضاليا يدور حول جبال شاهقة وكانت الرحلة شاهقة نظراً لوعورة الطريق وظروف الشتاء القاسية ،ولقد روع الصليبيون والفرنسيين ما شاهدوه من جثث حملة الالمان السابقة والتى كان يقودها أوتو اف فرايزامج – متناثرة على امتداد الطريق وواصل الجيش الفرنسى مسيرته وعمل الملك لويس على تنظيم جيشه واعاد توزيع قيادته حيث تولى بنفسه قيادته مؤخرة الجيش مع حرسه وعهد بقيادة مقدمة الجيش العمه الكونت مارين ***Maurienne*** ومعه البارون جوفربأفى راتكون***Geoffery of Rancon***[٣].

وأثناء تقدم الجيش الصليبى حدث أن خالفت بعض الفرق أوامر الملك لويس حينما أخذ الجيش الفرنسى يهبط نحو البحر حدث أن قامت فرقة جوفرى أف رانكون مخالفة أوامر الملك التى تقضى بأن يعسكر على قمة الدرب ، فهبطت الى سطح التل وانقطعت صلتها بالجيش الرئيسى .وفى

الأدريسي : **المصدر السابق ، مجـ ٢ ، ص ٨١٢** ، لسترنج : **بلدان الخلافة ، ص ١٨٦** .

(3) Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 115 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., pp . 498-499 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 2 p .272 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٧** .

Chalandon (F) ***: op . cit ., p . 367 .***

(4) William of tyre : ***op . cit ., pp . 174-175 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢** .

(5) Odo of Deuil ***: op . cit ., pp . 111-115 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., p . 499 . ;*** *Chalandon (F)* ***: op . cit ., p . 367 .***

وسط هذه الظروف انقض الاتراك السلاجقة على القوات الصليبية وامطروهم وابلاً من السهام ، وحدث ارتباك فى الجيش الفرنسى وسقط العديد من الجيش الصليبى بخيولهم صرعى ،وتعرض الملك لويس ورفاقه للموت ، كما قتل الترك الخيول التى لم تكن قادرة على الجرى ، حتى أن فرقة الفرنجة المكسوين بالدروع ساروا على أقدامهم بعد أن فقدوا خيولهم ، ولقد لجأ الملك لويس وحرسه إلى تسلق صخرة مرتفعة مخافة الوقوع فى الاسر ،ولقد قاوم العديد من الترك السلاجقة وكاد الملك نفسه أن يقع فى الاسر لولا حلول الظلام ، وقد أفاض المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل فى وصف المعارك التى خاضها الفرنسيون مع الترك والخسائر التى لحقت بهم وعلى رأس هذه الخسائر فرقة الحراسة الملكية والتى كان عددها أربعين فارس وكان من خيرة قوادها الكونت وارين ***Warenne*** واخيه إيفارد من بريتولى ***Evard of Breteuil*** و ماناسيس من بولزي ***Manasses of Bull*** وجوتير من مونتجاي ***Gautier of Montjay*** [1].

وعلى اية حال ، قرر الملك لويس القيام بمحاكمة المسئولين الذين تسببوا فى هذه الكارثة حيث أصدر حكماً على جيوفرى ***Geoffrey*** بالشنق ، لعدم إطاعة الاوامر حول يوم الرحيل ،ولكن شئياً من ذلك لم يحدث لان عم الملك شارك جيوفرى فى هذا التقصير ، ويضيف المؤرخ أودو أف دويل قائلاً : " وقبل زوال حزن الناس من ظل الكارثة طلع فجر اليوم التالى بضياء وإشراق وأصبح جيش الاعداء على مرئى منا منتشراً على الجبال فى

(1) Odo of Deuil **: op . cit ., pp . 115-123 . ;** William of tyre : **op . cit ., pp . 175-179 .**

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢-٢٨٥ .**

Berry : **op . cit ., pp . 499-500 .**

حشد كبير سعداء مما حققوه بينما كان رجالنا ينوحون وينـدبون علـى رفقائهم وممتلكاتهم المفقودة " [١].

على أننا نلاحظ أن أودو اف دويل دائماً يذكر ويكرر تحامله على البيزنطيين ، ففى تلك المعركة ذكر فى احدى عباراته " أن سهام الترك واليونانيين قد منعت أى شخص واقع فى النهوض مرة اخرى" [٢].

ولقد علق المؤرخ وليم الصورى على هذه المعركة بقوله : " لقد ضاعت فى هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة فى خطب كان من اشد الخطوب وفى نكبة كانت من أفدح النكبات التى حاقت بالصليبيين ، وذلك أن بسالتهم التى كانت فى هذه اللحظة مضرب الامثال عند الشعوب هوت إلى الحضيض ، وأصبحت سخرية فى عيون الامم النجسة ، بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها " [٣].

بدأ الملك لويس فى اعادة تنظيم قواته لمواصلة الزحف الى مدينة أضاليا وعهد إلى ايفرارد من باري ***Everard of Barre*** رئيس لفرسان المعبد (الداوية) [٤] بالمساعدة فى قيادة الجيش ، حيث كان الفرسان المعبد

---

(2) Odo of Deuil ***: op . cit ., p 123 .***
(3) Ibid . , ***p . 117 .***
(4) William of tyre : ***op . cit ., pp . 177 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ .**

(٤) الداوية : **شهدت الحركة الصليبية فى بلاد الشام أبتكاراً فذاً فريداً أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ويتمثل ذلك فى الهيئات الدينية الحربية التى جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية فى رباط واحد ومن هذه الهيئات الأسبتارية والداوية وفرسان النيوتون وغيرها أما عن هيئة الداوية ، فيرجع تأسيسها إلى عام ١١١٨ م وكانت فى البداية مكونة من مجموعة من الفرسان عاهدوا الله على العفه والطاعة والتقشف على طريقة الرهابان وأطلاقوا على أنفسهم " أتباع جنود المسيح الفقراء "**

" The poor Fellow of Jesus christ "

وزادوا أن أقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريدة ضد المسلمين ، وبذلك أصطبغت هذه الجماعة منذ الحظة الأولى وهي فى دور التكوين بصبغة القتال والحرب وحصل أولئك الفرسان سنة ١١١٨ م من الملك بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١) على مقر لهم فى جناح القصر الملكى بالقرب من معبد سليمان ، وهو المسجد الأقصى فى بيت المقدس ، ومن ثم عرفوا بأسم فرسان المعبد *Kinghts of the Temple* أما فى العربية فقد عرفوا بأسم الداوية نسبة إلى محراب داود .

أنظر : محمود الحويرى : **الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، صـ٦٥ -٦٦ .**

خبرة فى مثل هذا النوع من القتال فى الشرق والغرب أكثر من أى فرسان آخرين . وكان لإفرارد قداسته واحترامه من افراد الجيش . وبادر ايفرارد بالإخاء والمساواه بين فرسان المعبد وبقية الجيش .وأدى الجميع القسم على هروبهم من ساحة القتال مهما كان الامر واتباع أوامر الذين عينوا من قبل إفرارد [١].

وعين إيفرارد قائداً عاماً هو جلبرت الذى قام بدوره بتقسيم الجيش ووضع على راس كل خمسين فارساً ،وطلب منهم جلبرت الصمود امام هجمات الترك وأصدر اوامره بعدم الهجوم الا بعد صدور الاوامر ولا ينسحبوا إلا بعد أن يعطى لهم الاشارة ، وتم وضع رماه السهام فى مقدمة الجيش لمهاجمة رماه السهام من الترك ،والنبلاء الذين فقدوا معداتهم ثم وضعهم فى وسط الجيش [٢].

وعلى الرغم من أن الملك لويس هو سيد القوانين ، إلا أنه هو ايضاً يريد أن يكون خاضعاً –مثله فى ذلك مثل اى احد – لهذه القوانين ، وإن كان لا يستطيع أحد أن يتجرأ فى فرض أى أمر عليه ،ولكن المحافظة على الجيش وعلى خط القتال فى المعركة كانت فوق كل اعتبار [٣].

واصل الجيش الصليبيى مسيرته وفى أثناء تقدمه كان الغز الاتراك يلقون بشعورهم التى كانوا يقتلعونها من رؤوسهم كعلامة يشيرون بها للصليبيين على انه لن يستطيع أحد أن يطردهم من تلك المنطقة ، وقد انعكست دقة النظام الذى سار به الجيش على ادائه القتالى حتى تمكن من هزيمة الاتراك وصد غاراتهم لاربع مرات اثناء زحفهم " لكن (الترك واليونانين) كانوا يخططون لدمارنا فى طرق متعددة " ، نقص المؤن بذبح الخيول

---

(1) Odo of Deuil : ***op . cit ., p 125 .***
(2) Odo of Deuil : ***op . cit ., p 125 .***
(3) Ibid . , ***p . 127 .***

التى لم تكن قادرة على السير [١] ويلقى المؤرخ أودوأف دويل على جودفرى أوف رانكون العبء قائلا انه قادهم الى الموت والدمار [٢].

واصل الجيش زحفه وهو يواجه نقصاً فى جميع مواد التموين ويذكر وليم الصورى أن النكبة التى كانت أدهى من ذلك كله وافدح هى أنه لم يكن معهم أدلاء يرشدونهم على المسالك ويدلونهم على الضروب ومن ثم تشردوا وهاموا على وجوههم ولم ينقذهم مما هم فيه إلا دخولهم أخيراً إلي إقليم بامفيليا [٣] مجتازين الممرات الجبلية والأودية العميقة حتى قيض لهم النجاح أخيراً فى بلوغ أضاليا [٤].

وصل الجيش الفرنسى إلى أضاليا فى العشرين من يناير سنة ١١٤٨م (السابع من شعبان سنة ٥٤٢هـ) فوجد فى انتظاهره لاندولف ***Landolph*** حاكم المدينة ، وكانت أضاليا تابعة للامبراطورية البيزنطية ، ولم تكن مدينة كبيرة تتوافر فيها المؤن ، وذلك لوقوعها فى اقليم قروى فقير ، فهى تتاخم مباشرة أرض الترك ، وكانت تدفع الجزية للترك لعدم قدرتها على مجابهتهم وكانت أيضاً تمارس التجارة معهم [٥].

---

(4) Odo of Deuil ***: op . cit ., pp . 127-129 . ;*** *Berry :* ***op . cit ., p . 500 .***

(5) Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 129 .***

[٣] بامفيليا : **أحد أقاليم آسيا الصغري الواقعة علي ساحل البحر المتوسط** . انظر :

Ramsay : ***op . cit ., pp . 388-389 .***

(7) William of tyre : ***op . cit ., pp . 177-179 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٧** .

(1) William of tyre : ***op . cit ., pp . 177-178 .***

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٧** .

Berry : ***op . cit ., p . 500 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 2 pp .272-273 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩** .

ولقد عاني الجيش الفرنسى فى أضاليا فى الحصول على المؤن لارتفاع اسعارها ولجذب المنطقة ولتعرضها حديثاً لغارات الترك السلاجقة ، فضلا عن استيلاء القوات الالمانية السابقة ،والتى كانت بقيادة أوتو أف فريزانج على قدر كبير من المؤن ، ولم يسلم البيزنطيون من هذا الامر حيث اعتبر المؤرخ الفرنسى هذا دليلاً جديداً على خيانة البيزنطيين [١].

قرر الملك لويس مواصلة الزحف الى أنطاكية وتفاوض مع البيزنطيين والحاكم لاندولف حول الطريق المؤدى لأنطاكية ، فأشار عليهم البيزنطيون بأن الطريق إلى انطاكية عن طريق البر بحذاء الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى هو طريق صعب وشاق ويستغرق مسيرة أربعين يوماً تتخللها أراضى جرداء ليس بها مؤن ويسيطر عليها السلاجقة ، في حين أن الرحلة عن طريق البحر تستغرق ثلاثة أيام فقط ، لذا قرر الملك لويس استكمال الرحلة عن الطريق البحرى ، ووعد البيزنطيون بتوفير السفن اللازمة على الرغم من انه ليس من السهل توفير سفن لكل هذا الجيش [٢].

قام حاكم المدينة بتدبير بعض السفن اللازمة لنقل القوات الصليبية ، وبينما كان يجرى إعداد السفن قام الاتراك بشن غارات على المعسكر الصليبى ووجه الفرنسيون اللوم الى البيزنطيون ،وتم تجهيز السفن ولكنها كانت من القلة ما لا يجعلها تتسع لكل من الجيش ، لذا فقد استقل الملك لويس وحاشيته وفرسانه سفينة قدمها له حاكم المدينة لاندولوف ، بينما جرى نقل جزء من القوات الصليبية الاخرى مقابل أربعة

---

(2) Odo of Deuil : **op . cit ., pp . 129-131 .**
(3) Ibid . , **p . 131 .** Runciman : **op . cit ., vol . 2 p . 273 .**
رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩ .
Berry : **op . cit ., p . 501 .**

ماركات عن كل فرد .ووصلت سفينة لويس الى ميناء السويدية [١] فى التاسع عشر من مارس سنة ١١٤٨ م (٢٥ من شوال سنة ٥٤٢ هـ) .

والحقيقة أن الملك لويس تخلى عن جيشه وتركه تحت رحمة السلاجقة ، ولإرضاء ضميره قام بدفع مبلغ من المال قدره خمسمائه مارك للاندولف حاكم المدينة وطلب منه أن يرسل إليه عن طريق البحر من تبقى من الجيش ، وأناب عنه بالاشراف على هذه المهمة كونت أف فلاندرز ***Count of Flanders*** والكونت أرسيبالد أف بوربون ***Archibald of Bourbon*** ، على انه لم يمض يوم واحد على رحيل الملك حتى قام الترك السلاجقة الذين علموا فى الصباح برحيل الملك بمهاجمة المدينة بمن فيها من البيزنطيين والصليبيين ،وعلى الرغم من قيام كونت فلاندرز وبوربون بتنظيم الخطوط القتالية والدفاع ، إلا أن الاتراك نجحوا فى إلحاق خسائر فادحة بالجيش الصليبى [٢].

وعندئذ قام لاندولف بتوفير سفن اخرى لينقل بقية الجيش ، ولكنها لم تكن كافية ،وابتهج كونت فلاندرز وكونت بريون ، فرحل الملك لويس ،واستقل السفن هو ونخبه من القواد والاصدقاء والفرسان تاركين البقية الباقية من الجيش والحجاج ليواجهوا مصيرهم المحتوم ، حيث رفضوا البقاء فى المعسكرات التى اعدها لاندولف لهم ، وبعد أن تخلى عنهم قادتهم لاعتقادهم انهم سوف يتعرضوا لهجمات الترك ، لذا فقد شقوا طريقهم براً إلى

---

(4) Odo of Deuil **: op . cit ., pp . 135-137 . ;** *William of tyre :* **op . cit ., pp . 178-179 .**

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٨٨ .**

Runciman : **op . cit ., vol . 2 p .272 .**

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩ .** ؛ ديورانت (ول) : **قصة الحضارة ،مجـ ٤ ، جـ ٤ ، ص ٣٢ .**

(1) Odo of Deuil **: op . cit ., p . 139 . ;** *Berry :* **op . cit ., pp . 501-502 .**

طرسوس مفتقدين النظام والترتيب . وتعرضوا اثناء زحفهم إلى هجمات السلاجقة ، وهلك جانب كبير منهم فى حين وقع البعض ضحية الجوع والعطش والمرض ووقع البعض فى اسر السلاجقة والبعض الاخر فى خدمة اليونانين ، ولم يصل إلى انطاكية أو طرسوس إلا أقل من نصف عددهم [١].

أما بالنسبة للامبراطور كونراد فقد أمضى الشتاء فى القسطنطينية حيث لقى أحسن المعاملة من مانويل ،وفى ربيع ١١٤٨هـ استعد لرحيل وأغدق عليه مانويل كثيراً من الهدايا ، ثم ابحرهو ومن معه من النبلاء الذين فى حاشية الى الشرق فى اسطول جهزه مانويل لهم ، فوصل عكا فى ابريل سنة ١١٤٨ م [٢].

اجتمعت بقايا جيوش كل من كونراد و لويس فى فلسطين ، وبدلاً من قيامها هى وباقى الصليبيين باسترداد الرها – السبب الرئيسى فى قيام الحملة الصليبية الثانية – قام الصليبيون بهجوم فاشل على دمشق حيث نجحت القوات الاسلامية فى صدهم ونجت دمشق من الصليبيين وعاد الملكان الغربيان يجران أذيال الخيبة بعد فشلها فى حصار دمشق وكان ذلك نهاية الحرب الصليبية الثانية .

على أن فشل الحملة الصليبية قد فجر العديد من الاسئلة ، هل كان الامبراطور مانويل هو السبب الرئيسى فى فشل الحملة ؟ وهل عقد

---

(2) Odo of Deuil **: op . cit ., pp . 139-141 . ;** *Runciman* : **op . cit ., vol . 2 p .274 .**

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .**

Berry : **op . cit ., p . 503 .**

محمود سعيد عمران : **المرجع السابق ، ص ١٦٠** . ؛ محمود الحويري : **المرجع السابق ، ص ١٠٣ .**

(3) William of tyre : **op . cit ., vol . II pp . 181-182 .**

وليم الصوري : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢٩٠-٢٩١ .**

اتفاق مع سلاجقة الروم هو اعلان واضح وصريح من تحريضه للترك للقيام بالهجوم والقضاء على الصليبيين ؟ هل الصليبيون مسئولون مسئولية كاملة عن إخفاء هذه الحملة الصليبية ؟ أم أن المسئولية كانت مشتركة بين الامبراطور مانويل والصليبيين ؟ وما حقيقه الدور الكبير الذى لعبه الأدلاء البيزنطيون فى تحركات الجيوش الصليبية فى آسيا الصغرى ؟ والحقيقة إنها كلها أسئلة واتهامات جديرة بالفحص .

بداية نود القول إن الملك لويس أرسل إلى رئيس الدير سوجر رسالة لم تختلف عن سائر الرسائل فيما انطوت عليه من عرض واحد هو طلب المزيد والمال وقد أوعز كل ما وقع فى بلاد الاناضول من كوارث " إلى خيانة الامبراطور مانويل ، وإلى ما ارتكبناه من خطأ " (١).

كما أن المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل الذى يعتبر المؤرخ الرسمى للحملة الصليبية الثانية نراه على طول صفحات مدونته يردد باستمرار التهمة الموجهة إلى البيزنطيين بالخيانة ، كما أننا نلاحظ عاطفة الكره للبيزنطيين فيصف القسطنطينية قائلاً : " وكانت مدينة القسطنطينية مدينة عظيمة الثروات والخيرات وفى تصرفاتها ومعاملاتها الغش والغدر ، وكانت عقيدتها فاسدة وكافرة " (٢) كما يقول : " لقد عانينا من افعال اليونانيين الشريرة " " ولقد هزمنا بسبب خيانة وتكاسل اليونانيين (٣) . ويتهم أيضاً البيزنطيون بأنهم قادوا الترك لقتالهم اثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، " ففى عشية ليلة الكريسماس ، عندما كانت خيامنا منصوبه فى الوادى الخصيب جداً ، فإن الاتراك تحت قيادة اليونانيين قد حاولوا للمرة الاولى أن يخدعونا

---

(1) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 p .274 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .**

(2) Odo of Deuil ***: op . cit ., p . 87 .***

(3) Ibid . , ***p . 99 .***

لعدم انتباهنا وذلك بالهجوم على خيولنا حيث كانت ترعى فى العشب وقد قاومتهم ... " [١] . وفى احدى المعارك يذكر " أن سهام الاتراك واليونانيين قد منعت أى شخص سقط من النهوض مرة اخرى " [٢] . ويذكر أيضاً " لكن الاتراك واليونانيين كانوا يخططون لدمارنا فى طرق متعددة مختلفة " [٣].

كما شكا المؤرخ أودو اف دويل من ان البيزنطيين لم يقدموا مؤناً كافية على الرغم من انهم تقاضوا عنها اثماناً باهظة ، كما أنهم لم يوفروا للحملة وسائل النقل الكافية ، والواقع أنه ما من دولة فى العصور الوسطى حتى بيزنطة ذاتها المعروفة بقوة نظامها ، حازت من فائض كميات المؤن ما يكفى لبذلها لجيشين بالغى الفخامة (الالمانى والفرنسى) وقدما دون دعوة ودون سابق إنذار ، وكلما شحت الاقوات لابد أن تنزع الاسعار إلى الارتفاع ، ومن المحقق أن عدداً كبيراً من التجار المحليين وبعض موظفى الحكومة حاولوا أن يغشوا الغزاة ، ولم يكن هذا السلوك ظاهرة نادرة الحدوث فى التجارة ولاسيما فى العصور الوسطى [٤]. وبذلك يكون من المؤكد أن المؤرخ اودو اف دويل شديد البغض للبيزنطيين .

أما بالنسبة للحاكم البيزنطى لاندولف حاكم مدينة أضاليا (أنطاليا) وما وجه اليه من نقد لعدم توفيره السفن اللازمة لنقل الجيش الفرنسى عن طريق البحر فهو برىء من تلك التهم . فلا يصح توجيه اللوم له لانه ليس فى امكانية أن يوفر ويجهز عدداً من السفن تكفى لنقل كل هذا الجيش . ولقد ذكر المؤرخون أنه ميناء صغير . وعلى الرغم من ذلك فقد قدم للملك لويس سفينة مجاناً كما وفر على قدر طاقته – وفى وسط الشتاء القارص

---

(4) Odo of Deuil : ***op . cit ., p . 109 .***
(5) Ibid . , ***p . 117 .***
(6) Ibid . , ***p . 127 .***
(1) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 pp .274-275 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤١-٤٤٢ .**

الذى تقل فيه الملاحة – عدداً من السفن جزاءاً من الجيش . ولوكانت السفن متوفرة بشكل كبير لما اتخذ لويس وكونراد الطريق البحرى ، أما بالنسبة للادلاء البيزنطيين والاتهام الموجه إليهم بالخيانه فقد يقبل هذا الاتهام إذا لم نضع فى اعتبارنا التدمير والتغير الذى احدثته حروب الترك مع البيزنطيين وما قام به الترك من تدمير فى الجسور والابار لكى لا ينتفع البيزنطيون بها عند اشتباكهك معهم ، فضلاً عن انه كثيراً لم يستمع الى نصحهم .

أما بالنسبة للسكان البيزنطيين فى آسيا الصغرى إذا وجه لهم اللوم أو الاتهام بأنهم لم يتعاونوا مع الصليبيين ، فإن هذا الاتهام يكون مقبولاً فى حالة خروج الصليبيين عن التزامهم فى معاملتهم مع هؤلاء السكان ، بل إن بعض البلاد تعرضت لهجوم عنيف مع الصليبيين على الرغم من أنهم تظلهم ديانه واحدة (المسيحية) . كما اعتبر الصليبيون أن السكان المحليين كانوا متواطئين مع الترك والسكان البيزنطيين فى آسيا الصغرى ولم يعنيهم من يهاجمهم سواء كانوا صليبيين أو أتراك طالما أن هذا يعرضهم للخطر فاتخذوا ما رأوه مناسباً فى الحفاظ على سلامتهم دون التقييد بشرط معينة .

أما بالنسبة للامبراطور مانويل وموقفه من الحملة الصليبية الثانية فإن معظم المؤرخين المحدثين يميلون إلى أنه لم يكن مسؤولاً عن فشل الحملة الصليبية [1].

---

(2) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 pp .274-275 .***

رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤١-٤٤٥.

Cahen : ***pre-ottoman Turkey ., pp . 97-98 . ; Vasiliev*** : ***op . cit ., vol II . p . 420 .***

وفيما يتعلق بالتحالف الذى عقده مانويل مع الاتراك السلاجقة فكانت الحروب بين السلاجقة والاتراك فى آسيا الصغرى وبين البيزنطيين سجال بين الطرفين [1] وكانت الظروف بين الفريقين تتطلب أن يحافظ كل منهما على السلام بينهما ، كما أن الامبراطور مانويل لم يدع ولم يكن راغباً فى قدوم الحملة الصليبية ،ولم تكن بموافقته لأن تجاربه جعلته لا يثق فى مساعدة الغرب . فكثيراً ما كان يحدث خلاف بين الامراء المسلمين فى آسيا الصغرى ، الامر الذى دفع سلطنة سلاجقة الروم الى عقد معاهدة السلام مع بيزنطة للتفرغ لمشكلتها التى تواجهها ، والشىء نفسه بالنسبة لبيزنطة فكثيراً ما يحدث اضطرابات فى بعض مناطق الامبراطورية المختلفة فى أوربا

والواقع أن البيزنطيين حينما طلبوا من الامبراطور أن يساندهم على المسلمين فاتهم أن بلادهم كانت تتعرض لهجوم عنيف من قبل دولة مسيحية أخرى هى صقلية ، إذ استولى ملكها روجر سنة ١١٤٧ م على جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشاً ليغير على شبه جزيرة البلقان ، وما تعرض له الامبراطور من تهديد لهجوم النورمان ، هو الذى حمله على الارتداد عن قونية فى سنة ١١٤٦ م . فإذا جرى اعتبار مانويل خائنا للعالم المسيحى باتفاقه مع السلاجقة (١١٤٧م) فمن المحقق أن روجر ملك صقلية يفوقه فى ذلك [2] لخيانته لدولة مسيحية لها ثقلها بين دول وامبراطوريات العصور الوسطى.

وعلى الرغم من ضخامة الجيش البيزنطى . فإنه لم يكن سريع التحرك إلى كل مكان ، فقد اضطر الامبراطور مانويل الى تقسيم قواته للدفاع

سعيد عمران : **المرجع السابق** ، ص ١٤٣-١٥٨،١٥٣،١٤٥،١٤٤ . ؛ محمد زكي نجيب : **المرجع السابق : ص ١٥٣** . ؛ حسنين ربيع : **المرجع السابق** ، ص ٢٢٢ .

[1] انظر **الفصل الثالث من الرسالة** .

(2) Runciman : ***op . cit ., vol . 2 p . 575 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية** ، جـ ٢ ، ص ٤٤٣-٤٤٤ .

عن الاراضى البيزنطية ضد هجمات روجر ملك صقيلة من جهة وضد هجمات البولوفتسي [1] ***Polovtsian*** الذين احدثوا القلق والاضطراب فى السهول الروسية وقاموا بالهجوم على شبه جزيرة البلقان فى صيف سنة ١١٤٨م ، ولم يستطيع مانويل أن يجرد حدود قيليقية من الجند فى الوقت الذى تطلب اجتياز الصليبيين لاراضى الامبراطورية ، ضرورة زيادة عدد رجال الشرطة العسكرية ، وازاء هذا الوضع لم يكن بوسع الامبراطور مانويل ان يسحب من قوات الحدود ما يكفى لاتخاذ مواقعها علي امتداد حدود الأناضول (آسيا الصغرى) لذا آثر مانويل أن يعقد هدنة تكفل لرعاياه بالاناضول ان يعيشوا بعيد عن خطر الغارات التركية . غير ان الصليبيين عرضوا هذه الهدنة للخطر ، فلم يكن زحف كونراد على دور يليوم إلا استثارة مباشرة للترك ، أما لويس فإنه على الرغم من التزامه المسير بداخل الاراضى

---

[1] البولو فتسي : أحد العناصر التركية التى نزحت من أواسط آسيا وأقامت فى سهوب روسيا الجنوبية بعد البجناك والغز ، ولم يظهروا إلا بعد القرن الحادي عشر الميلادى وقد عرفوا فى اللغة اليونانية بأسم *Komanoi* , *Komanoi* وفى اللاتينية *comani* و*cumani* وأطلق عليها المجريون أسم *Kun* بينما اشتهروا فى الحوليات الروسية باسم بولفتسي *polovtsy* . أنظر :

Art . cumans , in the New Ency . Britt . , *vol . III , P . 289 ,*
Buss : *Art . cumans , in lexicon universal ency . , vol 5 , P . 386*

.

وجدير بالذكر أن الدكتور العريني فى ترجمتة لكتاب رنسيمان : " الحروب الصليبية " يضع أمام لفظ البولفتسي بين خاصرتين كلمة البجناك من عنده دون أن يكون لها وجود فى كتاب رنسيمان وقد أخذ عنه محمد نجيب فى رسالته هذه المعلومة وقد عرف البولفتس بأنهم البجناك بين قوسين ، فى حين أن رنسيمان جاء كتابه خلواً من كلمة البجناك . والحقيقية أن البجناك والبولفتسي شعبان مختلفان ولقد سقط البجناك على يد حنا كومنين سنة ١١٢٢م وانتهوا تماماً ولم يعدلهم ذكر وتفرقوا فى أوربا ووقعوا تحت سيطرة بيزنطة . أنظر :

نجيب عاصم ومحمد عارف : عثمانلى تاريخى برنجى جلد (استانبول – ١٣٣٠ هـ) ص٧٦ .

Runciman : ***op . cit . , vol . II . P . 276 .***

رنسيمان : الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني ، جـ٢ ص ٤٤٤ ؛ محمد ذكى نجيب : علاقة سلطنة سلاجقة الروم باالدولة البيزنطية فى عهد أسرة كومنين (١٠٨١ – ١١٨٥ م) صـ١٥٤ ؛ محمد عبد الشافى المغربي: مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين و المسلمين فى القرنين ٧،٨ . رسالة ماجستير . كلية الآداب بسوهاج غير منشورة (١٩٩١) . اشراف أ . د محمود الحويرى . ص ٤٨ – ٤٩ ، ١٠١ .

البيزنطية ، فقد صرح علناً أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء فى داخل النطاق الذى تتوالى حراسته الحامية البيزنطية [1].

على أن المسئولية الاساسية عما حل بالصليبيين من كوارث فى آسيا الصغرى ترجع حتماً الى ما ارتكبوه من حماقات ، كما أن الملكين الغربيين لم يكونا على وفاق وتعاون وكانت جيوشهما خليطاً من المحاربين والمدنيين ، وبالاضافة الى هذا فتك الجوع والمرض فتكاً ذريعاً بأفراد هذه الحملة فى طرق آسيا الصغرى التي يجهلوها،وبالتالى لم يصل منهم الى الأراضى المقدسة إلا فلول أنهكها الجهد .

رابعاً الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢) :

الحقيقة أن الوضع فى الحملة الصليبية الثالثة اختلف كثيراً عما عهدناه فى الحملات الصليبية السابقة فقد ظهرت على الساحة شخصيات جديدة ، وتغيرت ملامح الخريطة السياسية بعض الشىء فى آسيا الصغرى والشرق الاسلامى ، والعلاقات بين الاطراف فى المنطقة تغيرت تغيراً جذرياً ، فقد ظهر فى الشرق شخصية صلاح الدين الايوبى . فبعد وفاة نور الدين استقل صلاح الدين بمصر وتزعم حركة الجهاد وخاض صراعاً طوياً ليقضي على منافسيه ،ولقد تفرغ لقتال الصليبيين بعد أن قام بتوحيد القوى الاسلامية التى كانت فى نظرة وسيلة لغاية اكبر وهى القضاء على الكيان الصليبى فى بلاد الشام .

(1) Runciman : ***A history of the crusades ., vol . 2 p . 276 .***

وكانت قمة انتصاره على جيوش الصليبيين فى موقعة حطين الشهيرة فى ٤ يوليو ١١٨٧ م (٢٤ ربيع الثانى ٥٨٢ هـ) حيث أحدثت هزيمة الصليبيين فى حطين ثم سقوط بيت المقدس رد فعل عنيف فى الغرب الاوربى ، الذى أدرك أخيراً اهماله فى عدم الاستجابه للنداءات المتكرة التى اصدرها الصليبيون فى الشام فى السنوات الاخيرة لتردى الاوضاع التى كانت تطالب بضرورة قيام حملة صليبية جديدة من اروبا للقضاء على قوة صلاح الدين الايوبى صاحب السيادة على العالم الاسلامى بأسره [١].

ولم يلبث كونراد دى مونتفرات أن أرسل فى أواخر صيف ١١٨٧ م جوسياس *Josias* رئيس أساقفة صور كمبعوث من قبله يحمل رسائل إلى ملوك وأمراء غرب أوربا يشرح إليهم ماوصل اليه وضع الصليبيين فى بلاد الشام من سوء ويطلب من البابوية ، وملوك الغرب أمرائه النجدة السريعة [٢] وقد واصل جوسياس سيره فوصل إيطاليا ليشرح إلى البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧ م) فى روما موقف الصليبيين ، فمات حزناً على ضياع بيت المقدس وقد بادر خليفته البابا الجديد جريجورى الثامن يحث ملوك وحكام

---

(2) Kingsford (C.L) : ***The Kingdom of Jerusalem . 1099-1291 . in cam . med . hist . vol . v (Cambridge 1979) . , p .310 . ;*** *Grabois (A) :* ***op . cit ., p . 248 . ;*** *Ottin :* ***Land of Emperors and Sultans , p . 210 . ;*** *Charles (M.B) :* ***Crusades ., vol . 1 p . 559 .***

سعيد عاشور : **المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٦٦٢** . ؛ قاسم عبده قاسم : **ماهية الحروب الصليبية .سلسلة عالم المعرفة رقم ١٤٩ (الكويت ١٩٩٠م) ، ص ١٤٣** . ؛ زبيدة عطا : **الترك في العصور الوسطي ، ص ١٠٤** ؛ عفاف سيد صبرة : **دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، (القاهرة ١٩٨٥م) ، ص ٣٩٣** .

(1) Grousset : ***Histoire des croisades ., vol . 3 p . 8 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 3 p . 4 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٢١** .

Tout (T.F) : ***The Empire and the papacy ., pp . 298-299 . ;*** *Michaud (M) :* ***op . cit ., vol II pp . 314-315 .***

غرب أوربا على القيام بحملة صليبية جديدة لمحاربة المسلمين واستعادة بيت المقدس من ايديهم [١].

وقد استجاب لدعوة البابوية ثلاثة من كبار ملوك غرب أوربا للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق وهم الامبراطور الالمانى فردريك بربوسا الاول(١١٥٢-١١٩٠) وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا (١١٨٩-١١٩٩ م) وفيليب أغسطس ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣ م) وممثلون عن دول أخرى فى اروبا [٢] . وكان فردريك بربروسا أكثرهم نشاطاً وحماساً ، وقد عزم على أن يسلك الطريق البرى بدلاً من الطريق البحرى الذى اعتزم اتخاذه ملك انجلترا وملك فرنسا [٣].وبذلك تكون الحملة الصليبية الثالثة قد اصطبغت من بدايتها بالصبغة الفردية ويكون لآسيا الصغرى نصيب فى نشاطها .

والامبراطور فردريك هو الذى آل إليه حكم ألمانيا بعد وفاة عمه كونراد الثالث سنة ١١٥٢م . ويعتبر فردريك الاول من أقوى الشخصيات التى تولت حكم ألمانيا منذ عهد أوتو الاول العظيم (٩٦٢-٩٧٣ م) قضى فردريك مدة حكمه الطويلة البالغة سبعة وثلاثين فى كفاح مستمر من أجل اعادة عظمة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واتخذ فردريك الاول لقب بربروسا ، وما كان لديه من لحية حمراء كثه الشعر والمعروف ان فردريك بربروسا

---

(2) Tout (T.F) : ***op . cit ., p . 271 . ;*** *Brehier :* ***Les Crosades . , p . 118 .***
حامد زيان غانم : الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة (القاهرة ١٩٧٧م) ، ص ١٠-١١ .

(3) Vasiliev : ***op . cit ., vol II . p . 445 . ;*** *Michaud (M) :* ***op . cit ., T. 2 p . 275 . ;*** *Painter (Sidney)* ***: The third crusade , Richard the Lion hearted and Philip Augustus . Setton : A History of the crusades . vol . II (pp. 45-86) p . 49 . ;*** *Charles (M.B) :* ***Crusades ., vol . 1 p . 559 .***

(4) Ostrogorsky ***: op . cit ., p . 360 . ;*** *Kingsford (C.L) :* ***op . cit ., vol 1 . p . 310 . ;*** *Jorga :* ***The Byzantine Empire ., pp . 165-166 . ;*** *Painter (Sidney) :* ***A Hist. of The Middle Ages ., p . 281 .***

صحب عمه كونراد الثالث (١١٣٨-١١٠٢ م) ملك المانيا فى الحملة الصليبية الثانية الفاشلة . التى خرجت من غرب أوربا (١١٤٧ م)،وكان كونراد الثالث ملك ألمانيا قد اصطحب معه ابن اخيه فردريك حاكم سوابيا – الامبراطور فروديك الاول بربروسا فيما بعد – وكان آنذاك شاباً قوى البينة ، وتولى قيادة فريق النبلاء فى تلك الحملة [١].

لم يحاول فردريك بربروسا الاستعجال فى الخروج من بلاده والاشتراك فى الحملة الصليبية الثالثة إلا بعد أن اتخذ ترتيبات دقيقة منظمة لحملته . وكان ذلك بسبب مالاقا فى الحملة الصليبية الثانية من عوائق السفر في البلقان وآسيا الصغرى وليأمن حملته من جانب الفشل الذى لحق بحملة عمه كونراد الثالث ، ولتأمين خط سير حملته أرسل فردريك الاول إلى حكام وأمراء الدول التى سيمر بها جيشه بذلك حتى يتخذوا من التدابير ان يكفل تأمين جيشه وامداده بالمؤن والمعدات اللازمة [٢].

ويهمنا هنا أن نوضح قبل التعرض لنشاط الحملة فى آسيا الصغرى مدى تغيير العلاقات والمصالح من خلال هذه الرسائل والسفارات المتبادلة بين الاطراف المختلفة المعنيةفقد أرسل فردريك بربروسا سفارة برئاسة الكاردينال كونراد رئيس أساقفة ما ينز إلى بيلا الثالث *Belle III* ملك هنغاريا (المجر) للتفاوض معه حول مرور الحمله عبر أراضيه وتلقى فردريك رداً طيباً من ملك المجر [٣].

---

[١] حامد زيان غانم : **المرجع السابق ، ص ١٢-٢٠ .**

(1) Austinlanpool (M.A) : ***op . cit ., vol . V p . 359 . ;*** *Pirenne :* ***A History of Europe from The invasions to the XVI century ., pp . 272-273 .***

(2) Brehier : ***op . cit ., p . 121 . ;*** *Jobnson (Edgar) :* ***"The crusades of Frederick Barbarossa and Henry VI " Setton : vol . II (pp . 87-122) ., p . 91 . ;*** *Austinlanpool (M.A) :* ***op . cit ., p . 410 .***

كما ارسل فردريك رسالة إلى صلاح الدين الايوبى يخبرة أن الامبراطور الالمانى سوف يقوم بحملة صليبية على الشرق وإذا لم يرد بيت المقدس وصليب الصلبوت الذى وقع فى يديه عند استرداده لبيت المقدس وإذا لم يستجيب لذلك فإنه يتحداه بالحرب فى ساحة صوغن (صان الحجر فى شرق الدلتا الحالية)[١].

وكان رد صلاح الدين حاسماً حيث أكد بأنه سوف يستولى على حدود طرابلس وانطاكية وهى المدن التابعة للصليبيين ، كما أن مطالب الامبراطور فردريك بربروسا والتى بمقتضاها يتحقق السلام لم يرض بها صلاح الدين إلا اذا استسلمت المدن الثلاث ، بالإضافة إلى ذلك عرض صلاح الدين بأنه إذا استسلمت تلك المدن فسوف يعيد له الصليب المقدس ويطلق سراح الاسرى ، ويعيد الاديرة لاصحابها المسيحيين ولا شئ سوى ذلك وإلا تحتم نشوب الحرب [٢].

كما ارسل الامبراطور فردريك سفارة إلى السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى (١١٥٦-١١٩٢ م) سلطان قونية ، وقام بها أحد قادته ويدعى جود فرى ويسنباخ *Godfrey of wiesnbach* لترتيب مرور قواته والجيش الالمانى عبر أراضية ، فرحب قلج أرسلان بالسفارة . وتلقى الامبراطور

---

(3) Michaud (M) : ***op . cit ., vol II p . 375 . ;*** *Austinlanpool (M.A) :* ***op . cit ., p . 410 . ;*** *Jobnson :* ***op . cit ., p . 91 . ;*** *Brehier :* ***op . cit ., p . 121 . ;*** *Runciman :* ***op . cit ., vol . 3 p . 11 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٢-٣٣ .**

(4) Austinlanpool (M.A) : ***op . cit ., p . 410 .***

عادل عبد الحافظ عثمان : **العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي ١١٥٢-١٢٥٠م (٥٤٧-٦٤٨هـ) القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٢٨-١٢٩** . ؛ رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٣**

Runciman : ***op . cit ., vol . 3 p . 11 .***

الالمانى إجابة مبدئية وهو لا يزال فى المانيا فى مدينة نورمبرج *Nuremberg* فى أواخر ديسمبر عام ١١٨٨ م [١].

والحقيقة أن العلاقات بين الامبراطور الالمانى فردريك بربروسا والسلطان قلج أرسلان الثانى سلطان سلاجقة الروم قديمة ، حيث تعود إلى سنة ١١٦٧ م (٥٦٣ هـ) عندما دخل فى مفوضات معه باعتباره أشد أعداء الامبراطورية البيزنطية ،وعقد عقد معه معاهدة صداقة ، وحثه على غزو أراضى الدولة البيزنطية وقتال الامبراطور مانويل ، وكان فردريك بربروسا يقصد من وراء اتفاقية مع قلج أرسلان أن يبعد الامبراطور مانويل عن التدخل فى المسائل الاوربية فى غرب اوربا عامة وبصفة خاصة فى ايطاليا ،وأن يحوله الى الاهتمام بشئون آسيا الصغرى [٢].

والواقع أن الكراهية كانت متبادلة بين الجانبين الالمانى والبيزنطى ، فالامبراطور فردريك كان يكن الكراهية لاباطرة القسطنطينية منذ الحملة الصليبية الثانية حينما ضاق ذرعاً لقيام كونراد الثالث بالبقاء فى القسطنطينية ، وعقد معاهدة صداقة مع الامبراطور مانويل .

وفى ذلك الوقت أضحى قلج أرسلان الثانى فى وضع يجعله لا يخشي الامبراطور مانويل ، فقد نجح في تحقيق بعض المكاسب الاقليمية .ولقى مانويل هزيمة ساحقة عند ميريوكفالون *Myrioce Phalum* [٣] فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦م . وما إن وصلت أنباء هزيمة الامبراطور البيزنطى أمام السلاجقة إلى الغرب الاوربى ، حتى أرسل الامبرطور الالمانى

---

*(1) Jobnson : **op . cit ., p . 91 . ;** Michaud (M) : **op . cit ., vol II p . 375 . ;** Brehier : **op . cit ., p . 121 . ;** Austinlanpool (M.A) : **op . cit ., p . 410 .***

*(2) Chalandon (F) **: op . cit ., pp . 598-599 . ;** Vasiliev : **op . cit ., vol II . pp . 425-426 .***

[٣] انظر **الفصل الثالث من الرسالة** .

فردريك بربروسا إلى مانويل رسالة تقطر احتقاراًمخبراً إياه بأن الأباطرة الالمان الذين ورثوا سلطانهم من الاباطرة الرومان العظام ، ويجب عليهم أن يحكموا ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل وايضاً " المملكة اليونانية " [١] وبذلك يكون فردريك قد أعلن نفسه وريثا للأباطرة الرومان وهو يحلم أن تكون الدولة الرومانية المقدسة التى يحكمها هى الامبراطورية الوحيدة فى العالم كله .

ومن الترتيبات التى اتخذها أيضاً فردريك بربروسا أن أرسل رسالة إلى الامبراطور البيزنطى اسحق انجليوس سنة (١١٨٥-١١٩٥) للتفاوض معه حول مرور الجيش الالمان خلال الاراضى البيزنطية ، وقد أثار وصول الرسالة إلى القسطنطينية الرعب لدى الامبراطور اسحق ، فأرسل سفارة برئاسة يوحنا دوكاس رئيس القضاه وصلت إلى نور مبرج توضح هدف هذه الحملة . إذ اعتقد أن حملة فردريك المزمع القيام بها إلى الاراضى المقدسة ما هى إلا حجة للقيام بحملة عدائية ضد الدولة البيزنطية .وبعد أن أوضح الالمان سلامة نيتهم وأن هدفهم الاراضى المقدسة تم عقد معاهدة بين الالمان والبيزنطيين لتنظيم مسألة عبور الجيش الالمانى داخل الاراضى البيزنطية ، و تعهد فيها الجانب البيزنطى بتوفير المؤن وتقديم المرشدين وإمداد الجيش بالسفن لنقله إلى آسيا الصغرى ،وتعهد الالمان من جانبهم بأنهم سوف يسلكون مسلكاً طيباً أثناء مرورهم بالاراضى البيزنطية [٢].

وعلى الرغم من عقد هذه الاتفاقية بين البيزنطيين والالمان إلا أنها لم تقض على الشك الذى اعترى البيزنطيين تجاه الالمان خاصة لقيام فردريك

---

(4) Vasiliev : ***op . cit ., vol II . p . 430 . ;*** *Hussey* ***: Byzantium and the crusades in setton . , vol . 2 p . 141 .***

هسي (ح . م) : **العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق / د. رأفت عبد الحميد** . ؛ حسنين محمد ربيع : **المرجع السابق ، ص ٢٣١** .

(1) Michaud (M) : ***op . cit ., vol II pp . 91-92 . ;*** *Ostrogorsky* ***: op . cit ., p . 406 .*** *Hussey* ***: op . cit ., vol . 2 p . 147 .***

بالتفاوض مع الصرب والسلاجقة أعداء الامبراطور، لذا كان مرور الالمان فى الاراضى البيزنطية امراً فوق رغبتهم (١).

وكيفما كان الامر ، فإن البيزنطيين كانوا يعتقدون أن الامبراطور فردريك بربروسا قدم ليضع نهاية لحكمهم أو الذى قاده إلى ذلك عداء طويل لكل شىء لاتينى . وأنتشرت تكهنات العرافين حيث كان عصر النبواءت ، أذ أشار العرافون أن الامبراطور الالمانى سوف يأتى عن طريق بوابه اكسلوخيرون *Xylokerkon* لكى يضع التاجين الرومانيين على رأسه (٢).

ولقد جرت الاتصالات والرسائل الدبلوماسية والسفارات المتتالية بين صلاح الدين والامبراطور إسحق انجليوس ،وعمل الاثنان على توثيق العلاقة بينهما ، فالسلطان صلاح الدين الايوبى كان يرغب من خلال علاقته بالدولة علاقته بالدولة البيزنطية مساندته ومناصرته ضد أى فريق من الصليبيين يمر بأراضى الدولة البيزنطية ، أما إسحق فبالإضافة إلى الشك والريبة فى نوايا فردريك ، فقد رغب فى توثيق علاقته بصلاح الدين ليضمن مناصرته ، حيث إن قدوم فردريك كان من شأنه أن يقوى من هجمات سلاجقة الروم والذين تمكنوا بعد معركة ميريوكيفالون من طرد البيزنطيين من مناطق هامة بآسيا الصغرى (٣).

على أن صلاح الدين عندما تأكد من اقتراب الحملة الصليبية الثالثة ، صمم على توثيق علاقته بالامبراطور إسحق ولذلك أرسل مع السفارة

---

(2) Ostrogorsky ***: op . cit ., p . 406 . ;*** *Vasiliev* : ***op . cit ., vol II . pp . 445-446 . ;*** *Painter :* ***op . cit ., p . 281 .***
(3) Jorga : ***op . cit ., p . 166 .***
(4) Grousset : ***op . cit .,vol . III . pp . 10-11 . ;*** *Brehier :* ***Les Crosades . , p . 122 . ;*** *Brand (C.M) :* ***The Byzantines and Saladin 1185-1192 opponents of third crusade in speculum XXXVII N. 2 (April 1962) pp . 171-172 . ;*** *Michaud (M) :* ***op . cit ., vol II p . 376 . ;*** *Previte :* ***The shorter Cambridge Medieval History ., vol . 1 . p . 530 . ;*** *Austinlanpool (M.A) :* ***op . cit ., p . 410 .***

البيزنطية الاخيرة التى زارته سفراء من جانبه ، ليتفاوضوا مع الامبراطور إسحق حول صيغة إتفاق للتصدى للهجوم الصليبيى ، وأرسل صلاح الدين مع السفارة هدية ثمينة ، حيث كانت تشمل على عشرين شحنة تحتوى على صناديق كبيرة من اللبان والبلسم وعقود الجواهر وهدايا أخرى تشمل على الروائح والتوابل [١]. كما أرسل مع تلك السفارة منبراً وخطيباً وجمعاً من المؤذنين لإقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية هذا المسجد الذى بنى فىعصر بني أميه[٢].

تحرك فردريك فى ١١ مايو ١١٨٩ بجيشه من ريجنسبورج *Regensburg* واصطحب معه ابنه فردريك دوق سوابيا وأساقفة من تارينتس *Tarentaise* وليج *Liege* ، وودزبورج *Wurzburg*، وباسوا *Passau* و ريخسبورج وباسل *Basle* وميزن *Meissen* ودزنابروك *Dznabruck* وتول *Toul* وتسعة وعشرين كونت من مختلف بقاع ألمانيا وأنسبرت *Ansbert* مؤرخ هذه الحملة ، ورجال من كولون وعدد كبير من اتباعه على راس أضخم جيش صليبى قاده زعيم أوربى [٣].وقد سلك الطريق البرى إلى القسطنطينية ، وبلغ تعداد الجيش الالمانى حوالى مائه ألف مقاتل ، وامتاز هذا الجيش بقدرة الامبراطور على تنظيمه والسيطرة التامة عليه [٤]، " فكان من يجري منه جنايه ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه " [١].

---

(1) Brand : ***op . cit ., p . 171 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . III . p . 11 .***

[٢] ابن واصل : **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ ٢ ، تحقيق د/ جمال الدين الشيال (الإسكندرية ١٩٥٧م) ، ص ٣٢٨ .**

(3) Mayer : ***op . cit ., p . 140 . ;*** *Painter* ***: The third crusade in setton ., vol . 2 p . 49 . ;*** *Lang (D.M)* ***: Armenian cradle of civilization , p . 202 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 3 p . 11 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٣ .**

(4)Grousset : ***op . cit ., p . 10 . ;*** *Brehier :* ***op . cit ., p . 121 .***

واصل الجيش الالمانى سيره ودخل بلاد المجر فاستقبله بيلا الثالث ملك المجر بالترحيب والموده ،وهيأ له كل السبل لتيسير اجتيازه لبلاده ، وفى ٢٣ يونيه عبر فردريك نهر الدانوب عند بلغراد ، ونفذ إلى داخل الأراضى البيزنطية ، وهنا بدأت المتاعب والمنازعات تواجه الحملة [٢].

ولم تكد جيوش فردريك تصل حدود الإمبراطورية البيزنطية حتى بدأ موقف الامبراطور إسحق أنجليوس الثانى يتغير ،ولم تدخل المعاهدة السابقة التى وقعت بين فردريك بربروسا وإسحق فى نورمبرج فى خريف ١١٨٨ م السابق خير التنفيذ ، لإن الإمبراطور إسحق بدأ يرتاب فى نوايا الجيش الالمانى ،وعلى هذا تغير موقفه وأخذ يثير مختلف العراقيل فى طريق الجيش الالمانى [٣].

الواقع إن اسحق كان يخشى مرور جيش فردريك بأراضيه خاصة بعد عبوره إلى آسيا الصغرى ، فمن المحتمل أن يقيم فردريك مع سلاجقة الروم تحالفاً ضد الدولة البيزنطية وضد حليفه صلاح الدين ، ولكن إسحق أمام ضخامة جيش فردريك لم يستطيع اعتراضه بطريقه مباشرة [٤]. ولعدم قدرة

---

[١] ابن شداد : " **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** " **تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة –١٩٦٤م) ص ١٢٦** . ؛ أبو شامة : " **الروضتين في أخبار الدولتين** " **(بيروت – بدون تاريخ) جـ ٢ ، ص ١٥٥** .

(6) Runciman : ***op . cit ., vol . 3 p . 11-12 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٣–٣٤** .

Tout (T.F) : ***op . cit ., p . 266 . ;*** *Vasiliev* : ***op . cit ., vol II . p . 446 .***

[٣] حامد زيان غانم : **المرجع السابق ، ص ٢٧** .

(2) Michaud (M) : ***op . cit ., vol II p . 376 . ;*** *Grousset :* ***op . cit .,vol . III . p . 12 . ;*** *Brehier :* ***op . cit ., p . 122 .***

إسحق الثانى العسكرية على الوقوف فى وجه سلاجقة الروم اشترى مسالمتهم بعقد إتفاقية معهم تعهد بمقتضاها دفع مبلغ من المال سنوياً [١].

كانت الاتصالات مستمرة بين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى والامبراطور الالمانى فردريك بربروسا ، وكانت هناك سفارة ألمانية قادمه من سلطنة سلاجقة الروم ومعها وفد رسمى سلجوقي برفقة القائد الالمانى ، وبسبب التوتر القائم بين البيزنطيين والالمان صدرت الاوامر بالقبض على هذه السفارة الالمانية وتم احتجازها بالقسطنطينية عدة أسابيع ، وسلب أعضاؤها الهدايا المرسلة إلى الإمبراطور [٢]. وهذا مما دعى البعض إلى أن يرى أن ما حدث للسفارة من احتجاز ومصادرة للهدايا قد تم بناء على إلحاح من ممثلى صلاح الدين وكان لدى سفراء فردريك من خيل وأمتعه [٣].

ولم يفت هذا فى عضد الإمبراطور فردريك أو ينقص من حماسة وحماس جنوده ، فتابع زحفه داخل الأراضى البيزنطية حتى وصل إلى مدينة فيليوبوليس واستولى عليها ، ثم واصل زحفه قاصداً مدينة أدريانوبل ليستولى عليها تمهيداً لمهاجمة القسطنطينية ، كما كتب فردريك إلى هنرى الثالث بألمانيا يطلب منه تجهيز جيش وأسطول قويين لتأديب الإمبراطوار البيزنطى بعد أستئذان البابوية للقيام بحرب صليبية ضد البيزنطيين [٤]

---

(3) Tout : ***op . cit ., p . 342 .***

(4) Eracles : ***L'estoire de Eraclos Empereur et la conquest de la Terre d'qutremer . recueit des Historiens des croisades historiens occidentaux II (Paris 1859) p . 131 . ;*** *Rohricht (Reinhold) :* ***Regestaregni Hierosolymitani ((MXCVII-MCCXCI) Oeniponti Libraria Academica Wagneriana (Oeniponti –1893) ., p . 183 . ;*** *Jobnson :* ***op . cit .,vol II p . 110 . ;*** *Brehier :* ***op . cit ., p . 122 . ;*** *Grousset :* ***op . cit ., T.3 . pp .11 -12 .***

(5) Brand : ***op . cit ., p . 173 .***

(6) Eracles : ***op . cit ., vol . II p . 131 . ;*** *Previte :* ***op . cit ., vol . 1 p . 530 . ;*** *Tout (T.F) :* ***op . cit ., p . 342 . ;*** *Vasiliev :* ***op . cit ., vol II . p .***

وعندما علم إسحق الثانى بكل هذه التطورات أصيب بخيبة أمل ، وبدأ يعيد النظر فى سياسته مع الالمان ، وبعد إجراء عدة مشاورات بين الجانبين – الالمانى والبيزنطى – ثم الاتفاق على عقد معاهدة بينهما تعهد فيها الطرف البيزنطى بإمداد الجيش الالمانى بكل ما تحتاجة من مؤن وعتاد ، كما اتفق الجانبان على ان يمر الصليبيون دون أن يسببوا أى ضرر وأن لا يتعدوا على أية مدينة أو قرية لأن البيزنطيين سوف يوفرون لهم كل ما يحتاجونه ، كما تعهد إسحق بنقل أفراد الجيش الالمانى على سفن بيزنطية إلى الشاطىء الأسيوى ، وتم إطلاق سراح السفارة الالمانية والوفد السلجوقى المصاحب لها ، وعند عبور بربروسا الأراضى البيزنطية عند مدينة أدريانوبل وصل الوفد السلجوقى إلى الامبرطور فردريك فى ١٤ فبراير ١١٩٠م (٧ محرم ٥٨٦هـ) حاملاً تأكيد السلطان قلج أرسلان بالمساعدة فى مرور قوات الحملة الالمانية عبر أراضية فى آسيا الصغرى دون عقبات [١].

كما وصلت سفارة أخرى من قبل السلاجقة من الامير قطب الدين بن قلج أرسلان وولى عهده قبل أن يتسلم مقاليد الحكم فى قونية وباعتباره

---

447 . ; *Grousset :* ***op . cit ., vol . 2 p . 12 . ;*** *Runciman* : ***op . cit ., vol . 3 p . 11-12 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٦ .**

(1) Eracles : ***op . cit ., pp . 132-133 . ;*** *Choniates (Nicetas)* ***: Historia ., p 525 . ;*** *Rohricht :* ***op . cit ., No . 686 p . 183 . ;*** *Grousset :* ***Histoire des croisades ., vol . III . p . 14 . ;*** *Jobnson :* ***op . cit ., pp . 110-111 . ;*** *Vasiliev :* ***op . cit ., vol II . pp . 445-447 . ;*** *Turan* : ***Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks , p . 244 . ;*** *Cahen :* ***Selgukides , Turcomans et allemands au temps de la troisime croisade Turcobyzantina IX (pp . 21 -31) . , pp . 26-26 . ;*** *Cahen* : ***pre-ottoman Turkey ., p . 680 . ;*** *Ostrogorsky* ***: op . cit ., p . 407 .***

السلطان المنتظر إلى أدريا نوبل وهذا الوفد قدم نفس الوعود للإمبراطور الالمانى [١].

أما عن الوضع فى آسيا الصغرى فنود أن نشير إلي أن الحملة الصليبية الأولى والثانية حينما قدمت إلى آسيا الصغرى وجدت القوة السياسية التركية الرئيسية فيها متمثلة فى سلطنة سلاجقة الروم ، وإلى جانب هذه القوى قوة أخرى تمثلت فى بنى دانشمند وكانت مستقلة عنها رغم تبعيتها لها وكان لها شعبتان إحداهما فى سيواس والاخرى فى ملطية ، ولقد نجح السلطان قلج أرسلان فى ضم جزئى إمارة دانشمند إلى ممتلكات السلطنة السلجوقية ، حيث استولى على سيواس سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) ثم استولى على ملطية فى سنة ١١٧٧ م ، وبسقوط إمارة بنى دانشمند التى عاشت ما يقرب من قرن وربع يكون ميزان القوى فى آسيا الصغرى قد تغير ، وبالتالى فإن قوة سلطنة سلاجقة الروم قد ازدادت بشكل ملحوظ [٢].

وعلى أية حال ، تحركت الحملة الالمانية بقيادة الإمبراطور فردريك من أدريانوبل إلى ميناء غاليبولى المطل على بحر مرمرة من جهة الجنوب ، وكان فى انتظار الالمان السفن والاساطيل البيزنطية المكلفة بنقل الجيش الالمانى إلى الشاطىء الأسيوى الذى عبر فى مارس سنة ١١٩٠م وانتقل

---

(2) Eracles : ***op . cit ., pp . 132-133 . ;*** *Rohricht :* ***op . cit ., No . 686 p . 183 . ;*** *Cahen :* ***Selgukides , Turcomans , p . 27***

[٢] سبط بن الجوزى : " **مرآة الزمان** " (**شيكاغو ١٩٠٧ م**) ، **جـ٨ ، صـ١٨٤ – ٢٩٤** .؛ بن العديم : **المصد السابق ، جـ٢ ، صـ٣٣٧–٣٣٨** . ؛ إبن واصل : **المصدر السابق جـ١ ، صـ٢٣٤** ؛ الأقسراى : **مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ، صـ٣٢** ؛ إبن العبرى : **تاريخ الزمان ، صـ١٨٠–١٨١–١٨٤–١٩٠** ؛ الذهبى : " **سير أعلام النبلاء** " (**الطبعة الحادية عشر – بيروت ١٩٩٦م) جـ٢١، صـ٤٢٨** ؛ إبن فضل الله العمرى : " **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** " **أصدر بإشراف / فؤاد سزكين ٢٧ جزءاً (فرانكفورد – ١٩٨٨م) السفر ٢٧ ص١١٠–١٤٧–١٤٩.**

Michel le Syrien ***: Extrait de la chronique ., pp . 366-373-379 . ;*** *Cahen* : ***pre-ottoman Turkey ., p . 103 .***

علي بن صالح المحيمد : **الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول ص ١٢٥–١٢٦ .**

بأكملة إلى الشاطى الأسيوى [١]. وعلى الرغم من أعداد السفن الكثيرة التى استخدمها فلم يستخدموا طريق البحر .

وعلى أن ما فى الأرقام [٢] الكبيرة للسفن التى قامت بنقل الجيش الالمانى عبر البسفور والدردنيل ما يثير التساؤل لماذا يستخدم الجيش الالمانى الطريق البحرى متجنباً مخاطر الطريق البرى

خاصة أن الطريق البرى وما فيه من مشقه ومخاطر ليس بغريب على الإمبراطور فردريك الذى قاسى مع عمه كونراد فى الحملة الصليبية الثانية . كما أن الصليبيين اكتشفوا منذ حملتهم الاولى خطورة ومشقة الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، فبالإضافة إلى الظروف الطبيعية لهذا الطريق فإنه كان يقع تحت قوى معاديه للصليبيين والبيزنطيين على حد سواء متمثلة فى قوة السلاجقة والتركمان .

وفى مدينة فلادلفيا اشتبك الجيش الالمانى مع سكان المدينة بسبب امتناعهم عن تقديم المساعدات للحملة ، وأقدم الالمان على تخريب المدينة إلا أن الموقف أمكن السيطرة عليه من قبل حاكم المدينة وبعض النصحاء الذين تفاوضوا مع الإمبراطور فردريك وأوضحوا له أن المدينة من أقدم المدن المسيحية وأنها تزخر بمقدسات مسيحية كثيرة وأنها آخر المعاقل المسيحية

---

*(1) Jobnson : **op . cit .,vol II p . 110 . ;** Michaud (M) : **op . cit ., T. 2 p . 80 . ;** Grousset : **op . cit ., T.3 . pp . 12-13 . ;** Brehier : **op . cit ., p . 123 . ;** Milton (J) & Steinberg (R) **: The cross and the cresent Byzantium ., p . 86***

مكسيموس مونروند : " **تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب " مجـ٢ ، صـ١١٠**

[٢] تشير المصادر **إل أن السفن التى كانت فى إنتظار الألمان بلغت خمسمائة سفينة وعشرين شونه ويشير البعض الآخر إلى أنه كان فى إنتظاره ألف وخمسمائة سفينة وستة وعشرين مركب وذكر البعض الآخر أنه كانت خمسة عشرة ألف سفينة . أنظر :**

مكسيموس : **المرجع السابق – مجـ٢ ، صـ١١٠ .** ؛ عادل عبد الحافظ : **المرجع السابق – صـ١٥٢ ، حاشيه ٣،٤ .**

ضد الاتراك ، فأمر فردريك قواته بالتوقف عن تخريب المدينة [١] ، ويبدو أن هذه المدينة التى تقع على حدود البلاد التابعة للسيادة الاسلامية بآسيا الصغرى قد وقفت موقفاً معادياً من الحملة ،ورفضت تقديم المساعدات [٢] خشية أن يعرضها ذلك لانتقام السلاجقة فيما بعد وبسبب ما وجد من علاقات طيبة بين صلاح الدين وإسحق الثانى ،وقام الأخير بإرسال رسالة إلى صلاح الدين إثر عبور فردريك إلى آسيا الصغرى يبرر له فيها سبب السماح لفردريك بالعبور حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود فى وجه فردريك، كما أخبره بالمتاعب التى حاقت بجيش الالمان [٣].

ومهما يكن من أمر ، فإن الحملة التزمت فى سيرها بالطريق الذى يقع بين الطريق الشرقى الذى سار فيه الصليبيون سنة ١٠٩٧ م والطريق الغربى الذى اتبعه لويس السابع سنة ١١٤٨ م [٤] وبذلك يكون الامبراطور فردريك قد التزم الطريق الذى سبق أن سلكه الإسكندر المقدونى على وجه التقريب قبل خمسة عشر قرناً ، فعبر نهر غرانيقوس واجتاز الانجيلوكوميس حتى بلغ الطريق البيزنطى الرئيسى الممتد من مليتوبوليس إلى باليكس الحالية فسلك هذا الطريق من قلاموس إلى فيلادلفيا [٥].

---

*(3) Jobnson : **op . cit .,vol II p . 110 . ;** Michaud (M) : **op . cit ., T. 2 p . 81 . ;** Runciman : **op . cit ., vol . 3 pp . 14-15 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .**

[٢] مكسيموس مونروند : **المرجع السابق ، مجـ ٢ ، ص ١١٠ .**

[٣] ابن شداد : **النوادر السلطانية ، ص ١٣٢-١٣٣** ؛ أبو شامة : **الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٥٩-١٦٠** . ؛ محمد ماهر حمادة : " **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي " (٤٨٩-٦٠٢ هـ / ١٠٩٦-١٤٠٤ م) دراسة ونصوص (الطبعة الثالثة –بيروت – ١٩٨٦ م) ، ص ٤٢-٤٣** .

[٤] باركر (ارنست) : **الحروب الصليبية ، ص ١١٣ .**

*(2) Runciman : **op . cit ., vol . 3 p . 14 .***

وفي مدينة فيلادلفيا اشتبك الجيش الألماني مع سكان المدينة بسبب امتناعهم عن تقديم المساعدات للحملة ، وأقدم الألمان علي تخريب المدينة ، إلا أن الموقف أمكن السيطرة عليه من قبل حاكم المدينة وبعض النصحاء الذين تفاوضوا مع الإمبراطور فردريك ، وأوضحوا له أن المدينة من أقدم المدن المسيحية وأنها تزخر بمقدسات مسيحية كثيرة وأنها آخر المعاقل المسيحية ضد الأتراك ، فأمر فردريك قواته بالتوقف عن تخريب المدينة [١] . ويبدو أن هذه المدينة التي تقع علي حدود البلاد التابعة للسيادة الإسلامية بآسيا الصغرى ، قد وقفت موقفاً معادياً من الحملة ، ورفضت تقديم المساعدات [٢] خشية أن يعرضها ذلك لإنتقام السلاجقة فيما بعد .

واصل الجيش الالمانى زحفه فى آسيا الصغرى ووصل إلى لاوديكيا وكانت مدينة يونانية مستقلة عن حكم التركمان ويسكنها شعب يونانى ، فرحب أهالى المدينة بالامبراطور فردريك والجيش

الالمانى ، وقدموا له كل ما احتاجه من المؤن والعتاد ، كما استعان قادة الحملة ببعض الادلاء اليونانيين فى معرفة أفضل الطرق والمسالك بآسيا الصغرى [٣].

بعد ذلك تقدم الجيش الالمانى إلى داخل آسيا الصغرى وسلك الطريق الذى سبق أن سلكه الإمبراطور مانويل الأول كومنين فى طريقه إلى لقاء

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .**

*Michaud (M) : **op . cit ., T. 2 p . 378 . ; Grousset : op . cit ., T.3 . p . 13 .***

مكسيموس مونروند : **المرجع السابق ، ص ١١٠ .**

*(3) Jobnson : **op . cit ., p . 110 . ; Michaud : op . cit ., T . 2 p . 81 . ;** Runciman : **op . cit ., vol . 3 pp . 14-15 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .**

[٢] مكسيموس مونروند : **المرجع السابق ، مجـ ٢ ، ص ١١٠ .**

[٣] حامد زيان غانم : **المرجع السابق ، ص ٤١ .**

سلاجقة الروم فى معركة ميريوكيفيا لون سنة ١١٧٦م . وقد سلك الإمبراطور فردريك هذا الطريق لدواعى تتعلق بسلامه الحملة ، واجتاز بعد مناوشة مع الترك موضع ساحة المعركة التى مازالت عظام الضحايا ظاهرة فيها للعيان وكان الطريق شاقاً وعراً ،وأخذ الجوع والظمأ من الحملة بعد أن سار حول طرف جبل سلطان داغ ،وفقد الالمان عدداً كبيراً من رجالهم وخيولهم من هجمات وسهام الترك ثم دخلت الحملة الالمانية أراضى السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى [١].

على أننا نريد هنا أن نقف عند موقف السلاجقة من حملة الإمبراطور فردريك فى آسيا الصغرى ، فمن المعروف أنه قد جرى تعاون بين السلاجقة والالمان فى معركة ميريوكيفيالون ، كما أن المراسلات بين الطرفين قبل عبور الحملة الالمانية الدردنيل إلى آسيا الصغرى مستمرة وقائمة والتى بمقتضاها يقوم السلاجقة بتقدم كافة التيسيرات إلى الحملة الالمانية . والحقيقة أن المؤرخين المسلمين واللاتينيين اختلفوا فيما ذكروه فى موقف قلج أرسلان من الالمان ، فيشير المؤرخون اللاتينيون أنه عندما وصلت أنباء الاتفاق الالمانى البيزنطى إلى مسامع السلطان قلج أرسلان ، غضب وصمم على إعاقة مرور فردريك داخل أراضية فجمع جيشه وقام بتحصين الطرق والمناطق التى سوف يمر فيها لمنعه من المرور [٢] . وبذلك يكون السلطان قلج أرسلان قد نوى برغم ما بذله من وعود أن لا يسنح للصليبيين باجتياز بلاده فى هدوء [٣].

---

(1) Eracles : ***op . cit ., p . 133 . ;*** *Grousset :* ***op . cit ., T.3 . pp . 13-14 . ;*** *Rice (T.T) :* ***The Seljoukes in Asia Minor ., p . 65 . ;*** *Jobnson :* ***op . cit .,vol II p . 110 . ;*** *Barger (E)* ***: In the track of the crusaders . p . 176 . ;*** *Turan :* ***op . cit ., p . 244 .***

(2) Eracles : ***op . cit ., p . 132 .***

(3) Runciman **: *op . cit ., vol . 3 p . 14 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .**

أما عن موقف المؤرخين المسلمين من قلج أرسلان فقد أشاروا بوضوح إلى روابط الصداقة والتحالف التى جمعت بين السلطان قلج أرسلان والإمبراطور فردريك .وقد انتقد المؤرخ ابن شداد هذا الموقف المتخاذل من السلطان قلج أرسلان حيث ذكر أنه " عندما أرسل إلى صلاح الدين يعتذر عن عبور ملك الالمان من بلاده ، إنما يفيد بذلك أمام صلاح الدين بالشقاق لملك الالمان ، وهو فى الباطن يظهر له الوفاق ، وأن سلطان السلاجقة سرعان ما أمد الامبراطور بالمرشدين والرهائن حتى يعبر أراضيه بسلام " [١].

وكان قلج أرسلان قد سارع بإرسال رسالة إلى صلاح الدين يخبره فيها بوصول حملة فردريك بربروسا إلى آسيا الصغرى ووعده بصدهم وعدم تمكينهم من عبور أراضية ، فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم وافتراق أولاده واستبدادهم عليه [٢] . على حين يذكر المؤرخ ابن الاثير أن أسباباً قوية دفعت السلطان قلج أرسلان على السماح لفردريك بربروسا لعبور أراضيه كحالة الضعف التى كانت تتعرض لها البلاد بسبب المشاكل الداخلية وكما ذكر أن قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم [٣]،بينما يرى سبط بين الجوزى أنهم "لما دخلوا بلاد قلج أرسلان لم يكن له بهم طاقة فاحتاج إلى مسالمتهم وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم " [٤].

والحقيقية أن قلج أرسلان كان فى وضع لا يحسد عليه ، فهو قد تعهد بالسماح للإمبراطور فردريك الاول وجيشه لعبور أراضيه فى آسيا الصغرى . وفى نفس الوقت إذا سمح لفردريك بعبور أراضية فسوف ينقلب المسلمون فى كل مكان ضده ، وربما يصفوه بالخيانه . يضاف إلى ذلك ما

---

[١] ابن شداد : **النوادر السلطانية ، ص ١٢٣** . ؛ أبو شامة : **الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٥٤** .

[٢] ابن خلدون : **المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٧٤** .

[٣] ابن الأثير : **الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٨٧** .

[٤] سبط بن الجوزي : **مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٥٨** .

كان يتعرض له من السلطان قلج أرسلان من ضغط بسبب التحالف الذى جرى بين خصيمة صلاح الدين من ناحية والامبراطور البيزنطى أنجليوس من ناحية أخرى .

كما أن هناك تطوراً آخر حدث فى سلطنة سلاجقة الروم حيث قام السلطان قلج أرسلان وكان طاعناً فى السن آنذاك بتقسيم ملكه على اولاده فى نهاية حياته ، ولم يدرك أن هذا سوف يجرهم إلى النزاع فيما بينهم وإلى طمع اعدائهم فيهم بتفتيتهم ، فقد اعطى قونية وأعمالها لابنه غياث الدين كيخسروا ، وأقسرا وسيواس لقطب الدين وتوقات لركن الدين سليمان وأنقرة لمحيى الدين ، وملطية لمعز الدين قيصر شاه ، والأبلستين لمغيث الدين ، وقيصرية لنور الدين محمود ، ونسكار وأماسيا لابن أخيه ثم ندم على ذلك وأراد انتزاع الاعمال من اولاده فخرجوا عليه [١] ، ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين وانتزع منه السلطان [٢].

أما عن صلاح الدين فقد أخذ يتابع تقدم حملة الالمان فى قلق وأرسل " العيون والجواسيس إلى آسيا الصغرى للوقوف على أخبارهم " [٣].

على أية حال ، تقدم الجيش الالمانى داخل أراضى قلج أرسلان وعند سهل فيلومليوم *Philomelium* واجه الجيش الالمانى الترك الذين حاولوا وقف تقدمهم ، ولم يكن أمام الالمان إلا محاربتهم ، واشتبك الفريقان وأصيب فى المعركة فردريك دوق سوابيا والحق الترك بالجيش الالمانى خسائر كثيرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن الجيش الالمانى من التغلب

---

[١] ابن خلدون : **المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٩٢** . ؛ القلقشندى : "**صبح الأعشي في صناعة الإنشا** " **(القاهرة-١٩١٣م) جـ ٥ ، ص ٣٥٩**

*Cahen : **Selgukides , Turcomans ., pp . 24-25** .*

[٢] ابن العبري : "**تاريخ مختصر الدول** " ،**ص ٢٢٣** .

[٣] أبو شامة : **الروضتين ، جـ٢ ،ص ١٥٠** .

عليهم وقاموا بتدمير المدينة وإحراقها ، كما نجح الالمان فى هزيمة السلاجقة مرة أخرى بالقرب من سينولاريوس *Cinolarios* [١].

واصل الجيش الالمانى تقدمه متجهاً إلى قونية ، وكان مع الامبراطور فردريك أدلاء اتراك صحبوه من لاودكيا إلى قونيه ، وقد أسرهم أثناء حروبه مع الترك وجعلهم يتقدمون الجيش وهو مكبلون بالسلاسل [٢].

وأثناء تقدم الجيش الالمانى قاده الأدلاء الى قفار غير مسلوكه وأراضى عديمة الماء فأصاب الجيش التعب وعانى الظمأ ، واضطر لأكل لحوم جيف الخيل التى ماتت والشرب من دمائها وغيرهم كانوا يمضغون بأسنانهم بعض الأخشاب الناشفة لعلمهم يجدون فيها نوعاً من الطراوة[٣].

على أن أخطر ما واجه الجيش الالمان أثناء زحفه فى آسيا الصغرى " التركمان الأوج " الذين أشارت إليهم المصادر الإسلامية وهو القاطنون على التخوم السلجوقية – البيزنطية ، حيث ألحقوا بالجيش الالمانى خسائر ضخمة وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ، والفترة التى قطعها من الشاطىء الاسيوى الشرقى لأسيا الصغرى وحتى وصوله إلى قونيه كما سيأتى [٤]. وكان

---

(5) Eracles : ***op . cit ., p . 133 . ;*** *Choniates (Nicetas)* ***: Historia ., pp . 541-542 . ;*** *Cahen :* ***Selgukides , Turcomans ., pp . 29-30 .***

مكسيموس مونروند : **المرجع السابق ، مجـ ٢ ، ص ١١١ .**

(1) Michaud (M) : ***op . cit ., T. II pp . 381-382 .***

[٣] مكسيموس مونروند : **المرجع السابق ، مجـ ٢ ، ص ١١٢–١١٣ .**

[٤] ابن الأثير : **الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٤٨ .** ؛ ابن شداد : " **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** " **ص ١٢٤–١٢٥ .** ؛ أبو شامة : **الروضتين ، جـ٢ ،ص ١٥١–١٥٥ .** ؛ عماد الدين الأصفهاني : " **الفتح القسي في الفتح القدسي** " **ص ٢٦٣ .** ؛ ابن الفرات : **تاريخ ابن الفرات ، حققه وعلق عليه / د. حسن محمد الشماع ، المجلد الرابع**

التركمان قد نجحوا فى عزل مدينة فيلادفيا ولاودكيا عن باقى الممتلكات البيزنطية فى غرب آسيا الصغرى ولم يكن يكترثوا بأى استقرار فى المنطقة [١].

ويرى المؤرخ المحدث فريونز أن تركمان الأوج كانوا من اكبر العقبات وأعثرها التى واجهت الإمبراطور فردريك بربروسا فى آسيا الصغرى أثناء زحفه على رأس حملته الصليبية ومن قبله أيضاً الامبراطور مانويل كومنين الذى واجههم فى معركة ميريو كيفالون سنة ١١٧٦م خلال زحفه في آسيا الصغري ، ولقد شكا كل من مانويل وفردريك باربا روسا إلى السلطان قلج أرسلان بأن هؤلاء التركمان لا يحترمون الاتفاقات المعقودة مع سلطنة قونية وقد أجاب السلطان بانه غير قادر على السيطرة على هؤلاء البدو التركمان [٢].

ودخل فى عداء الالمان أيضاً بعض أبناء السلطان قلج أرسلان وهم أمراء مدن أنقرة ، وقيصرية وفيلومليوم دون أن يكترثوا بوعود والدهم قلج أرسلان ، وربما بسبب بزوغ قوى أخرى هى قوة الابن الأكبر قطب الدين ، فقد كان الاخير يتصرف عند قدوم الحملة الالمانية " كسلطان " الدولة السلجوقية بعد ان أجبر والده على الاعتراف به كولى عهد منذ سنة ١١٨٩م (٥٨٥ هـ) [٣].

والخامس ، (بغداد – ١٩٧٠ م) ، مجلد ٤ ، جـ ١ ، ص ٢١٤–٢١٥، ابن العديم : **المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١١٣–١١٤ .**

Grousset : ***op . cit ., vol .3 . p . 14 . ;*** *Turan :* ***op . cit ., p . 244 . ;*** *Cahen :* ***op . cit ., pp . 28-29 .***

زبيدة عطا : **المرجع السابق ، ص ١٠٨ .** ، عفاف سيد صبرة : **المرجع السابق ، ص ٣٩٤ .**

(4) Cahen : ***op . cit ., pp . 28-29 .***

(5) Vryonis ***: The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor . , pp . 128-262 , p . 267 . No . 737 .***

[٣] محمد زكي نجيب : **المرجع السابق ، ص ٣٧–٣٨ ، ٧٩ .**

فقد أشارت المصادر الإسلامية إلى قطب الدين بن قلج أرسلان الذى أخذته حمية الإسلام ووقف موقفاً معادياً من الحملة الالمانية وسياسة ابيه المرضية للحملة الالمانية [١] . والحقيقة أن ما حدث من مقاومة الصليبيين فى آسيا الصغرى ربما يكون لصلاح الدين دور فيه حيث كان يرغب فى القضاء على الحملة الصليبية فى آسيا الصغرى قبل وصولها إلى الشام [٢].

واصل الجيش الالمانى تقدمه متجهاً إلى قونية ووصل إلى أسوارها فى ١٧أو ١٨ مايو سنة ١١٩٠م وفوجىء الجيش الالمانى بجيش السلاجقة يقوده الابن الأكبر قطب الدين بن قلج أرسلان ومدعماً بمجموعات أخرى من تركمان الأمير رستم . ولم يكن أمام الإمبراطور فردريك إلا الاشتباك مع هذا الجيش ومهاجمة قونية فقسم جيشه إلى قسمين أحدهما قاده ابنه دوق سوابيا والآخر وضعه تحت قيادته ، والتقى الجيشان السلجوقي والالمانى أمام مدينة قونيه . وقد تمكن الامبراطور فردريك من هزيمة قطب الدين الذى هرب إلى داخل المدينة ، وقامت القوات الالمانية بنهب المدينة والسيطرة عليها وأحرقت أسوارها ،وهلك كثير من السلاجقة وفر آخرون [٣] وكانت مدينة قونية تتميز

---

[١] ابن واصل : **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ ٢ ، ص ٣١٨** . ؛ ابن الأثير : **الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣** .

(3) Cahen : ***Selgukides , Turcomans et allemands ., pp . 28-29 .***

(4) Eracles : ***op . cit ., pp . 133-134 . ;*** *Choniates (Nicetas)* ***: Historia ., pp . 541-542 . ;*** *Smpad :* ***The Armenian chronicle of the constable S M Pad (1208-1276) Royal Historians , English trans. By Sirarpie Der Nersessian in Dumbarton Oaks Paper No . 13 , 1959 , p . 154 .***

ابن الأثير : **المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٤٨** . ؛ ابن شداد : **المصدر السابق ، ص ١٢٥** . ؛ أبو شامة : **المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥٥-١٥٦** . ؛ الأصفهاني : **المصدر السابق ، ص ٢٦٠-٢٦٣** . ؛ابن العبري : **تاريخ الزمان ، ص ٢١٧-٢١٨** . ؛ الذهبي : **سير أعلام النبلاء ، جـ ٢٢ ، ص ٢١٠** . ؛ ابن الفرات : **المصدر السابق ، مجـ ٤ ، جـ ١ ، ص ٢١٥** .

بالحصانة والقوة ويصعب أفتحامها [١] وبذلك يكون الإمبرطور فردريك قد نجح فى الاستيلاء على قونيه وهى المدينة التى فشل فى الاستيلاء عليها أباطرة الامبراطورية البيزنطية العظام أمثال ألكسيوس الاول كومنين وحنا الثانى ومانويل وغيرهم ، كما سنرى ذلك عند تعرضنا للنشاط البيزنطى فى آسيا الصغرى .

وكان السلطان قلج أرسلان الذى كان قد لجأ إلى قلعلة قونية ، قد حمل ابنه قطب الدين مسئولية ما حدث ، وفى محاولة منه لمعالجة الموقف عرض الصلح على الامبراطور فردريك ووعده بالخضوع لسيادته والمحافظة على الهدنة بين الطرفين وتقديم كل ما يحتاجه الجيش الالمانى ، فوافق الامبراطور فردريك على ذلك لأنه لم يكن راغباً فى البقاء فى قونيه [٢].

وهنا نلاحظ أن المؤرخين المسلمين قد أشاروا إلى أن الألمان بعثوا إلى قلج أرسلان بالهدايا وطلبوا فيه الهدنة فهادنهم وقالوا له : " إنا لم نصل لأخذ بلادك ، وانما خرجنا لأخذ ثأر البيت المقدس " [٣].

وأيا كان البادىء بطلب الصلح فقد كان الطرفان فى حاجة إلى هذا الصلح فالإمبراطور فردريك بربروسا قبل هذا الصلح لأنه لا يريد أن يدخل فى حروب جانبية من الممكن أن تثنيه عن هدفه وهو إنقاذ بيت المقدس . أما السلطان قلج أرسلان فقد تحرج موقفه بعد دخولهم قونية وعدم مقدرته على التحكم فى اولاده .

Cahen : ***op . cit ., pp . 29-30 . ;*** *Pasdermadjan (H) :* ***Histoire de l'Armenie ., p . 209 . ;*** *Previte :* ***op . cit ., p . 531 . ;*** *Jobnson :* ***op . cit ., pp . 112-113 . ;*** *Jorga :* ***op . cit ., p . 166 .***

(5) Jorga : ***op . cit ., p . 166 .***

(6) Eracles : ***op . cit ., pp . 542-543 . ;*** *Choniates (Nicetas)* ***: Historia ., p . 30 . ; Jobnson : op . cit ., p . 113 .***

[٣] ابن الفرات : **المصدر السابق ، مجـ ٤ ، جـ ١ ، ص ٢١٥** . ؛ ابن واصل : **المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣١٨-٣١٩** . ؛ ابن الأثير : **المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٤٨-٤٩** .

وكان أن أبرمت المعاهدة بين الطرفين فى مايو ١١٩٠م (ربيع الثانى ٥٨٦هـ) نصت على أن يمتنع الترك من مهاجمة الالمان وتفتح الاسواق التركية أمام الجيش الالمانى وعلى ان يقوم تعاون بين الطرفين ضد صلاح الدين الايوبى لتقسيم الممتلكات الايوبية [١].

كما طلب الالمان من قطب الدين قلج أرسلان أن يأمر رعيته بالكف عنه وأن يسلم إليهم جماعة من الاسرى الأتراك كرهان لحماية الجيش الالمان من اجل منع هجوم التركمان على الجيش الالمان أثناء زحفهم إلى بلاد الأرمن فى قليقية . وانتهز قطب الدين هذه الفرصة للتخلص من بعض المناوئين له فى الحكم والذين كان يكرههم فسلم إليهم ٢٥ أميراً ليكونوا فى صحبتهم [٢].

وعلى أية حال ، لم يمكث فردريك طويلاً فى داخل أسوار مدينة قونية ولكنه أجاز لجيشه أن يخلد إلى الراحة فترة من الزمن فى حدائق ميرام الواقعة بالأرباض الجنوبية للمدينة [٣] . ثم تحرك الجيش الالمانى من قونية من ٢٦ مايو ١١٩٠ فى اتجاه مملكة أرمينيا الصغرى (قيليقية) وبالرغم من الاتفاق المعقود بين الجانبين السلجوقى والالمانى ، وبالرغم من التسهيلات التى فتحها قلج أرسلان للإمبراطور فردريك ، فقد تعرض الجيش الالمانى لهجمات عديدة من قبل الاجناس التركية بغرض السلب والنهب الامر الذى أغضب فردريك بربروس فقبض على الادلاء والرهائن الذين سيرهم قلج

---

(2) Eracles : ***op . cit ., T.II . p . 134 . ;*** *Choniates (Nicetas)* ***: op . cit ., p . 543 . ;*** *Grousset :* ***op . cit ., vol .3 . p . 41 . ;*** *Cahen :* ***op . cit ., p . 30 .***

[٢] ابن الأثير : **المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٤٩** . ؛ أبو شامة : **الروضتين ، ص ١٥٦** . ؛ ابن شداد : **المصدر السابق ، ص ١٢٥** . ؛ ابن الفرات : **المصدر السابق ، مجـ ٤ ، ص ٢١٥** .

Cahen : ***op . cit ., p . 30 . ;*** *Gabriele :* ***Arab historians of the crusade . , p . 210 .***

(4) Runciman : ***op . cit ., vol . 3 p . 15 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٨-٣٩** .

أرسلان وابنه قطب الدين معه ، وقيدهم بعد ان أخذ ما معهم ووضعهم فى الأسر ، فهدد بإعدامهم فمنهم من فدى نفسه ، وخرج نظير فديه ضخمة ، ومنهم من مات فى الأسر [١].

ومما يجدر ذكره أن السلطان قلج أرسلان وابنه قطب الدين أرسلا إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى بعد رحيل الإمبراطور فردريك بربروسا من قونية متجهاً إلى قليقية برسالة يعتذران له فيها عن عدم قدرتهما على منع فردريك من عبور بلادهما وإنهما أجبرا على ذلك لعجزهما عن صده [٢] ويدل هذا على حرص قلج أرسلان على التبرىء من تهمة معاضدته للالمان ضد المسلمين . والحقيقة أن هذا يؤكد ما ذكر عن قلج أرسلان من أنه كان " ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة " [٣].

على أية حال ،وصل الجيش الالمانى إلى لارندا على حدود قيليقية فى ٣٠ مايو سنة١١٩٠م [٤] وبمجرد وصول الجيش الالمانى من حدود قيليقية حتى بادر حاكمها ليو الثانى الأرمنى (١١٥٨-١٢١٩م) أمير أرمينيا الصغرى بالترحيب بالجيش الالمانى وأمدهم بالمؤن والزاد والعتاد اللازم وهداهم الطريق [٥].

---

[١] ابن واصل : **المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣١٨-٣١٩ .** ؛ أبو شامة : **الروضتين ، ص ١٥٦ .** ؛ ابن الأثير : **المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٩ .** ؛ النويري : " **نهاية الأرب في فنون الأدب** " **جـ ٨ ، ص ٣٢٤ .**

[٢] سبط بن الجوزى : **المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٤٠٣ .** ؛ الأصفهاني : **المصدر السابق ، ص ٣٩٨** . ؛ ابن واصل : **المصدر السابق ،مجـ ٤ ، جـ٢ ، ص ٣١٩ .**
*Gabriele : **op . cit ., p . 211 .***

[٣] ابن العبري : " **تاريخ مختصر الدول** " **، ص ٢٢٣ .**
*(3) Jobnson : **op . cit ., p . 113 . ; Runciman : op . cit ., vol . 3 p . 15 .***
رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٩ .**

[٥] ابن الفرات : **المصدر السابق ، مجـ ٤ ، جـ ١ ، ص ٢١٦** . ؛ ابن خلدون : " **العبر وديوان المبتدأ والخبر** " **جـ ٥ ، ص ٣٧٤** . ؛ الأصفهاني : **المصدر السابق ، ص ٣٩٠** . ؛ عثمان الترك : **صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية ، ص ١٤٣** . ؛ سعيد عاشور : " **سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى** " **ص . ١٤٤** . ؛ إستارجيان : **تأريخ الأمة الأرمينية ، ص ٢٢٠** . ؛ فؤاد حسن حافظ : **تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتي اليوم ، ص ١٥٧ .**
*Lang : **op . cit ., p . 202 . ; Gabrieli : op . cit ., p . 210 .***

وبعد ذلك قاد الامبراطور فردريك الجيش الالمانى عبر دروب ومسالك جبال طوروس دون أن يصادف مقاومة نحو الساحل الجنوبى إلى سلوقية ، وهبط الجيش الالمانى الضخم إلى سهل سلوقية فى ١٠ مايو ١١٩٠م وتجهز لعبور نهر كاليكادنوس *Calycadnus* السالف ، كيما يدخل المدينة وسبق الجيش فى المسير الامبراطور فى حرسه ، فنزلوا إلى حافة النهر وما حدث عندئذ ليس معروفاً وجه التأكد فقد توفى الإمبرطور فردريك الأول بربروسا غريقا فى هذا النهر بقيليقية فى العاشر من شهر يونية سنة ١١٩٠م [١] . ولقد كان هذا النهر عريض ومياهه تتميز بجريانها السريع [٢] . ولقد أشار سبط بن الجوزى أن الملك فردريك بعد أن وافته المنية " سلقوه فى خل وحملوا عظامه ليدفنوها فى القدس" [٣].

واختلفت أراء المؤرخين فى تعليل أسباب وفاة فردريك بربروسا المفاجئة ، ففسر البعض أنه أثناء عبور الجيش الالمانى النهر فى منتصف النهر فقد الامبراطور فردريك قدرته وقوته بسبب المجهود الشاق الذى بذله

---

(5) Runciman : ***op . cit ., vol . 3 p . 15 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٩-٤٠ .**

Previte : ***op . cit ., p . 531 . ;*** *Kingsford (C.L) :* ***op . cit ., p . 310 . ;*** *Painter :* ***The third crusade in setton ., p . 49 . ;*** *Austinlanpool (M.A) :* ***op . cit ., p . 412 . ;*** *Boase and others :* ***op . cit ., p . 18 . ;*** *Jorga :* ***op . cit ., p . 166 . ;*** *Morgan :* ***op . cit ., p . 181 . ;*** *Lang :* ***op . cit ., p . 202 . ;*** *Gabrieli :* ***op . cit ., p . 210 . ;*** *Pasdermadjan (H) :* ***op . cit ., p . 210 . ;*** *Maalouf :* ***op . cit ., p . 207 . ;*** *Rice (T.T) :* ***The Seljoukes in Asia Minor ., p . 66 .***

بروكلمان : **تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٠٤** . ؛ علية عبد السميع الجنزوري : **الثغور البرية الإسلامية علي حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطي ، (القاهرة – ١٩٧٩ م) ، ص ٥٣-٥٤** . ؛ حسين محمد عطية : " **إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون** ،(١١٧١-١٢٦٨م / ٥٦٧-٥٦ هـ) (الإسكندرية –١٩٨٩م) . **ص ٢٢٣ ، حاشية ٢١٢** . ؛ فولوفانغ : **القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٢٤-١٠٧** . ؛ فؤاد حسن حافظ : **المرجع السابق ، ص ١٥٧** . ، إستارجيان : **المرجع السابق ، ص ٢٢٠** .

(6) Boase and others : ***op . cit ., p . 18 .***

[٣] سبط بن الجوزى : **المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢٥٨** .

فسقط وسط الماء ولم يلحقه حرسه الخاص فمات [١] . ويري البعض الآخر أن قدم فرسه زلقت أثناء عبوره النهر فقذف به إلى الماء بسبب ثقل أسلحته [٢] . ويشير البعض الآخر أن فردريك دخل النهر يريد الاغتسال فغرق [٣] وتشير بعض المصادر العربية إلى أن فردريك بربروسا أراد إنعاش نفسه بالاستحمام فى مياه نهر السالف فاستحم فى ماء ذلك النهر ، فأصابته برودة الماء بمرض مات على أثره بعد أيام قلائل [٤] . كما تشير بعض المصادر الاخرى أنه عندما عبر القوات الالمانية النهر ألتطم الموج بهم فطلب الملك موضعاً يعبر منه وحده . فدخل فى مخاضة قوية فاختطفه تيار الماء واصطدم بشجرة شجت رأسه ، فاستخرجوه وهو فى آخر رمق وهلك [٥].

ومهما تعددت أسباب موت فردريك بربروسا فإن هذا لا يغير من حقيقة موته فى هذا النهر ، والشىء الثابت هو أن فردريك توفى دون تحقيق هدفه الذى خرج من اجله وهو المشاركة فى استعادة بيت المقدس من المسلمين .

وكانت وفاة الامبراطور فردريك هى بداية النهاية لهذه الحملة،فحملته قد عانت الكثير أثناء سيرها الشاق عبر آسيا الصغرى فالعديد من الجنود الالمان لقوا حتفهم وجانباً كبيراً من العتاد قد تبدد وكان الالمان ممن تنهار روحهم المعنوية إذا اختفى قائدهم لتعلقهم الشديد بعبادة القائد فقرر بعض الأمراء أن

---

(1) Eracles : ***op . cit ., T.II . p . 137 .***

(2) Choniates (Nicetas) ***: Historia ., p . 545 .***

(٣) ابن الأثير : **المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٤٩** . ؛ ابن خلدون : **المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٧٤** .

Gabrieli : ***op . cit ., p . 210 .***

(٤) ابن شداد : **المصدر السابق ، ص ١٢٥** . ؛ أبو شامة : **الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٥٥** . ؛ سبط بن الجوزى : " **مرآة الزمان** " **جـ ٨ ، ص ٢٥٨** .

(٥) عماد الدين الأصفهاني : **المصدر السابق ، ٣٩١** . ؛ ابن واصل : **المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٩** .

يعودوا بأبنائهم إلي أوربا ، واستقل أمراء آخرون من سيلوقية أو طرسوس إلى مدينة صور [١].

ويرى المؤرخ المحدث كاهن إنه لم يكن لقلج أرسلان ولا لابنه قطب الدين دور فى الحادثة التى حلت بالامبراطور فردريك فى يونيه ١١٩٠م بقيليقية ولا أى دور فيما قاساه الجيش الالمانى فى قيليقية[٢].كما يرى البعض أن موت الإمبراطور فردريك بربروسا قد رفع عن البيزنطيين عبئا ثقيلاً [٣].

اختلف الالمان على من يخلف الامبراطور فردريك فى قيادته الجيش ، حيث مال بعضهم إلى تولية ابنه فردريك السوابى – والذى تم انتخابه بالفعل قائداً لهم – ، بينما مال بعضهم الآخر إلى تولية أخ لفردريك السوابى أكبر منه وهو هنرى السادس ، ولكن من الصعوبة بمكان تولية قيادته الحملة لأنه كان يرعى شئون الامبراطورية الرومانية المقدسة أثناء فترة غياب والده وأخوه فى الشرق [٤].

---

(6) Runciman : ***op . cit ., vol . 3 p . 16 .***

رنسيمان : **الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٤١ .**

Michaud (M) : ***op . cit ., vol II p . 384 . ;*** *Mayer :* ***op . cit ., pp . 138-139 . ;*** *Grousset :* ***op . cit ., T.3 . p . 17 . ;*** *Boase and others :* ***op . cit ., p . 18 .***

حسين عطية : **المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .**

(7) Cahen : ***op . cit ., p . 30 .***
(8) Jorga : ***op . cit ., p . 166 .***

[٤] ابن الأثير : **الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٤٩ .** ؛ سبط بن الجوزي : **مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٥٨ .** ؛ ابن خلدون : **المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٧٤ .** ؛ عماد الدين الأصفهاني : **المصدر السابق ، ٣٩١ .**

Painter : ***The third crusade in setton ., p . 49 . ;*** *Michaud (M) :* ***op . cit ., vol II p . 385 . ;*** *Jobnson :* ***op . cit ., pp . 114-115 . ;*** *Gabriele :* ***op . cit ., p . 210 .***

ومهما يكن من أمر ، فإن ليو الثانى الارمنى ما إن أحس بضعف الجيش الالمانى وما حل به من التفكك والضعف بعد موت فردريك حتى أثر ألا " يلقى بنفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر وهو إفرنج وهو أرمينى فاعتصم هو عنهم فى بعض قلاعه المنيعة " [١] . ومن ناحية أخرى أرسل ليو الثانى (الكاغيكوس) إلى صلاح الدين رسالة يخبره بوفاة فردريك بربروسا شارحاً له حالة الجيش الالمانى عقب وفاة إمبراطورهم وما أصابهم من ضعف [٢].

وحقيقة الأمر أن ليو الثانى أمير أرمينية كان يأمل فى أن يتوج ملكاً على أرمينية الصغرى حتى لا يبدو فى مكانه أقل من مكانه الأمراء الصليبيين ببلاد الشام ويبعد عنه أطماع البيزنطيين ، وعند وفاة فردريك أثر ذلك فى ليو تأثيراً عميقاً فى شعبه وتحطمت آماله فى الحال للوصول إلى التاج الملكى[٣].

وعند مسير بقايا الحملة إلى أنطاكية حل بها وباء شديد ذهب ضحيته كثير من رجالها ووصلت البقية الباقية إلى انطاكية فى ٢١ يونية سنة ١١٩٠ م " وكأنهم قد نشبوا من القبور " [٤] ويتهكم المؤرخون المسلمون على

---

[١] ابن شداد : **المرجع السابق ، ص ١٢٤ .**

[٢] **نص رسالة الكاغيكوس إلي صلاح الدين . انظر** : ابن شداد : **المصدر السابق ، ص ١٢٤** . ؛ ابن واصل : **المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٠** . ؛ عماد الدين الأصفهاني : **المصدر السابق ، ص ٢٦٢-٢٦٣** . ؛ ابن شداد : **المصدر السابق ، ص ١٥٥** . ؛ ابن الفرات : **المصدر السابق ، مجـ ٤ ، ص ٢١٦-٢١٩** . ؛ محمد ماهر حمادة : **المرجع السابق ، ص ١٨٣-١٨٦** .

*Rohricht : **op . cit ., No . 694 . p . 185 .***

*(4) Boase and others : **op . cit ., p . 18 .***

عثمان الترك : **المرجع السابق ، ص ١٤٤-١٤٥** . ؛ إستارجيان : **المرجع السابق ، ص ٢٢٠** .

[٤] ابن الأثير : **المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٤٩ .**

*Gabriele : **op . cit ., p . 210 . ;** Painter **: op . cit ., p . 49 .***

جيش فردريك السوابى الزاحف على انطاكية بأنه كان " أكثرهم حملة عصى وركاب حمير ، غير عارفين بطريق ، ولا متحفظين فى مسير الناس يلتقطونهم ويتخطفونهم " [١].

ومهما يكن من أمر ، فإن الانتصارات التى حققها بربروسا والصراع الذى حدث لسلطنة سلاجقة الروم من خلفاء قلج أرسلان قد أمهلت اليونانيين وحمتهم من الغزوات التركية المستمرة لأنه لم يكن هناك ما يوقف هؤلاء وطموحاتهم [٢] ، حتى ان البعض يرى للضربات المتتالية التى كالتها الفروسية الاوربية للاتراك السلاجقة خاصة وللمسلمين عامة تدين الدولة البيزنطية بطول سلامتها مدة ثلاثة قرون أخر [٣].

ونصل إلى القول إلي أنه نظراً لأن آسيا الصغرى كانت معبراً لثلاث حملات صليبية إلى بلاد الشام ، فقد بلغت سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى أهمية كبري في فكر السلطان صلاح الدين الايوبى ، لذا عزم علي ضمها إلى بلاده ، لأن من يمتلكها يستطيع أن يمنع أى قوات صليبية قادمه إلى بلاد الشام عبر أراضيها ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون تنفيذ هذا المشروع [٤] . ولو امتد العمر بصلاح الدين وقيض له ضم سلطنة سلاجقة الروم وأصبح فى مواجهة الدولة البيزنطية ربما تغيرت الخريطة السياسية لتلك المنطقة فى العصور الوسطى .

---

[١] عماد الدين الأصفهاني : **المصدر السابق ، ص ٣٩٥** . ؛ أبو شامة : **الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٥٦** . ؛ ابن واصل : **المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢-٣٢٣** .

(1) Vryonis ***: The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor . , p . 128 .***

[٣] فشر (هـ . أ . ل) : **تاريخ أوربا في العصور الوسطي ، (القاهرة – ١٩٦٦م) ، جـ ١ ، ص** ١٨٤ .

[٤] ابن الأثير : **الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٩٥-٩٦** . ؛ ابن كثير : " **البداية والنهاية** " **، جـ ١٣ ، ص ٢** .

تأسيس الإمارات الصليبية فى بلاد الشام

أولاً : تأسيس إمارة الرها :

بعد الاستيلاء على مرعش انفصل بلدوين بقواته قاصداً الرها واعتمد على العناصر المسيحية التى كانت تمثل غالبية سكانها من الأرمن والذين نظروا إليه على أنه المحرر لهم من حكم السلاجقة المسلمين ، ونظراً لأن حاكمها كان مكروهاً من المسلمين والمسيحيين على السواء فقد حاول أن يتفق مع بلدوين عى اقتسام حكمها إلا أن مسيحيى الرها دبرزا مؤامرة لقتله وبذلك خلصت المدينة لبدلون التى دخلها فى فبراير ١٠٩٨م / ٤٩٢ هـ وأعلن قيام أول إمارة صليبية فى الشام فى مارس ١٠٩٨ م .

ثانياً : تأسيس إمارة أنطاكية

اتجهت قوات بوهيموند بعد مرعش نحو أنطاكية مستخدمة الطريق السريع Quick Road ومعه باقى أمراء الحملة الصليبية واستطاعوا الوصول للمدينة وحاصروها واستنجد حاكمها ياغى بأمراء المسلمين فى حمص ودمشق وبالخليفة العباسى ولكن استغاثاته ذهبت هباء ، وخشى من تآمر مسيحى المدينة ضده فأخرج الرجال خارج أسوارها وتحفظ على النساء والأطفال إلا أن الرجال انضموا للصليبيين وأمدوهم بالأسرار الخاصة بالتحصينات ، وظل حصار المدينة ما بين ٧ – ٩ شهور حتى ١٠٩٨م

وحاول ياغى أن يخفف من الحصار بمهاجمة جند الصليبيين ولكنه فشل وعاد للمدينة وتحصن بها بينما دارت مفاوضات بين الفاطميين (الذين كانوا على عداء مع السلاجقة) والصليبيين على اقتسام بلاد الشام وعملت القوى الإسلامية الأخرى بأمر التحالف المشين وحاول مساعدة أمير أنطاكية ياغى إلا أن المدينة سقطت فى مايو ١٠٩٨ م ليعلن قيام الإمارة الصليبية الثانية

ثالثاً : تأسيس إمارة بيت المقدس (مملكة بيت المقدس)

لم يكن الطريق إلى بيت المقدس سهلاً لأن الساحلية محصنة وكان الصليبيون يرغبون فى الوصول إلى بيت المقدس بسرعة بعد أن طال بهم الوقت منذ خروجهم من أوروبا عام ١٠٩٦م ولكن القوى السياسية فى بلاد الشام من حكام المسلمين ساعدتهم على تخطى هذه الصعاب لأنهم لم يتحدوا فى مواجهة الصليبيين بل آثروا السلامة ودخل معظمهم فى تحالف مع الصليبيين مثل أمير حماة وحمص وطرابلس الشام ، وسلكت الحملة طريق البقاع وكان حكام المدن يطلبون الصلح وأهل المدينة يهجرونها تاركين مدنهم عامرة بالمؤن التى يستولى عليها الصليبيون وتجمعت القوات الصليبية فى حصارها لبيت المقدس الذى استمر أكثر من أربعين يوماً ولم يمنعهم عن حصارها سابق اتفاقهم مع الفاطميين (وهذا من الدروس المستفادة فى عدم التفريط فى حقوق المسلمين والتحالف مع أعدائها !!) وسقطت المدينة صباح الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩م ووضعوا سيوفهم فى رقاب من بها من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا لمساعدة الصليبيين والذين احتموا بالمسجد الأقصى وسالت الدماء أنهاراً فى طرقات القدس وبلغ عدد القتلى ما بين ٦٠ ألفاً ومائة ألف

، واستولى الصليبيين على كان بالمسجد الأقصى من قناديل فضية وأموال وبذلك تكون الحملة قد حققت أغراضها فى الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين واكتفى قائد الحملة جودفرى بلقب حامى القبر المقدس ، وبعد أن قتل جودفرى سنة ١١٠٠م استدعى شقيقه بلدوين من إمارة الرها ليحل محله بعد أن عين على الرها أحد أقاربه وتوج بكنيسة العذراء ببيت لحم فى ٢٤ ديسمبر ١١٠٠م / صفر ٤٩٤هـ ليكون أول ملك صليبى على بيت المقدس .

ثانياً : تأسيس إمارة طرابلس :

عهد بلدوين أول ملك على بيت المقدس إلى ريموند بفتح طرابلس الشام فتمن من فتح طرطوس ١١٠٢م / ٤٩٥ هـ بعد مساعدة من أسطول من البحر واتخذ منها ريموند قاعدة للاستيلاء على طرابلس التى كان أميرها ابن عمار من بين الأمراء المسلمين الذين تعاونوا مع الصليبيين (وهذا جزاء المتآمرين مع أعداء بلادهم) واستنجد ابن عمار بأمراء حمص ودمشق إلا أن ريموند نجح فى هزيمة هذا الحلف وقتل منهم نحو ٧ آلاف ونجح فى الاستيلاء على جبيل فأمكنه حصر طرابلس وجبيل وقطع عنها الإمدادات التى تصلها من المدن الإسلامية المجاورة .

وحاول حاكم طرابلس أن يفك الحصار عن مدينته وقام بهجوم مضاد وجرح فيه ريموند وقتل سنة ١١٠٥م / ٥٠٠ هـ وخلفه فى قيادة الصليبيين وليم جوردان الذى أحكم الحصار على طرابلس وساعدته الدولة البيزنطية بالرجال والسلاح وظلت المدينة تقاوم ثلاث سنوات حتى استسلمت فى ١٢ يولية ١١٠٩م / ذى الحجة ٥٠٣ هـ وبسقوط طرابلس تم للصليبيين تأسيس الإمارة الصليبية الرابعة والأخيرة بالشام .

تدريبات على الفصل الثالث

السؤال الأول : **قم بقراءة العبارات الآتية وبدائل إجابات كل منها جيداً ثم ظلل الإجابة الصحيحة فقط في ورقة إجابتك**

١- سقطت مدينة نيقية في أيدي الصليبيين بعد حصار دام

(أ.ست أسابيع- ب.سبع أسابيع- ج. ثمانية أسابيع – د. تسعة أسابيع)

٢- سقط الإمبراطور كونراد الثال صريع المرض في مدينة

(أ.إفسوس- ب. اللاذقية- ج.قونية – د.هرقلة)

السؤال الثالث: **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة**

١- – استولى الصليبيون على مدينة قونية في أغسطس ١٠٩٨م.

٢- اتسمت الحملة الصليبية الثالثة بالفردية

٣- دوق إقليم اللورين وقت قيام الحملة الصليبية الأولى هو جودفري

الفصل الرابع
الجبهة الإسلامية ودورها
فى التصدى للصليبيين

أهداف الفصل الرابع

يهدف هذا الفصل إلى التعرف علي دور المسلمين في مقاومة الوجود الصليبي ومحاولة استرداد الإمارات الصليبية التي تكونت في بلاد الشام

حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين :
الكفاح الشعبى ضد الصليبيين :

كانت الشعوب الإسلامية أسبق من حكوماتها فى حمل لواء الجهاد والكفاح ضد الغزو الاستعمارى الذى تخفى وراء صليب المسيح حيث أخذت شعوب المسلمين تنادى حكوماتها بضرورة النهوض لملاقاة الأعداء الغزاة المعتدين واستنقاذ أراضى المسلمين . وفى بغداد حاصرت الجماهير الخليفة العباسى وطالبته بدعوة زعماء المسلمين للتجمع والنهوض ، وقام خطباء المساجد ورجال الدين فى عواصم الإسلام بالدعوة إلى الكفاح وخرج المتطوعين (وهم الذين نسميهم اليوم الفدائيين) أفراد وجماعات يحاربون العدو ويهاجمونه حيثما استطاعوا .

وهكذا كانت الجماهير هى التى نهبت أولى الأمر إلى ضرورة النهوض لمواجهة الخطر وبرز كثير من دعاة المسلمين الذين قضوا حياتهم يخطبون فى المساجد والأسواق داعين الناس إلى الجهاد ويحدثنا المؤرخون عن ألوف المتطوعين الذين كانوا يخرجون من بيوتهم ليجاهدوا فى سبيل الله دون أجر بل دون النظر إلى مكافأة ، وكانت جماعات الفدائيين المسلمين تنقض على جيوش الصليبيين فتقتل وتأسر حتى دخل الرعب قلوب الصليبيين ولا نبالغ إذا قلنا أنه لولا جهود الجنود المجهولين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية ما تحقق النصر ولا استطاع القواد بجيوشهم المنظمة كسر شوكة الصليبيين والقضاء عليهم .

أشار ابن الأثير إلى بواد هذه الحركة الشعبية الإسلامية فى حوادث سنة ٤٩٢ هـ عندما ذكر ما نصه " ... وورد المستفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى أبى سعد الهروى ، فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا فى الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا

وبكوا وأبكوا ، وذكر ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد .. " [1]

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس فى العالم العربى الإسلامى بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق وسرعان ما تحولت إلى حركة رأى عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأى والمفكرون وفى رحم هذه الحركة القوية تبلورت المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين .

الكفاح المنظم العسكرى ضد الصليبيين

أولاً : الدور الأول بقيادة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود :

عماد الدين زنكى وجهاده فى تكوين جبهة إسلامية متحدة :

يعتبر من أبرز زعماء المسلمين الذين دعوا لقيام جهة إسلامية تتوحد فيها الجهود لقتال الصليبيين وطردهم وما أن استقر فى إمارته (الموصل ٥٢١هـ / ١١٢٧م) حتى أخذ سلطان الفرنجة الصليبيين ونفوذهم يتداعى ولم يكتف فى سياسته بالقول بل وضعها موضع التنفيذ حيث بسط أولاً نفوذه على القلاع والمدن المجاورة وأخضعها لسيطرته وضم نصيبين والخابور وحران حتى يكون آمناً فى زحفه على الشام وهادن الصليبيين فترة حتى يتمكن من فرض نفوذه على ما تبقى من الحصون والقلاع المجاورة له وكان الصليبيون يطمعون فى الاستيلاء على حلب وحين توجه إليها بجنوده وأصبح على مقربة منها راسله أهلها يستغيثون به ويعلنون طاعتهم له فضم إليه حلب وشحن قلعتها بالجند والمعدات سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨م ، وكان ضمه حلب ضربة للصليبيين لما يترتب على ذلك من قطع الصلة بين الرها من جهة وباقى الإمارات الصليبية بالشام من جهة ثانية كما استطاع ضم حماة ٥٣٣هـ / ١١٢٩م وأستولى على بعلبك وبعض الحصون شرق إمارة أنطاكية سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م .

وأدرك الصليبيون ما كان يهدف إليه عماد الدين فى تكوين جهة إسلامية ضدهم فعقدوا تحالفاً مع البيزنطيين على مهاجمة حلب لصرف عماد الدين عن تحقيق مشروعاته ولكن ما لبث ذلك أن انهار هذا الحلف بعد أن كشف كل فريق عدائه للآخر ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ، وانتهز ذلك عماد الدين لاستئناف جهاده ضد الصليبيين وتظاهر بأنه يسير جيوشه نحو ديار بكر لفتح بعض حصونها وحين اطمأن الصليبيون بأنه غير قادر على المسير إليهم خرج أمير الرها الصليبى وعبر الفرات للشام وعلم بذلك عماد الدين الذى أسرع بجنده إلى الرها واقتحمها وظل يقاتل داخلها ٢٨ يوماً إلى أن سقطت عنوة فى ديسمبر ١١٤٤م / ٥٣٩هـ وتملك قلعتها وبهذا نجح فى أن يسترد أول إمارة أقامها الصليبيون فى الشرق الإسلامى بعد أن بقيت فى حوزتهم نحو نصف قرن .

والحقيقة أن ما قام به عماد الدين من أعمال لم يستطع جميع أمراء الصليبيين بالشام من هدمه كما أنه بدأ حركة الجهاد بشكل واقعى وكان من أبرز نتائج سقوط الرها خوف أوروبا وقادتها على انهيار الإمارات الصليبية بالشام . (٢)

نور الدين محمود ومواصلة بناء الجبهة الإسلامية :

أدرك نور الدين محمود أن تلك الجزئية التى حققها أبوه عماد الدين زنكى بين شمال العراق وشمال الشام لا تكفى لتحقيق آمال المسلمين فى الحرية وأن طرد الغزاة الصليبيين من الشام لا يتأتى إلا عن طريق تحقيق جبهة قوية إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل .

وكانت العقبة الكبرى فى طريق الجبهة هى دمشق التى كان يطمع الصليبيون فى الاستيلاء عليها والتى أصم حكامها الإنفصاليين آذانهم عن قضية الوحدة بل أنهم لم يتورعوا عن محالف الصليبيين ضد إخوانهم

المسلمين لحرصهم على مراكزهم وسلطاتهم ولكن تيار الوحدة كان أقوى من أن يستطيع حاكم إنفصالى وقفه حيث ثار أهل دمشق على حكامها الخونة وساعدوا نور الدين محمود على دخول مدينتهم من جهة الشرق حتى تمكن من امتلاكها واستقرت الأمور بيده سنة ١١٥٤ م وبذلك ازدادت الجبهة الإسلامية قوة ولم يبق خارجها سوى مصر ليستكمل نور الدين تكوين الجبهة ويحيط بالإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب .

ولم يكن الصليبيون أقل تطلعاً من نور الدين إلى امتلاك مصر كى يعزلونها عن العالم الإسلامى ولقطع طريق التجارة بينها وبين دول العالم الإسلامى ولكى يمنعوا قيام الجبهة الإسلامية المتحدة ، وفى سبيل تحقيق أهدافهم استولوا على وادى عربة ٥٠٩هـ / ١١١٥م ثم سيروا حملة وصلت إلى جنوب سيناء ، ثم كرروا محاولتهم ٥١٢هـ / ١١١٨م فى غزو مصر بحملة من الطريق الساحلية من غزة للعريش ومنها للفرما التى تركها أهلها خوفاً من الصليبيين وأحرقوا المسجد الجامع بالمدينة وخربوا مساجدها ووصلوا تنيس (على بحيرة المنزلة) إلا أن بلدوين ملك بيت المقدس الذى كان على رأس الحملة مرض وانصرف عائداً وقبل وصوله العريش توفى ورمى أصحابه بأحشائه فى بحيرة البردويل (التى تسمت باسمه) وهى على بعد ٩٠ ك. م شرق بور سعيد .

وجاءت الفرصة لكل من نور الدين محمود ومملكة بيت المقدس الصليبية للتدخل فى شئون مصر وتحقيق اهدافها حيث كانت الخلافة الفاطمية تعانى آلام الموت البطئ ويتنافس على السيطرة بالحكم فيها كل من شاور وضرغام حيث استنجد الأول بنور الدين محمود والثانى بالصليبيين منذ عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م واستمر المعارك على أرض مصر بين الجيوش النورية والصليبية حتى تمكن أسد الدين شيركوه بمساعدة

المصريين من أن ينهى المعارك لصالح نور الدين محمود ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م وفشل الصليبيون الذين اضطروا للانسحاب من مصر خوفاً من هزيمة محققه على أيدى قوات نور الدين محمود وخوفاً من هجوم نور الدين على بقايا الصليبيين بالشام وأصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة لدولة نور الدين محمود وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد من الفرات للنيل وعلى رأسها رجل قوى جمع فى قبضته بين القاهرة ودمشق وحلب والموصل ولم يبق أمامه سوى توجيه جهود المسلمين لطرد الصليبيين . (٣)

ثانياً : الدور الثانى بقيادة صلاح الدين الأيوبى وخلفاءه من الأيوبيين : - صلاح الدين وقيادة حركة الجهاد الإسلامى :

تنقسم حياة الكفاح التى عاشها صلاح الدين فى سبيل تحقيق الهدف الأكبر توحيد الجبهة الإسلامية وطرد الصليبيين إلى مرحلتين :

١- المرحلة الأولى وتشمل الفترة ما بين ١١٦٩م إلى ١١٨٦ م :

(إقامة وتأمين الجبهة الإسلامية)

وخلال هذه المرحلة استطاع صلاح الدين الأيوبى تثبيت حكمه فى مصر ويقضى على الفتن التى ثارت ضده فى الدخل كما أجبر مملكة بيت المقدس وحليفتها الدولة البيزنطية من رفع حصارها على دمياط بعد أن أمده نور الدين محمود بقوات ساعدته فى ديسمبر ١١٦٩م / ٥٦٥ هـ .

ولم يلبث أن اتخذ من الهجوم على المدن الصليبية وسيلة للدفاع فشن هجوماً على الرملة وعسقلان وغزة فى ١١٧٠ فحطم أسوار هذه المدن وقتل عدداً كبيراً من جنودها واستولى على آيلة (إيلات) .

وقام صلاح الدين بأمر من سيده نور الدين باسقاط الخطبة عن آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ١١٧١م وبذلك عادت للعالم الإسلامى وحدته الروحية فى ظل خلافة واحدة هى الخلافة العباسية .

وبعد وفاة نور الدين محمود ١١٧٤م / ٥٦٩هـ انفرد بحكم مصر وضم دمشق ٥٧٠هـ للمحافظة على كيان الوحدة الإسلامية التى جاهد عماد الدين ونور الدين لإقامتها وواجه مؤامرات من جانب حكام حلب وحماة والموصل ووصل بهم الأمر إلى التآمر مع أعداء الإسلام (الصليبيين) ضد صلاح الدين ، وخلال ذلك استطاع الاستيلاء على حمص ١١٧٥م / ٥٧٠ هـ وحاصر حلب وأمرائها الداعين للانفصال ولمواجهة تهديد الفرنجة عاد صلاح الدين إلى مصر وتخلى عن مشروعات الوحدة وانصرف إلى تنظيم الأمور الداخلية وتشييد القلاع والحصون وخلال ذلك لم يتوقف عن مواصلة المعارك

مع الصليبيين فى جنوب الشام فكان يتبادل معهم النصر والهزيمة فقد أصابته الهزيمة أمام جيوش الصليبيين ٧٥٣ هـ / ١١٧٧ م ووقع بعض جنوده فى الأسر إلا أنه بعد أن أعاد تنظيم قواته بمصر عاد وحقق انتصاراً كبيراً عليهم عند حمص مخاضة الأحزان (مرج عيون) بالقرب من بانياس ٥٧٥ هـ / ١١٧٩م ووقع فى يده عدد كبير من الأسرى .

واستغل صلاح الدين نزاع البيت النورى حول السلطة واستطاع تحقيق أهدافه بعد وفاة سيف الدين غازى أمير الموصل ٥٧٦ هـ وإسماعيل نور الدين أمير حلب ٥٧٧ هـ وقرر الخروج لإخضاع حلب والموصل ، ودخل حلب بعد أن حاصرها ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م وفى ذى الحجة ٥٨١ هـ / ١١٨٦م دخلت الموصل فى نفوذ صلاح الدين ، وهكذا حقق اكتمال تكوين الجبهة الإسلامية هدفه الأول لتحقيق حلمه الأكبر لطرد الغزاة من أرض المسلمين .

٢- المرحلة الثانية وتشمل الفترة بين ١١٨٦ إلى ١١٩٢ م

(الجهاد ضد الصليبيين)

بينما كان صلاح الدين يسعى إلى بناء القوة الإسلامية ويوحد صفوف المسلمين لمواجهة خطر الصليبيين الذين زرعوا فى جسم العالم الإسلامى بؤر استعمارية زاد من آثارها السيئة تولى بعض المغامرين الأوروبيين السلطة فيها مثل حاكم الكرك أرناط الفرنسى المغامر التى كانت حماقاته ضد المسلمين سبباً رئيسياً فى استنفار المسلمين للجهاد إذ تعددت حماقات هذا الحاكم بالرغم من عقد هدنة سابقة بين المسلمين والصليبيين حيث انتهك فى ٥٧٧هـ / ١١٨١م الهندنة بتعرضه للقوافل التجارية القادمة من مصر إلى الشام مما أدى إلى توتر العلاقات بين الفريقين ودفعته حماقاته إلى محاولة مهاجمة الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة مرتين الأولى ١١٨١ م وفشل وكرر محاولته الثانية ١١٨٣م / ٥٧٩ هـ حيث حمل سفناً مفككة على ظهور الجمال وقام بتركيبها على ساحل البحر وملأها بالمقاتلين ثم أرسل إلى آيلة سفينة لمنع أهلها من الورود للمياه وأبحر بباقى السفن إلى عيذا بحيث قطع طريق التجارة وخرب ونهب وقتل وأسر ثم واصل الإبحار إلى ساحل الحجاز وكان ذلك مفاجئاً لأهل البحر الأحمر الذين لم يعهدوا فى البحر محارباً إفرنجياً ، وبلغ آنحطاطه الخلقى أن تطاول على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم مما دفع صلاح الدين إلى أن يقسم على قتله بيده أن هو ظفر به وخرج الأسطول المصرى من السويس بقيادة حسام الدين لؤلؤ فانقض على السفينة الرأسية عند آيلة (إيلات) وقتل بحارتها ثم أبحر إلى عيذاب وأدرك السفن الصليبية وهى فى طريقها للحجاز وهى على مسافة يوم من سواحل الحجاز ، وطارد الصليبيين حتى أوقع بأسطولهم وفك أسر التجار المسلمين وقبض على الصليبيين أسرى وذبح بعضهم فى منى ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تحدثهم أنفسهم

بالعدوان على مقدسات المسلمين ، كما أرسل بعضاً من الأسرى فى الأمصار الإسلامية لضرب أعناقهم بها .

وأدرك الصليبيون أن الحرب أصبحت وشيكة بينهم وبين صلاح الدين نتيجة لاعتداءات أرناط وأمثاله والذين لم يحترموا الاتفاقيات أو حرمات المسلمين ، كما أن صلاح الدين عزم على أن يتخذ الخطوة الحاسمة لمواجهتهم وتوجيه ضربة قاسية بعد أن تفرغ هو تماماً للحرب وأعد عدته ونظم جيوشه . (٤)

موقعة حطين

(٤ يوليو ١١٨٧م / ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ)

أخذ صلاح الدين يوجه كل جهوده لحشد كل القوى الإسلامية ، بغية القيام بهجوم شامل ضد الصليبيين ولعل ما حدث سنة ١١٨٦م من إجراء حركة تنظيم داخلية فى دولته بين أفراد أسرته له صلة بذلك ، من ذلك أنه نقل أخاه العادل من حكم مصر إلى حلب وأحل محلاه فى مصر المظفر تقى الدين عمر – ابن أخى صلاح الدين – والأفضل على ابن صلاح الدين ، ولما دب النزاع بين هذين الاثنين تخوف صلاح الدين من أطماع ابن أخيه فأحل محله ابنه الثانى العزيز عثمان ، وتقرر استدعاء تقى الدين عمر إلى دمشق .

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يعمل فيه على تدعيم جبهته ويستعد للمعارك الفاصلة بينه وبين الصليبيين إذ بمملكة بيت المقدس الصليبية ينتابها الضعف فى أواخر أيام ملكها المريض بلدوين الرابع ، والمعروف أنه عندما تولى بلدوين الرابع العرض كان طفلاً صغيراً أبرص ، ومن ثم قام بالوصاية عليه ريموند الثالث كونت طرابلس ، ولما بلغ الملك

بلدوين سن الرشد فى سنة ١١٧٧م تخلى ريمون عن الوصاية ، فير أن ما كان يعانيه الملك من داء البرص جعل حالته الصحية تزداد سوءاً وبات من المحقق أنه لن يعش طويلاً لذلك انعقدت آمال المملكة على ضرورة زواج الأميرة سبيللا – أخت بلدوين الرابع – حتى تضمن ولاية الحكم ، وجرى زواج سبيللا من وليم دى مونتفرات أحد المغامرين الصليبيين الوافدين ، وارتضاه الجميع وريثاً للعرش . غير أن الآمال التى انعقدت على مونتفرات لم تلبث أن تبددت بعد أن مات فى يونيو سنة ١١٧٩م متأثراً بمرض الملاريا بعد أن أنجب منها ابناً يعتبر وريثاً للملكة ، وتزوجت سبيللا للمرة الثانية سنة ١١٨٠م من جاى لوزجنان ، وهم مغامر فرنسى نال إعجاب سبيللا نظراً لما كان عليه من وسامة ، والواقع أن جاى لوزجنان لم يكن إلا صبياً ضعيفاً أحمق نبيلاً صغير الشأن لا يصلح لتولى شون المملكة .

وفى عام ١١٨٣م اشتد المرض على بلدوين الرابع حتى لم يعد بوسعه أن يستخدم ذراعيه وساقيه وكاد بصره أن يتلاشى وبات من الواضح أنه لم يعد قادراً على إدارة مهام الحكم ، وتحت ضغط أمه عهد بالوصاية على العرش غلأى جاى لوزجنان الذى صارت له السلطة التامة على المملكة ، غير أن بلدوين الرابع أدرك سنة ١١٨٥م ضرورة اقصاء جاى لوزجنان عن الوصاية لعدم صلاحيته من جهة ولوقوعه تحت تأثير بارونات المملكة الذين أجمعوا على نقص كفايته من جهة أخرى ، وبعد أن قام بلدوين الرابع بأبعاد جاى ، أرسل إلى ابن خالته ريموند الثال كونت طرابلس يدعوه لتولى إدارة المملكة والوصايا على العرش ، وأوصى بلدوين أن يخلفه على العرش ابن أخته الصغير من وليم دى مونتفرات الذى عرف باسم بلدوين الخامس ، وكان أن أدرك ريموند مدى حاجة الصليبين عندئذ إلى فترة من الهدوء ، يدعمون فيها نفوذهم ويصفون

خلافاتهم الداخلية لذلك بادر إلى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات (١١٨٥ – ١١٨٩ م) .

أما الصليبيون فبعد أن أراح الموت فى مارس ١١٨٥ م الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه المزمن لم تلبث أن تفاقمت مشاكلهم ذلك أن الملك بلدوين الخامس الصغير توفى فى عكا بعد بضعة أشهر من إعلانه ملكاً ، وكانت وفاته فاتحة لباب النزاع بين أمراء المملكة وباروناتها حول من يفوز بعرض المملكة حتى انقسم الصليبيون إلى معسكرين كبيرين أحدهما يؤيد جاى لوزجنان والآخر يؤيد ريموند الثالث كونت طرابلس ونجح جاى فى استمالة البارونات وأرناط صاحب الكرك وهرقل بطريرك بيت المقدس وجرى تتويجه ملكاً ، فأنهى بذلك وصاية ريموند ولم يجد ريموند طريقة لرد اعتباره إلا بالتقرب من صلاح الدين ، وقد أقسم أيضاً أنه لن يبذل مطلقاً الولاء للملك الجديد .

وعلى الرغم من انقسام الصليبيين على أنفسهم فإن ما عقدوه من هدنة مع صلاح الدين كان كافياً لرأب صدعهم والإبقاء على وحدة مملكة بيت المقدس ولكن أرناط صاحب الكرك الذى عرف بالغدر والخيانة لم يلبث أن ارتكب حماقة طائشة ترتب عليها نقض الهدنة ، ففى أوائل سنة ١١٨٧م تعرض لقافلة قادة من مصر فى طريقها إلى دمشق أثناء اجتيازها الشوبك فى حراسة " جماعة صالحة من الأجناد " ، ويبدو أن ما كانت تحمله القافلة من سلع ثمينة ونفائس جعله يغدر بهم بعد أن نزلوا عنده بالأمان فقتل العساكر وحمل التجار إلى قلعته الكرك أسرى ، ولما علم صلاح الدين بخبر القافلة أرسل إليه يطلب أطلاق سراح الأسرى ، ورد ما استولى عليه ولكنه رفض بل لقد بلغ من جرأة أرناط أن رد على رسل صلاح الدين قائلاً : " قولوا لمحمد يخلصكم " ، وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد أرسل صلاح الدين إلى الملك جاى لوزجنان يفيده بما حدث وحاول جاى أن يلزم أرناط

بتسليم الأسرى والمنهوبات ولكن أرناط أعرض عن طلب الملك ، ولما أصر أرناط على عصيانه نذر صلاح الدين دمه وأعطى الله عهداً أن ظفر به أن يستبيح دمه وهكذا انقضت الهدنة بين مملكة بين المقدس الصليبية وصلاح الدين .

أدى نقض الهدنة من جانب الصليبيين إلى أن صارت الحرب أمراً لا مفر منه فاختار صلاح الدين أن يظل فى دمشق وكتب إلى جميع البلاد يدعوهم إلى الجهاد وتعبئة القوات اللازمة وخرج من دمشق فى ١٤ مارس ١١٨٧م وتوجه إلى بصرى لاستقبال قوافل الحجاج خشية غدر أرناط وكان فى الحجاج أخت صلاح الدين فلما وصل الحجاج اشترك بعساكره فى إغارة على أراضى الكرك والشوبك ثم عادوا إلى دمشق ، أما عساكر دمشق وحلب والجزية والموصل وديار بكر فاحتشدوا فى رأس الماء – إلى الشمال الغربى من حوران – وأغاروا على طبرية ووقع الصدام بينهم وبين الصليبيين عند صفورية فى مايو ١١٨٧م انتهى بأن لقى عدد كبير من الصليبيين مصرعه

ولما علم صلاح الدين بما أحرزه المسلمون من انتصار توجه إلى عشترا فى حوران وبلغت عدة جيشه حوالى عشرين ألف جندى منهم فريق من ذوى الأسلحة الخفيفة وفريق مزود بأسلحة ثقيلة وأخذ فى تعيين مراكز الأمراء وطلب ألا يترك كل جيش مكانه ولا يتزحزح جندى عن موضعه وقال : " إذا دخلنا أرض العدو فهذا هو ترتيب جنودنا وهذه هى مواضع قواتنا " وفى يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١١٧٨ خرج صلاح الدين إلى فلسطين وبعد أن أقام خمسة أيام فى الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية ارتحل ونزل غرب البحيرة على سفح الجبل مستهدفاً من وراء ذلك أن يترك الصليبيون مواقعهم عند صفورية والزحف إليه فى اتجاهه غير أن الصليبين ظلوا فى مواقعهم عند صفورية والزحف إليه فى اتجاهه ، غير أن الصليبيين ظلوا فى مواقعهم لم يتحركوا منها ، ثم قام صلاح الدين بمهاجمة طبرية بعد أن ترك جانباً من

الجيش لقاء العدو ولم يلبث أن استولى على المدينة فى ٢ يوليو ١١٨٧م وإن لم يستطع الاستيلاء على قلعتها .

ثارت ثائرة الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية وعقد زعماؤهم مجلساً للحرب فى عكا لبحث الموقف فمنهم من رأى – ومن بينهم ريموند الثالث كونت طرابلس – ان تقوم خطتهم الحربية على التزام الدفاع المطلق عند فورية لأن الجيش الذى يهاجم فى حرارة الصيف اللافحة لن يكون الموقف فى صالحه ولن يكون بوسع صلاح الدين الانتظار طويلاً بقواته الضخمة وسوف ينسحب بعد فترة وجيزة ، غير أن بعض الزعماء – ومن بينهم أرناط – رأوا ضرورة الزحف من صفورية على قوات صلاح الدين فى طبرية ، واتهموا ريموند بالمبالغة فى التخوف من المسلمين وأنه " يريدهم ويمل إليهم " .

وقد نجح أصحاب الرأى الأخير فى إقناع جاى لوزجنان ملك بيت المقدس الضعيف بالزحف على طبرية وهكذا بدأ الجيش الصليبى زحفه فى أوائل يوليو ١١٨٧م فى ظروف بالغة السوء فى فروح الصليبيين المعنوية هابطة وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار خطة السير إلى طبرية بالإضافة إلى حرارة الجو القاسية فى شهر يوليو وصعوبة الطريق الذى بلغ طوله سنة عشر ميلاً .

أما صلاح الدين فإنه لما علم بتحرك الصليبيين غمرته السعادة ، إذا أنه لم يقصد بمحاصرة طبرية والهجوم عليها إلا أن يفارق الصليبيون مكانهم ، وإذ اطمأن لنجاح خطته اتخذ معسكره بموضع قريب من ماء بحيرة طبرية ، وكان اليوم شديد الحرارة وأنهك العطش الصليبيين الذين لم يكن بوسعهم بلوغ الماء لأن المسلمين حالوا دون ذلك . وعندما أدرك الصليبيون التل الذى يعلوا حطين مباشرة وجدوا قمتين لذلك التل بلغ ارتفاع الواحدة منها ٣١٦ متراً ، مما جعل العرب يطلقون عليها قرون حطين ثم ينحدر

التل رأسياً وفى أسفله تقع قرية حطين ثم بحيرة طبرية بمائها الدافق ، ولما تعذر مسيرة الجيش الصليبى بسبب شدة الإنهاك أمر جاى رجاله بقضاء الليل فوق التل وعند ذلك لم يقف المسلمون ساكنون بل أشعلوا فى الأعشاب والأشواك التى تكسو التل وكانت الريح على الفرنجة (الصليبيين) فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان والدخان وحر القتالى .

وعندما أتى صباح يوم يوليو ١١٨٧ (٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ) وجد الصليبيون أنفسهم محاطين بالمسلم إحاطة الدائرة بقطرها ، ولم يلبث الجيشان أن التحما فى معركة حامية بالسهل الواقع جنوب قرون حطين ولقى عدد كبير من الصليبيين مصرعه على الفور بينما وقع آخرون فى الأسر وبدأت قواتهم فى الانهيار بعد أن أضعفها الظمأ الشديد ، وحاول الصليبيون الارتداد إلى أعلى التل ولكنهم تمزقوا شر تمزيق ، وبذلك وقعت الكارثة الأليمة التى تعتبر بداية النهاية للوجود الصليبى ببلاد الشام .

وجرى حمل الأسرى إلى خيمة صلاح الدين وكان من بينهم الملك جاى لوزجنان ، وأرناط صاحب الكرك ، وجيرارد دى ريفورت مقدم الداوية ، وغيرهم من كبار الشخصيات الصليبية فاستقبلهم صلاح الدين فى مخيمه استقبالاً حسناً وأجلس الملك إلى جانبه وأخذ يذكر أرناط بأفعاله التى أضرت المسلمين وقال له : كم تخلف وتحنث وتعهد وتنكث وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض فقال الترجمان عنه أن يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك ، وكان الملك يلهث من شدة الظمأ ، وأحس بالرعب وعندئذ أمر صلاح الدين بتقديم إناء ماء مثلوج للملك جاى فشرب منه وأعطى ما تبقى أرناط فشرب وهنا غضب السلطتان ووجه كلامه للملك قائلاً : لم تأخذ فى سقيه من إذناً فلا يوجب ذلك له من أمناً . ويفسر المؤرخون هذا التصرف من ناحية صلاح الدين أنه : كان من جميل عادة العرب وكريم

أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بقوله ذلك وكان أن التفت صلاح الدين لأرناط وقال له : ها أنا انتصر لمحمد معك " ثم عرض عليه أن يعتنق الدين الإسلامى فلنم يفعل وعندئذ استل صلاح الدين سيفه وضربه به فأطاح برأسه وأخرجت جثته فلما رأى الملك جاى ذلك ارتاع وظن أن دوره آت عن قريب ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء .

استرداد بيت المقدس :

كان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين إلى بيت المقدس لسهولة الاستيلاء عليه ولكنه آثر أن يتجه أولاً إلى الموانى الساحلية بفلسطين ليحرم الصليبيين من أية معونة تأتى إليهم من غرب أوربا فضلاً عن أن استيلائه على موانى فلسطين يعمل على سهولة اتصاله البحرى بمصر .

ولما كانت عكا أقرب الموانى إلى صلاح الدين فإنه توجه إليها مباشرة ولم تلبث المدينة أن استسلمت له فى ٨ يوليو ١١٨٧م بمجرد وصوله إلى أسوارها وأعطى صلاح الدين لأهلها الأمان وخيرهم بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل وقام بإطلاق سراح من كان بها من الأسرى المسلمين ، ومن عكا أرسل صلاح الدين جيوشه إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وغيرها من البلاد المجاورة فاستولوا عليها ، كذلك استولى صلاح الدين على نابلس وصيدا وبيروت وتسلم جبيل مقابل إطلاق سراح صاحبها الذى وقع فى الأسر يوم حطين ، ثم اجتمع صلاح الدين بأخيه العادل الذى أتى على رأس قواته من مصر وتقرر مناولة عسقلان فلم تلبث أن ستسلمت فى سبتمبر ١١٨٧م مقابل إطلاق سراح الملك جاى لوزجنان

ومقدم الداوية وهنا نلاحظ أن المدن الساحلية جنوب طرابلس وقعت فى أيدى صلاح الدين فيما عدا صور ، ذلك لأن صلاح الدين عندما كان يعطى الأمان لأهل كل مدينة يفتحها يفضلون الرحيل إلى صور حيث اجتمع كل أفرنجى بقى فى الساحل ، ومن الواضح أن لجوء الصليبيين إلى صور كان خطأ عرض صلاح الدين للنقاد إذ استحال عليه الاستيلاء عليها من ناحية فضلاً عن أن الصليبيين قاموا بتحصينها واتخذوها قاعدة أساسية لهم من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين صعوبة الاستيلاء على صور توجه بيت المقدس ، وهناك وجد أهل المدينة من الصليبيين قد عزموا الدفاع عن مدينتهم فقاموا بتحصينها وحشدوا قواتهم بها وبوصول صلاح الدين على رأس جيوشه فى سبتمبر سنة ١١٨٧م رأى أن يبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية ولما ابتدأ الهجوم فى ٢٠ سبتمبر أدرك الصليبيون عجزهم عن مقاومة صلاح الدين فاستقر رأيهم على طلب الأمان غير أن صلاح الدين رفض أول الأمر وعزم على أن ينتقم لما ارتكبه الصليبيون منذ قرون من القتل والتدمير ثم لم يلبث أن قبل منحهم الأمان والسماح لهم بالخروج سالمين مقابل عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة ودينارين للطفل وجرى تسليم المدينة فى ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م .

ويتضح جلياً إنسانية صلاح الدين فى الأسلوب الذى عامل به الأسرى عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين فلم تتعرض دار من الدور فى المدينة للنهب ولم يحل مكروه بأحد من الأشخاص ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدى عشرة دنانير مقدار الفدية المطلوبة منه ويغادر المدينة بقامة منحنية لثقل ما يحمله من الذهب وقد كان من الجائز أن ينجو من استرقاق ألوف عديدة من الصليبيين لو أن الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء ، ثم أعلن صلاح الدين أنه

سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته وما فعله صلاح الدين يناقض تماماً ما قام به الصليبيون الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى فعلى أيديهم بلغ عدد الضحايا نحو سبعين ألف مسلم . (٥)

هوامش الفصل الرابع
الجبهة الإسلامية
ودورها فى التصدى للصليبيين

١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٨٩ .
وعن عماد الدين زنكى .. انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٤٣٩-٤٥٦

٢) محمود الحويرى : بناء الجبهة الإسلامية ، ص ١٤٩

٣) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧١
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩٩
وعن نور الدين محمود أنظر : حسين مؤنس: نور الدين محمود،(القاهرة ١٩٥٩) محمد مؤنس عوض : فى الصراع الإسلامى الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية ، (القاهرة : ١٩٨)

٤) انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١١ ، ص ١٩٢ ، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٥

٥) انظر محمود الحويرى : الحروب الصليبية فى الشام ومصر بعد توحيد الجبهة الإسلامية على أيدى صلاح الدين ، ص ١ – ١١
سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص ١٦٢ – ٢٠٨ . سعيد عمران : الحروب الصليبية ،

تدريبات على الفصل الرابع

السؤال الأول : **قم بقراءة العبارات الآتية وبدائل إجابات كل منها جيداً ثم ظلل الإجابة الصحيحة فقط في ورقة إجابتك .**

١- استمرت الرها في الأسر الصليبي مدة.....

(أ. ٤٢عام- ب. ٤٤ عام - ج٤٦ عام- د٥٠ عام)

٢- تم عقد صلح الرملة عام....

(أ. ١٠٩٠م- ب.م١١٩٠-ج.١١٩٢م-د١١٩٤م)

السؤال الثالث: **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة**

١- نمكم القائد نور الدين محمود من استرداد إمارة الرها من الصليبيين.

٢- نجح صلاح الدين الأيوبي في استرداد بيت المقدس عام ١١٨٧م

الفصل الخامس
الحملات الصليبية
من الرابعة إلى السابعة

أهداف الفصل الخامس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف علي أحداث الغزو اللاتيني على القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، والحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة ومعرفة قادة وأسباب وأحداث ونتائج كل حملة .

الحملة الصليبية الرابعة (سنة ١٢٠٢ – ١٢٠٤ م)

لم يرضى البابا ودعاة الحرب عن نتائج الحملة الثالثة وعز عليهم أن تظل بيت المقدس فى أيدى المسلمين فتم أعداد الحملة الصليبية الرابعة بسرعة وضعت خطتها على أن تتجه ضد مصر مباشرة ولكن انحراف الحركة الصليبية عن أهدافها وتغلب المصالح التجارية على الصالح الدينى جعلت البنادق يحولون وجه هذه الحملة ضد القسطنطينية – عاصمة الدولة البيزنطية المسيحية – ولذا فإن المؤرخين الغربيين يصفون هذه الحملة بالخسة والدناءة لأن المحاربين انحرفوا عن أهداف الحملة فلم يحاربوا المسلمين بل احتلوا القسطنطينية ونهبوا واقتسموا المدينة فيما بينهم بعد أن اعتدوا على كنائسها وأهلها . (١)

الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ – ٢١٢١ م) :

لم يرض البابا انوسنت الثالث عن تلك النهاية التى آلت إليها الحملة الصليبية الرابعة ودعا فى سنة ١١١٦م إلى حملة صليبية جديدة قادها جان دى برين Gean de Brinne وهدفها الشواطئ المصرية ١٢١٨م ووصلت إلى دمياط التى كانت تعتبر باباً لمصر وأرِع العادل من شمال الشام إلى مصر لمواجهة هذه الحملة ولكنه توفى فى الطريق بالقرب من دمشق ووع عبء الدفاع على ابنه الكامل واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط رغم جهلهم بطبيعة البلاد فى نوفمبر سنة ١٢١٩م بعد حصارها تسعة أشهر أبدت فيها المدينة وأهلها بسالة نادرة وأظهر الكامل روح المسالمة إذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس وإرجاع المملكة

الصليبية لمعظم مساحتها الأولى مقابل الجلاء عن دمياط والشواطئ المصرية ولكن الصليبين رفضوا هذا العرض لاعتقادهم فى سهولة الاستيلاء على مصر ولم يزحف الصليبيون على القاهرة مباشرة بل أضاعوا شهوراً عديدة فى دمياط قبلا تحركهم فى أغسطس ١٢٢١م إلى القاهرة وكان الفيضان على أشده فضلاً عن حرارة الجو واخترقوا الدلتا حيث تمتد شبكة من القوات فاستغل السلطان الكامل هذه الفرصة وأمر بقطع السدود وفتحت الترع المليئة بمياه الفيضان من كل ناحية مما اضطروا إلى طلب الصلح والإسراع سنة ١٢٢١م بالعودة إلى بلادهم تلاحقهم خيبة الأمل ومرارة الفشل بعد أن أخطأوا فى عدم قبول اقترحوا الكامل واتخاذهم طريق خطأ للوصول للقاهرة ولم يسلكوا الطريق الذى سبق أن سلكه الفاتحين من قبل . [٢]

الحملة الصليبية السادسة ١٢١٨ – ١٢٢٩ :

كان الإمبراطور فرديريك قد وعد البابا بالقيام بحملة صليبية ولكنه ظل ينتحل الأعذار حتى ١٢١٨م حين قام بحملته تحت ضغط من البابا وبعد أن وصل عكا ونتيجة لقلة عدد ما معه من الفرسان والجند فإن أرسل السلطان الكامل يفاوضه فى شأن بيت المقدس (وكان كل من فردريك والكامل يميلان للسلم) ونجحت مفاوضتهما وعقدا اتفاقية يافا ١٢١٩م التى حددت هدنة لمدة عشر سنوات وبمقتضاها :

١- أن تعود بيت المقدس للصليبين بالإضافة إلى بيت لحم والناصرة وصيدا مقابل أن يظل المسجد الأقصى والصخرة المشرفة وقرى القدس للمسلمين .

٢- يتعهد فرديرك بعدم إرسال نجدة للإمارات الصليبية فى شمال الشام مثل طرابلس وأنطاكية .

٣- أن يطلق الفريقان أسرى كل منهما .

ولم يرض المسلمون عن هذا الاتفاق الذى جعلهم يتخلون عن بيت المقدس واعتبروها خسارة كما لم يرض عنه الصليبيون الذين حرموا من إسال النجدات مكن أوروبا وهذا أضعاف لهم ولا يغنيهم حكمهم لبيت المقدس وحولهم المسلمون لابد أن يتولوا عليه يوما ما . (٣)

الحملة الصليبية السابعة على مصر

الأيوبيون والصليبيون بعد وفاة الكامل :

ترتب على وفاة السلطان الكامل الأيوبى سنة ١٢٣٨م / ٦٣٥هـ انقسام البيت الأيوبى على نفسه من ناحية وفتح باب المنازعات والحروب الأهلية بين ولديه من ناحية أخرى فبعد أن صار العادل الثانى – ابن الكامل – سلطاناً على مصر لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره منصرفاً إلى حياة اللهو والفجور ، وفى تلك أثناء كان الابن الأكبر للكامل وهو الملك الصلح نجم الدين أيوب من أم جارية سودانية كان وقتذاك بشمال الشام لم يعترف هو الآخر بسلطنة أخيه الأصغر منه فعزم على إقصائه واستخلاص مصر لنفسه .

وفى النزاع الذى نشب بين الأخوين استعان كل منهما بأنصار من البيت الأيوبى نفسه ، وفضلاً عن ذلك استعان كل منهما بجموع الخوارزمية الذين تفرقوا فى آسيا الصغرى والشام بعد مقتل سلطانهم جلال الدين الخوارزمى على يد المغول ، وفى تلك الأثناء كان الأمراء الأيوبيون قد

ضاقوا ذراعاً بانشغال العادل الثانى باللهو عن مصالح الدولة فقبضوا عليه فى نهاية مايو ١٢٤٠م وعزلوه ، واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب الذى دخل مصر فى ١٩ يونيو ١٢٤٠م ليصبح سلطاناً عليها (١٢٤٠ – ١٢٤٩م) .

وفى وسط الاضطرابات والفوضى التى عمت الدولة الأيوبية عقب وفاة السلطان الكامل دعت البابوية لحملة صليبية جديدة استجاب لها جماعة من أمراء فرنسا على رأسهم ثيبوت الرابع (تيبالد) كونت شا مبنى

وفى أول سبتمبر ١٢٣٩م وصلت حملة ثيبوت الرابع إلى عكا ، ولاشك أنه كان بوسع هذه الحملة أن تستغل المنازعات القائمة بين الأيوبيين وتتخذها مجالاً للمساومة تحصل به على امتيازات سخية من جميع أطراف النزاع ، ولكن ثيبوت رفض الأساليب الدبلوماسية التى اتبعها الإمبراطور فردريك الثانى وأصر على القتال .

انتهى ثيبوت الرابع إلى مهاجمة عسقلان وغزة ابتداءاً ، ثم التوجه إلى دمشق للاستيلاء عليها بعد تأمين الطريق الجنوبى غير أنه فى الوقت الذى خرجت فيه حمله ثيبوت من عكا فى ٢ نوفمبر ١٢٣٩م قاصدة الحدود المصرية ، وصل جيش ضخم من مصر استطاع تطويق الصليبيين قرب غزة وأنزل بهم هزيمة ساحقة فى ١٣ نوفمبر من نفس العام ، وأسفرت الهزيمة عن وقوع الكثير من الصليبيين فى الأسر وإرسالهم إلى القاهرة فى حين انسحب الصليبيون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٠م ولم تلبث الحملة الفرنسية أن بارحت عكا عائدة إلى الغرب الأوروبى فى سبتمبر سنة ١٢٤٠م .

ولم يكد يمضى على رحيل ثيبوت الرابع بضعة أيام حتى وصلت إلى عكا حملة صليبية أخرى فى ١١ أكتوبر بقيادة ريتشارد كورنوال شقيق هنرى الثالث ملك إنجلترا ويبدو أن تلك الحملة كانت صغيرة إذ لم تقم بعمل حربى

جدير بالاعتبار فكل ما قامت به هو تحصين عسقلان لتقوية استحكاماتها فى مارس ١٢٤١م وبذلك يأمن الصليبيون فى الشام أى هجوم من جانب مصر وبعد أن تم ريتشارد تحصين عسقلان أجاب الصالح أيوب إلى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع وأخيراً أبحر ريتشارد كورنوال من عكا إلى أوروبا فى أوائل مايو سنة ١٢٤١م .

وحدث فى سنة ١٢٤٤م أن عبر الخوارزمية نهر الفرات إلى بلاد الشام فى جموع هائلة بلغت عشرة آلاف مقاتل واندفع الخوارزمية فى سريهم حتى بلغوا دمشق التى كانت من القوة ما جعلتهم عاجزين عن الاستيلاء عليها وبعد أن نشروا الخراب فى البلاد التى مروا بها هبطوا على طبرية فاستولوا عليها ، ثم اتجهوا إلى نابلس ومنها قصدوا بيت المقدس وعندئذ أدرك الصليبيون فى بيت المقدس ما يحيط بهم من خطر فاستنجدوا بالقوى الصليبية الموجودة بالشام وملك قبرس هنرى الأول ، فضلاً عن حلفائهم الأيوبيين فى حمص ودمشق والأردن ولكن أحداً من هذه الأطراف لم يلبى النداء إذ كان الصليبيون فى الشام وقبرص فى شغل شاغل بمشاكلهم الخاصة بعد أن انحلت أوضاعهم فى حين لم يجسر ملكا حمص ودمشق – وهم حلفاء الصليبيين – على الوقوف إلى جانب الصليبيين لحماية مصالح الصليبيين فى بيت المقدس ، الأمر الذى يعرضهما لنقمة العالم الإسلامى ، وانتهى الأمر بأ قام الخوارزمية باقتحام مدينة بيت المقدس فى ١١ يوليو ١٢٤٤م / ٦٤٣هـ واستطاعوا الاستيلاء عليها ، ولم يظهروا شيئاً من الرأفة بالمدينة فاعتدوا على كنيسة القيامة وغيروها من المشاهد والآثار المسيحية فى بيت المقدس ، وفى أغسطس غادر حوالى ستة آلاف من الصليبيين مدينة بيت المقدس بعد أن توسط فى خروجهم الناصر داود صاحب الكرك ، غير أن الخوارزمية بعد خروجهم أبدبروا لهم خدعة حربية وقتلوا منهم أكثر من ألفين منهم أكثر من ألفين ، فى حين تعرضت البقية للمطاردة طوال

طريقهم إلى يافا بحيث لم يصل منهم سوى ثلثمائة فقط وهكذا خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدى الصليبيين إلى المسلمين ولم يدخل أبوابها جيش مسيحى إلا بعد سبعة قرون عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى .

حملة لويس التاسع إلى مصر :

كان لويس التاسع ملك فرنسا بما عرف عنه من تقوى وورع وتواضع يتطلع منذ زمن بعيد لزيارة الأراضى المقدسة لتطمئن روحه بالمكان الذى عاش فيه المسيح عليه السلام وكان مسرحاً نضاله ضد اليهود وشاءت الظروف أن تلعب دوراً فى تحقيق ما يصبوا إليه لويس التاسع ، ذلك أنه فى ديسمبر ١٢٤٤م ، وقع فريسة لحمى الملاريا فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية إلى الشرق إذا شفى من مرضه ولم يكد يسترد صحته حتى شرع فى إعداد الحملة .

والواقع أن الموقف الصليبى ببلاد الشام كان يتطلب وقتذاك خروج حملة صليبية من الغرب الأوروبى فقد أصيب الصليبيون بضرب قاسمة على يد السلطان الصالح أيوب فى غزة ، فضلاً عن استرداد المسلمين بيت المقدسة للمرة الثانية سنة ١٢٤٤م على أيدى الخوارزمية الذين اعتدوا على بعض الأماكن المسيحية فيها ، وكان أن أبحر من عكا أِقف بيروت فى ٢٧ نوفمبر ١٢٤٤ إلى الغرب الأوروبى ليشرح للبابوية وملوك الغرب وأمرائه خطورة موقف الصليبيين بالشام ويطلب منهم المعونة العاجلة حتى لا يتعرض الكيان الصليبى كله للفناء ولكن الأحوال فى أوروبا حالت آنذاك دون تكاتف بلدان أن الغرب الأوروبى بسبب الصراع بين البابوية والإمبراطورية ، ولم يستجيب للدعوة إلا لويس التاسع الذى عرف بالقديس لورعه وتقواه وهكذا اتخذت الحملة الصليبية السابعة طابعاً فرنسياً بحتاً

والمشتركون فيها غالبيتهم من الفرنسيين مما جعلها بعيدة عن الطابع الدولى

وفى الوقت الذى أخذ فيه لوي السابع يواصل استعداداته أتى إلى الصالح أيوب رسول موفد من قبل فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى هيئة تاجر وأخبره سراً أن الملك الفرنسى عازم على السير إلى أرض مصر وأخذها ، وكان السلطان وقتئذ مريضاً فى دمشق فحمل إلى مصر فى محفة ونزل باشموم طناح على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من دمياط لمراقبة الموقف وأخذ فى الاستعداد بالأقوات والمؤن والأسلحة وأدوات القتال .

ومهما يكن من أمر فقد أبحر ملك فرنسا على راس حملته التى درج المؤرخ على تسميتها بالحملة السابعة ووصل إلى ميناء ليماسول عاصمة قبرص فى ١٧ سبتمبر ١٢٤٨م مصطحباً معه الملكة وأخويه ثم لحق به عدد كبير من الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا فى الحملات الصليبية السابقة ومن بين هؤلاء حتجو انفيل مؤرخ حملته وفى قبرص أحس الصليبيون وكأنهم فى بلدهم بفضل رعاية هنرى الأول ملك قرص وحسن ضيافته واستقباله لهم ، وفضلاً عن ذلك ساعدت السلطات القبرصة لويس التاسع فى الحصول على كميات ضخمة من التموين لقواته وبذلك أتاحت الأشهر الطويلة التى قضاها لويس التاسع فى قبرص (سبتمبر ١٢٤٨ – مايو ١٢٤٩) فرصة طيبة للصليبيين استجموا فيها وحصلوا على ما يلزمهم من مؤن بالإضافة إلى المساعدات البشرية التى حصل عليا لويس التاسع من ملك قبرص وغيره من زعماء الصليبيين الذين وفدوا من عكا .

ولما جرت مناقشة خطة الحملة فى قبرص اتفق الجميع على أن تكون مصر هى الهدف الرئيس الذى يقصده الصليبيون لما توافر بها من ثروة فضلاً عن أهميتها الاستراتيجية ، وفى خلال المدة التى قضاها لويس

التاسع فى قبرص استقبل الرسل والسفارات من الملوك والأمراء المجاورين . ومن بين السفارات التى وفت عليه سفارة من المغول تحمل إليه استعداد إيلخانان المغول للمساهمة مع الصليبيين فى تخليص بيت المقدس من المسلمين ، والحق أن الغرض الأساسى من تلك السفارة هو عقد تحالف عسكرى مشترك بين الصليبين والمغول ضد اليوبيين فى الشام من ناحية ، والخلافة العباسية من ناحية أخرى إذ كان المغول وقتذاك يفكرون فى اجتياح العراق وبغداد وهو الأمر الذى قام به هولاكو بعد سنوات قليلة سنة ١٢٥٨م ، فأرادوا أن يحولوا دون أية مساعدة يقدمها الأيوبيون فى مصر والشام للخلافة العباسية عن طريق محالفة الصليبيين ، مما يجدر ذكره أن الملك الفرنسى امتلأ غبطة بهذا الاتصال الذى لم يكن يتوقعه فعامل السفارة معاملة طبية تظهر بوضوح فى حضورهما القداس معه وبادر بإرسال سفارة من ثلاثة من الرهبان الدوميكان لنشر الديانة المسيحية بين المغول .

وفى مايو ١٢٤٩م كان لويس التاسع قد جمع قواته وسفنه فى ليماسول استعداداً للإبحار إلى مصر فى الوقت الذى كانت الدولة الأيوبية فى مصر والشام لا تزال تعانى الكثير من المتاعب بسبب المنازعات بين أمراء البيت الأيوبى ، وقد أراد فرسان منظمة الداوية استغلال تلك الظروف التى أحاطت بالبيت الأيوبى فى مصر والشام وقتئذ للحصول على مكاسب فى بيت المقدس ، ولكن لويس التاسع عارض ذلك معارضة شديدة خلال وجوده فى قبرص وحذر الداوية من القيام بأى اتصال مع المسلمين بالشام وربما رأى لويس أن الطريق السليم للحصول على بيت المقدس هو البدء بغزو مصر ، وأنه لا فائدة من أن يقوم الصليبيون فى الشام بالاستيلاء على بيت المقدس ثم اخرج الجيوش الأيوبية من مصر لهدم البناء الصليبى بالشام .

وأخيراً وصل لويس التاسع على رأس حملته أمام دمياط فى ٤ يونيو ١٢٤٩م على أنه لم يشأ مهاجمة مصر قبل أن يرسل كتاباً إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضمه عبارات التهديد واستعرض القوة بهدف التأثير فى الروح المعنوية للمسلمين وقد جاء فى الكتاب قوله : " وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء ... " ولكن السلطان لم يخشى تهديد لويس بل رد عليه بكتاب شديد اللهجة من إنشاء البهاء زهير يقول فيه : " ولو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظمة حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك .

ونظراً لأن السلطان الصالح أيوب كان مريضاً ولم يعد بوسعه أن يتولى قيادة الجيش وإدارة دفة الحرب فقد أمره وزيره فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صديق الإمبراطور فردريك الثانى أن يتولى قيادة الجيش والوقف على رأس قوة على البر الغربى لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول إلى البر وفى نفس الوقت أمر بنى كنانة المشهورين بالشجاعة والفروسية بالبقاء فى دمياط للدفاع عنها إلى جانب الحامية العسكرية الموجودة بها .

بدأت عملية إنزال الجيوش الصليبية فى ٥ يونيو ١٢٤٩م وعلى الرغم من نشوب معركة حامية على شاطئ البحر لمنع الصليبيين من النزول إلا أن القوات التى تصدت لهم بقيادة الأمير فخر الدين أجبرت على الارتداد ولما أمسى اليل انسحب فخر الدين ورجاله إلى الضفة الشرقية للنيل حيث توجد مدينة دمياط بعد أن اجتاز لها جسرا من المراكب ولا ريب أن التراجع بهذه الصورة نشر الرعب والفزع فى قلوب أهال دمياط ، وخرجوا

على وجوههم فى الليل لا يلتفتون إلى شئ وتركوا المدينة خالية من الناس ولحقوا بالعسكر فى أشمون وهم عرايا جياع حيارى عن معهم من النساء والأولاد ، كما أن بنى كنانة الذين اعتمد الصالح أيوب على فروسيتهم وشجاعتهم تركوا دمياط مثلما فعل الجيش والحامية وأهل دمياط ، وفاتهم عند الفرار أن يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل ، وفى الصباح اكتشف لويس أن دمياط خالية من سكانها فدخلها فى سهولة فى ٦ يونيو ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ ، ويروى المقريزى أن الصليبيين عندما رأوا أبواب المدينة مفتحة ولا أحد يدافع عنها ظنوا أن ذلك مكية ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوها من غير مانع ولا مدافع ، واستولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة الأموال والأمتعة صفوا بغير كلفة ، والواقع أن استيلاء الصليبيين فى سهولة ويسر على دمياط أثار دهشة المؤرخين المسلمين المعاصرين الأمر الذى جعلهم يتهمون الأمير فخر الدين بالتفريط فى دمياط لأنه لو ثبت بها لامتنعت على الصليبيين كما حدث قبل ذلك بثلاثين سنة من حملة حنا دى برين ، هذا ويعتقد المقريزى بين الحملة الصليبية الخامسة بقيادة حنا دى برين التى استولى على دمياط بعد جهد طويل شاق ، وبين الحملة الصليبية السابعة التى استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سهولة ويسر فيقول : " وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل دخائر وعدد منها فى هذه النوبة ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة وعندما فنى أهلها بالوباء والجوع وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئاً " .

على أن الصليبيين لم يكن بإمكانهم مواصلة الزحف وقتئذ لأن وقت فيضان النيل صار على الأبواب ولا بد أنهم أخذوا العبرة من الأسباب التى أدت إلى فشل حملة حنا دى برين من قبل ، وعلاوة على ذلك فإن لويس

كان ينتظر قدوم إمدادات من فرنسا ، ومن الواضح أن ركود الجند فى دمياط أدى إلى تداعى روحهم المعنوية وأخذت المؤن فى النفاذ وتفشى المرض بين الجنود وعلى أية حال فإن موقف الصليبيين أعطى الصالح نجم الدين أيوب فسحة من الوقت لتجهيز نفسه وإقامة خط دفاعه الجديد ، وكان الصالح أيوب قد وجه اللوم والنقد إلى ألمير بخر الدين الذى لم يثبت أمام الفرنسيين عند نزولهم إلى البر قائلاً : " أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج " ، أما أمراء بنى كنانة فقد عاقبهم الصالح أيوب عقاباً قاسياً لفرارهم من دمياط وإهمالهم الدفاع عنها ، فأكمر بشنقهم وكانوا زيادة عن خمسين أمير ، وهنا نلاحظ أنه على الرغم من شدة مرض السلطان بحيث لم يقو على النهوض من الفراش فقد انتقل بالجيش إلى المنصورة ليبتولى تنظيم شئون الدفاع فأخذ فى تحصين المدينة وتجديد الأبنية ولم يلبث أن أتى الناس من كل صوب وحدب وشرعوا فى الإغارة على الصليبيين ومناوشتهم حتى أسروا الكثير منهم .

وأخيراً جاءت الإمدادات التى انتظرها لويس التاسع برفقة أخيه روبرت دى أرتوا فى أواخر أكتوبر ١٢٤٩م ، فتتأهب للزحف على القاهرة لطعن مص فى قلبها لاسيما بعد أن هبط النيل ولم يكد لويس يشرع فى المسير على رأس جيشه جنوباً حتى توفى الصالح نجم الدين أيوب فى المنصورة فى ٢٣ نوفمبر من نفس العام بعد أن يئس الأطباء من شفائه ، ولاشك أن وفاة السلطان جاءت فى وقت عصيب أشد ما تكون الحاجة إليه فعلى الرغم من روح التآمر التى سيطرت على تصرفاته وشدة بطشه وميله للعزلة وتعاظمه على أصحابه إلا أنه كان سلطاناً كفئاً جدد شباب الدولة الأيوبية حتى قال عنه المؤرخ أبى المحاسن : " وفى الجملة هو عندى أعظم ملوك بنى أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب " .

لما مات الصالح أيوب أخفت زوجته شجر الدر خبر وفاته خوفاً من الصليبيين من ناحية ، وخشية أن يؤثر ذلك فى معنويات الجند من ناحية أخرى ولم يعلم بخبر وفاته إلا اثنان من المقربين إليها وهما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذى أسندت إليه قيادة الجيش ، والطواشى جمال الدين محسن الذى كان أقرب الناس إلى السلطان وليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته ، وكان الأوامر والتعليمات تخرج بخط خادم يقال لـه سهيل لا يشك من رآه أنه خط السلطان ولم تلبث

شجر الدر أن أرسلت إلى ولده الوحيد توران شاه وكان يقيم بعيداً فى إقليم الجزيرة حيث ينوب فى الحكم عن أبيه تستدعيه على عجل لتولى مهام الحكم ، وقد فعلت شجر الدر ذلك على الرغم من أن توران شاه لم يكن ولدها ، فضلاً عما عرف عنه من صفات لا تؤهله للحكم وليس من الصحيح أن شجر الدر قامت بهذا العمل على استعدادها التام للتضحية فى سبيل مصر والحفاظ على وحدة الدولة الأيوبية أمام الصليبيين لاسيما أن المماليك الذين أكثر منهم الصالح أيوب على مقربة من الأحداث .

على الرغم من اتخاذ كافة الاحتياطات لإخفاء خبر وفاة السلطان الصالح أيوب إلا أن الأنباء لم تلبث أن تسربت إلى المعسكر الصليبى ، ذلك رأى لويس سرعة التحرك فسار بجيشه من دمياط فى ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوباً حتى وصل إلى نقطة تفر بحر أشمون (البحر الصغير) من فرع دمياط ، وعندئذ وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصور ولم يلبث الصليبيون أن عبروا البحر الصغير بعد أن دلهم أهل بلدة سلمون وغالبيتهم من غير المسلمين على مخاضة فى هذا البحر إلى المنصورة دون أن يعشر الجيش الإسلامى مقابل قدر من المال وما أن شن الصليبيون هجوماً على المعسكر الإسلامى الذى يقع على مسافة ميلين خارج المنصور حتى ساد الفوضى والاضطراب فى

صفوف المسلمين وقتل فى هذا الهجوم الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبى مما أنزل خسارة فادحة بالجيش الأيوبى فى تلك الظروف إذ تفرق المسلمون يميناً وشمالاً وكانت أن تكون الهزيمة الكلية .

على أن روبرت دى أرتو اخى لويس التاسع ارتكب عندئذ حماقة كبرى إذ لم يشأ أن ينتظر عبور بقية الجيش الصليبى ومعهم لويس نفسه طبقاً للخطة الموضوعة وإنما بادر باقتحام المنصور دون أن يستمع إلى أوامر الملك بعدم الإقدام على تلك الخطوة ، وفى تلك الأثناء استطاع المماليك البحرية أن يعيدوا النظام إلى الجند بعد موت الأمير فخر الدين وتولى القيادة بيبرس البندقادرى الصالحى ، فأقام الجند فى مراكز منيعة داخل المدينة ثم ترك الصليبيين يتدفقون على المدينة وإذ شق الصليبيون طريقهم إلى المدينة وبلغوا أسوار قلعتها حتى خرج عليهم المماليك من الشوارع الجانبية ولما يتيسر لخيول الصليبيين أن تستدير فى الحيز الضيق ، وقعت على الفور فى فروض واضطراب ، وأمعن المماليك فى قتالهم وأخذ الأهالى يرمونهم من نوافذ المنازل وأسطحها بالحجارة وكل ما تصل إليه أيديهم من الأمتعة المنزلية ، فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان بلغوا ضفاف النيل راجلين ولم يلبثوا أن غرقوا فى مياهه ، أما الداوية فلقوا مصرعهم وهم يقاتلون فى الشوارع ولم يبق منهم على قيد الحياة ألا خمسة من مجموعهم الذى يبلغ مائتى وتسعين فارساً وهكذا انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين هزيمة نكراء وفرار فلولهم .

كان لويس التاع خارج المدينة عندما سمع بخبر الكارثة التى حلت بجنده فلم ينهار ، واستطاع أن يعيد النظام إلى صفوف جيشه بعد أن تناقص عدده وانتشر المرض بين أفراده ونفذت المؤن والأقنوات ثم انفذ الملك لويس المهندسين لبناء جسر على البحر الصغير كى تعبره قواته فى حالة قيام المماليك بهجوم ضده ، وقد حدث ما توقعه الملاك إذ لم يلبث

المماليك أن أتوا مسرعين من مدينة المنصورة وشنوا هجوماً عاماً على المعسكر الصليبى واشترك معهم مشاة المسلمين فضلاً عن جميع العربان ، وفى تلك المرة قاد الملك المعركة بنفسه وأظهر شجاعة كبيرة ولبث فى العركة حتى اضطر المماليك إلى التراجع نحو المنصورة .

وعلى الرغم من شجاعة لويس وثباته إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بعد أن قلت المؤن وانتشرت الأمراض والأوبئة فى معسكرهم وفقدوا الكثير من فرسانهم فى معركة المنصورة وكان ذلك فى الوقت الذى وصل المعظم توران شاه إلى المعسكر الإسلامى فى المنصورة فى ٢٨ فبراير ١٢٥٠م بعد أن نودى به سلطاناً فى دمشق ، ويبدو أن وصوله أثار حركة من النشاط والحماس فى صفوف القوات إذ أمر ببناء عدة سفن حملت أجزاءها على ظهور الجمال ثم أنزلت فى الماء شمالى موضع الصليبيين ولم تلبث هذه السفن أن قامت باعتراض طريق السفن الآتية بالمؤن والإمدادات من دمياط إلى معسكر الصليبيين مما أدى إلى ازدياد وضعهم سوء وحرجاً وكان مكل ما يخشاه لويس التاسع عندئذ أن يتعرض لكارثة حربية .

ووسط تلك الظروف التى أحاطت بملك فرنسا استقر رأيه فى مستهل أبريل ١٢٥٠م على أن يرتد بقواته إلى داخل دمياط ويبدو أنه أدرك أن الارتداد لا يتم فى سهولة فالسفن الإسلامية تعمل على عرقلة خطوط المواصلات بسيطرتها على فروع النيل فضلاً عن خطر المجاعة التى تعرض لها الجيش الصليبى من جراء فرض الحصار عليه لذلك اضطر إلى الاتصال بتوران شاه طالباً عقد هدنة على أساس التخلى عن دمياط مقابل إعادة بيت المقدس للصليبيين ، ومن الواضح أن لويس أراد بهذا العرض أن يسترد بيت المقدس فى الوقت الذى يشعر بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط ثم ليضمن لنفسه ولجيشه انسحاباً آمناً سليماً من مصر دون أن يتعرض لمطاردة المسلمين وأذاهم ولذلك لم يلق عرض الملك لويس سوى الرفض القاطع

وأذاهم ، ومن الطبيعى أن المسلمين كانوا على حق فر رفضهم فوضع المسلمين بعد معركة المنصورة يختلف تماماً عن وضعهم قبلها .

ولما فشل لويس التاسع فى الحصول على حل سلمى يرضى كرامته بدأ الارتداد إلى دمياط فى ٥ أبريل ١٢٥٠م واتخذ الجنود طريقهم براً بحذاء الضفة الشرقية فى حين حمل المضر والجرحى منهم بطريق النهر . والواقع أن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف فى الحرب وإنما كانت عملية " هروب إلى دمياط " كما أسماها المؤرخ ابن واصل ولم يتركهم المماليك يتراجعون فى سهولة وإنما لجأوا إلى مطارتهم وحدث أن نسى المهندسون الصليبيون تدمير الجسر الذى أقاموه على البحر الصغير فعبر عليه المطاردون المسلمون واستطاعوا إنزال خسائر فادحة بهم ولم يلبث الجيش الصليبى أن التجأ إلى قريت ميت الخوالى شمال شرمساح (مركز فارسكور) فأحاط المسلمون بهم وضيقوا عليهم الخناق بهجماتهم فى الوقت الذى خر لويس التاسع مريضاً حتى أنه لم يستطيع الاحتفاظ بتوازنه على حصانه ألا بصعوبة بالغة ، وبات من الواضح أن الجيش الصليبى المرهق لم يعد لديه القدرة على مقاومة الجيش الإسلامى وأحس لويس التاسع أن النهاية قد اقتربت ولم يكن بوسعه إلا أن يسلم مرغماً بالهزيمة ، وانتهى الأمر بأن ألقى الجيش الصليبى بسلاحه وجرى تطويقه فى فارسكور ووقوعه فى الأسر وكان من جملة الأسرى الملك نفسه الذى سبق إلى المنصورة حيث سجن فى دار القاضى إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء وعهد إلى الطواشى صبيح بحفظه والعناية به وبراحته ، ويروى أن توراشاه أكرم لويس التاسع فى أسره فخصص له من يقوم بخدمته كما رتب له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب .

ويقى لويس فى الأسر إلى أن تقرر أن يفتدى يفتدى نفسه بتسليم دمياط ودفع مبلغ مقداره خمسمائة ألف دينا ولما تم الاتفاق استرد

المسلمون دمياط فى ٣٠ أبريل ١٢٥٠م على أن هذا النصر كلف توران شاه حياته ذلك أنه حاول الاستئثار بالنفوذ والسلطان وأعرض عن مماليك أبيه الذين كان لهم الفضل فى إحراز النصر على الصليبيين ، كما كان لهم الفضل فى حفظ الملك له خلال تغيبه فى حصن كيفا قبل مجيئه إلى مصر ، ونسى توران شاه ما فعلته زوجة أبيه شجر الدر من أجله ، وأخذ يهددها بويطالبها بمال أبيه ، فخافت شجر ، الأمر الذى دفعها إلى تحريض مماليك أبيه عليه ، ووصل به الأمر أن جعل الوظائف الكبرى فى الدولة للأمراء الذين صحبوه من إقليم الجزيرة . أما عن شخصية توران شاه فقد اتسمت بالحماقة والضعف والميل إلى اللهو والعبث ، بدليل أنه كان إذ سكر جمع الشموع وضرب رؤوسها بالسف حتى تنقطع ويقول : هكذا أفعل بالبحرية – أى مماليك أبيه – ويسمى كل واحد منهم باسمه ، ولهذا اتفق الجميع على التخلص منه .

وحانت للمماليك البحرية فرصة التخلي من توران شاه حينما أقام فى ٢ مايو ١٢٥٠م سماطاً بفارسكور احتفالاً بانتصاره على الصليبيين فلم يكد يمد السماط حتى أقبل عليه بيبرس البندقدارى وضربه بالسيف فأطاح أصابع يده فأسرع توران شاه إلى الالتجاء إلى أحد الأبراج الخشبية غير أن المماليك أشعلوا النيران فى البرج حتى اضطره إلى الخروج فرمى نفسه فى النيل طالباً للنجاة وأخذ المماليك فى مطارته بالنشاب وسبحوا خلفه وأدركوه فقطع بالسيوف ومات حريقاً غريقاً قتيلاً وصاح فى المماليك " ما أريد ملكاً ، دعونى أرجع إلى الحصن (كيفا) يا مسلمين .. ما فيكم من يطنعنى ويجيرنى " ولكن أحداً لم يتقدم لنجدته وتركت جثته ملقاه فى العراء على شاطئ النهر ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخلفية وبمقتل توران شاه انتهت الدولة الأيوبية فى مصر بعد أن حمت البلاد إحدى وثمانية سنة .

وهنا نلاحظ أن لويس التاسع قد غادر دمياط فى ٨ مايو ١٢٥٠م بعد إطلاق سراحه ليصل عكا فى ١٣ مايو حيث استقبل استقبال البطل المنقذ وظل يراقب تطور أحداث الصراع بين الأيوبيين والمماليك حتى انتهى الموقف بانتصار المماليك وقيام دولتهم فى حكم مصر ، بادر إلى مغادرة الشام عائداً إلى وطنه فى ٢٤ أبريل ١٢٥٤م بعد أن تحالف مع الإسماعيلية (الباطنية) من ناحية والمغول من ناحية أخرى حتى يتحقق بفضل هذا التحالف نوع من التوازن بين المسلمين والصليبيين . [٤]

هوامش الفصل الخامس
الحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة

٦) عن الحملة الصليبية الرابعة انظر :

اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية ، (جدة : ١٩٧٨)

ميشيل بالار : الحملات الصليبية والرشق اللاتينى ، ترجمة : بشير السباعى ، ص ١٩٧ – ٢٠٠ .

ارنست باركر ك الحروب الصليبية ، ص ٩٤ – ١٠٤ .

٧) عن الحملة الصليبية الخامس انظر :

محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، (الإسكندرية ، ١٩٧٨)

ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ص ١٠٥ – ١١٠ .

ميشيل بالار : الحملات الصليبية والرشق اللاتينى ، ص ٢٢٠ – ٢٢٥

٨) عن الحملة الصليبية السادسة انظر :

محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١ م ، ص ٢٧٧ – ٣٠٣ .

ميشيل بالار : الحملات الصليبية ، ص ٢٢٦ – ٢٣١ .

ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ص ١١١ – ١١٩

٩) محمود الحويرى : الحروب الصليبية فى الشام ومصر بعد توحيد الجبهة الإسلامية على أيدى صلاح الدين الأيوبى ، ص ٥٠ – ٥٦

انظر : جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، (القاهرة : ١٩٦٠)

محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٠٥ – ٣١٨ .

ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٠ – ١٣٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨٣١ – ٨٥٥ .

تدريبات على الفصل الخامس

السؤال الأول : **قم بقراءة العبارات الآتية وبدائل إجابات كل منها جيداً ثم ظلل الإجابة الصحيحة فقط في ورقة إجابتك .**

١-نجحت الحملة الصليبية الرابعة في الاستيلاء علي القسطنطينية عام....

(أ. ١٢٠٠ – ب. ١٢٠٢- ج١٢٠٤- د.١٢٠٥)

٢- اشترك ليوبولد دوق النمسا في الحملة الصليبية.....

(أ. الرابعة- ب. الخامسة – ج- السادسة د- السابعة)

السؤال الثالث: **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة**

٣- غادر لويس السابع مصر عام ١٢٥٠م.

٤- استرد الصليبيون بيت المقدس مرة أخرى عام ١٢٢٩م.

الفصل السادس
الجوانب الحضارية
بين المسلمين والصليبيين

أهداف الفصل السادس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على :

١ – التأثيرات الحضارية للمسلمين علي المجتمع الصليبي في مخلف المجالات والتأثيرات الصليبية في بلاد الشام

الجوانب الحضارية بين المسلمين والصليبيين

يتصور كثيرون الحركة الصليبية فى سلسلة حروب دموية متصلة الحلقات وقف فيها المسلمون الصليبيون وجهاً لوجه دون أن يعرفوا جميعاً لغة للتفاهم عدا لغة السيوف والحراب ، والواقع أن هذه الصورة القامة للحركة الصليبية لا تعبر إلا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة ، وهى لذلك أبعد ما تكون عن الحقيقة والتاريخ فالحقيقة الثابتة التى لا يصح أن نغفل عنها عند دراسة الحركة الصليبية هى أن هذه الحركة – مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها – كانت قبل كل شئ مجالاً واسعاً ألتقى فيه الشرق العربى الإسلامى بالغرب الأوروبى المسيحى ، وأن هذا اللقاء لم يكن لقاء حربياً فى ساحة الوغى فحسب بل كان أيضاً لقاء حضارياً على أوسع نطاق .

ويعجب من يتعمق قليلاً فى مصادر الحروب الصليبية – العربية وغير العربية – عندما يلمس مدى قوة الروابط الاجتماعية التى كانت تنشأ بين المسلمين والصليبيين بالشام بين حين وآخر ، وكيف أن هذه الروابط بلغت أحياناً حد الصداقة والألفة ، من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أنه كان للملك فولك – ملاك مملكة بيت المقدس الصليبية – فارس محتشم من الفرنجة وصل إلى الشام للحج ثم للعودة إلى بلاده ، ولكن ذلك الفارس ساقته الصدفة إلى الاتصال بأسامة فأنس به وصار ملازمى يدعونى " أخى " وبيننا المودة والمعاشرة فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده قال لى : يا أخى أنا سائر إلى بلادى وأريدك أن تنفذ معى ابنك – وكان أبنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة – إلى بلادى يبصر الفرسان ويتعلم الفروسية . ولكن أسامة اعتذر لصديقه الصليبى عن تلبية طلبه وودعه وداع الأحباب .

بل لقد كان يحدث فى أِد أوقات القتال حرصاً أن يسأم المسلمون والصليبيون جميعاً طول القتال ويتبادلون الفكاهة والطرف إلى أن تنتهى فترة الاستجمام وعندئذ يعودون إلى القتال من جديد ، من ذلك ما رواه المؤرخ أبو شامة من أنه عندما طال القتال بين المسلمين والصليبيين أمام عكا سنة ١١٩٠ (أنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين " المسلمين والصليبيين " كانتا تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة ، وسئموا يوماً فقالوا لى : كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ ، نريد أن يصطرع صبيان : صبى منا وصبى منكم فأخرج صبيان من البلد " المسلمين " إلى صبيين من الفرنج ، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذ أسرياً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه .

وهكذا لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية مستمرة – كما يبدو من اسمها – وإنما تخلخلتها علاقات إنسانية عديدة . (١)

وعلى عصر الحروب الصليبية كان الطب واحد من العلوم التى تبغ فيها المسلمون ، يدل على الفروق الحضارية الواضحة بين المسلمين والصليبيين ، وتكاد تنعدم معلومات الصليبيين عن الطب فى ذلك الوقت شأنهم فى ذلك شأن الأوروبيين فى الغرب الأوروبى وذلك بسبب الجهل وتزمت رجال الدين فى العصور الوسطى حتى اعتبروا المرض نوعاً من الجزاء أو العقاب الإلهى لا يصح للإنسان أن عالج أو يبرأ منه ، فإذا حدث أن انتابت أحدهم حمى هرع إلى أقرب دير أو كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظزراً حدوث معجزة تشفيه ، والثابت أن السادة اللاتين فى القرن الثانى عشر فضلوا الأطباء المسلمين أو اليهود على أطباء الغرب الأوروبى ، وما أورده أسامة ابن منقذ من أمثلة عن ممارسة الفرنجة للطل

تدل على جهلهم بأبسط المبادئ الطبية ، فقد قال : ومن عجيب طبهم (الفرنج) أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل لاه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما أرِع ما داويت المرضى فقال احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجه ، فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم احضروا لى فارسا قوياً وفأساً قاطعاً فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها فضربه وأنا أراه ضربه واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل فى رأسها فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت فى وقتها ، فقلت لهم بقى لكم حاجة ؟ قالوا : لا ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه . وفى ذلك المجال يروى أسامة أيضاً قصة عن عجائب الطب لدى الفرنجة قائلاً : ومن عجب طبهم ما حدثنا به كليام دبون William of Bures صاحب طبرية وكان مقدماً فيهم واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية وأنا معه فحدثنا فى الطريق قال : وكان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجئنا إلى قسر كبير من قسوسنا قلنا : تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ قال : نعم ، ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفى ، فلما رآه قال : أعطونى شمعاً ، فأحضرنا له قليل شمع فلينه وعمله مثل عقد الأصبع وعمل كل واحدة فى جانب أنفه فمات الفارس فقلنا

له : قد مات الفارس ، قال : نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح .

ولم يحاول الأطباء الصليبيون محاولة أطباء جنوب إيطاليا فى الاستفادة والتعلم شيئاً من الطب المحلى وطريقة التداوى المنظم التى استردت بعض جذورها من الشرق الإسلامى ، على الرغم من أن ستيفن الأنطاكى قام سنة ١٢٢٧م بترجمة كتاب " كامل الصناعة الطبية " من العربية إلى اللاتينية الذى ألفه على بن العباس المجوسى (ت ٩٩٤م) ، وكان الإفرنج يضيفون إلى اسمه " القديس " ولم يعرف كتاباً غير هذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية على أيام الحروب الصليبية ، وبطبيعة الحال لم يكن الفرنجة بحاثة أو رجال فكر مما أدى إلى أن تصير كمية الترجمة من العربية إلى اللاتينية فى فلسطين وسوريا بالغة الضآلة بشكل يبعث على الدهشة . هذا بالإضافة إلى أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية إلى اللاتينية أصبح شبه جزيرة أيبريا حيث ازدهرت حضارة العرب وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون ، ومن ثم اتجه كثير من أعلام النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر إلى أسبانيا يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية . (٢)

على أن الخلق العربى الكريم لم يظهر فى تصرفات حكام المسلمين – مثل صلاح الدين – فحسب بل ظهر أيضاً فى تصرفات عامة الناس حتى اعترف كتاب الصليبيين أنفسهم بأن أجمل ما فى العرب أخلاقهم الأصلية التى يتحلى بها العرب وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية تشهد على مدى تقدير العرب للمعروف واعترافهم بالجميل وحرصهم على رد الحسنة بأحسن منها ، ذلك أنه إذا كان الصليبيون قد تظاهروا بأن حركتهم التوسعية الكبرى فى أواخر القرن الحادى عشر إنما استهدفت استرداد بيت المقدس من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى الأراضى المقدسة فإن

سياستهم التى اتبعوها غداة استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ سرعان ما كشفت النقاب عن أطماعهم الاستعمارية التوسعية فى الوطن العربى ، فلم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية حتى شرع سنة ١١٠١ فى الإغارة على البلاد المجاورة . ويروى المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن الملك بلدوين الأول هاجم فى ربيع سنة ١١٠١ قبيلة عربية كانت تعبر الأردن فقتل معظم رجالها وأسر النساء والأطفال واستولى على قدر ضخم من الغنائم وكانت من جملة الأسرى زوجة أحد شيخ القبيلة وهى حامل على وشك الوضع فلما علم الملك بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملان وقدر من الزاد ولم تلبث المرأة أو وضعت مولودها فى الطريق وعادت إلى زوجها لتروى لـه ما حدث لها .

ولم تمض مدة طويلة حتى أتيحت الفرصة لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبى ذلك أن توسع بلدوين الأول فى جنوب فلسطين واستيلائه على أرسوف وقيسارية حرك الدولة الفاطمية من سباتها العميق فلجأ الوزير الأفضل الفاطمى إلى إرسال حملتين إلى الشام سنة ١١٠١ وسنة ١١٠٢ لرد عادية الصليبيين ، وإذا كان الملك بلدوين قد تمكن من إحراز انتصار سريع على الحملة الفاطمية الأولى فإن الفاطميين استطاعوا أن يوقعوا بالملك الصليبى فى الحملة الأخيرة فانتهزوا فرصة ابتعاده عن بقية قواته وباغتوه فيما بين يازور والرملة وكان أن قتل معظم من كان مع الملك بلدوين من الصليبيين واضطر الملك نفسه إلى الفرار إلى الرملة والاحتماء بها فى ١٧ مايو سنة ١١٠٢ .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين فقضى الملك بلدوين ليلته فيها وهو يحسب حساباً لوصول القوات الإسلامية بين لحظة وأخرى ، وبينما بلدوين يقضى ليلته فى الرملة لا يغمض له جفن فى انتظار مصيره المحتوم إذا بشيخ العرب الذى كان بلدوين قد أكرم زوجته الشابة فى

العام السابق يظهر فجأة أمام الملك الصليبى ليرد له الجميل ذلك أن الشيخ العربى لم يكد يسمع بما حدث للملك الصليبى حتى تذكر معروفه وأدرك أن الملك بدخوله الرملة قد وقع فى المصيدة ، فصمم على مساعدته اعترافاً بفضله وكان أن فتح الملك بلدوين عينيه فى ظلام الليل ليجد أمامه الشيخ العربى يقول له " إن مثلك لا ينبغى أن يضام سأساعدك على الفرار لكى تحصل على فرصة أخرى تدافع بها عن نفسك بشرط أن تقاتل المسلمين كما يقاتل الشرفاء لا أن تعتدى على المسالمين كما يفعل اللصوص ! " . وما هى إلا لحظة حتى ساعد الشيخ العربى الملك الصليبى فى خلع ملابسه وألبسه ملابس عربية تنكر فيها بلدوين وبذلك أمكنه الخروج إلى يافا والنجاة من الأسر ! (٣)

وبسبب الحروب الصليبية بلغ المسلمون شأوا بعيداً فى فى التسامح فالصليبيون – كقاعدة – عليهم الجهل فاعتقدوا فى الخزعبلات وصوروا المسلمين فى نظرهم كوثنيين ولهم العذر فى ذلك فقد لقنوهم فى الغرب الأوروبى أن المسلمين يعبدون محمدً (صلى الله عليه وسلم) ولكن مائتى عام من الاتصال اليومى مع المسلمين والاحتكاك بحضارتهم أوجدت تغييراً ملحوظاً فى أفكار الأوروبيين إذ وجدوا المسلمين أصحاب ديانة سماوية فى منأى عن الوثنية وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ليس بمعبود بل فى حقيقة الأمر من البشر وأم كثيراً من تعاليم الإسلام مشابهة لتعاليم المسيحية واتضح لهم أن المسلمين يؤمنون بعيسى (عليه السلام) كنبى ولمسوا فى الإسلام عقيدة بسيطة وسهلة بعيدة كل البعد عن التعصب مفعمة بالتسامح لاسيما مع المسيحيين ، ومن أبرز الفئات التى كانت مستعدة لقبول الصورة المنقحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم زعماء اللاهوت الذين كانوا يرغبون فى إمداد أبناء عقيدتهم بأمضى سلاح ينازلون به العدو الذى كان تأثيره فى الفلسفة فى العصور

الوسطى Scholastic قد أخذ ينتشر انتشاراً ذريعاً ، ففى عام ١٢٧٣ م كتب وليم الطرابلسى رسالة عن حالى العرب ومحمد النبى صلى الله عليه وسلم وشريعتهم وعقيدتهم والصورة التى صور بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإن كانت أبعد ما تكون عن شخصيته التاريخية فإن بها من العناصر الخرافية والمطاعن ، قد أنزل إلى الحد الأدنى الذى لا غنى عنه لمدافع عن المسيحية فى العصور الوسطى فيقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل (عليه السلام) نقل الإرادة الإلهية Voluntatem Divinam إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم صاغ المؤمنون ما كان ينطق به كتاباً .

ويبدو أن محاورات دينية بين المسلمين والصليبيين كانت تحدث أحياناً فقد تحدث ابن شداد فى حوادث عام ١١٨٩ م / ٥٨٥ هـ عن رينالد سيد صيدا والشقيف أرنون أنه كان من دهاة الصليبيين تردد كثيراً فى خدمة السلطان صلاح الدين وقال عنه : " وكان يناظرنا فى دينه ويناظره فى بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدباً فى كلامه " ، ونكرر القول أن الصليبيين الأوائل عندما أتوا إلى الشام وضعوا فى أذهانهم أنهم أرفع قدراً من المسلمين الذين ألصقوا بهم تهمة الوثنية وعبروا عنهم بكلمة " الكفار " التى فاضت بها المصادر المعاصرة وكثيراً ما سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك أنهم عندما فرضوا الحصار على حلب عام ١١٢٤م / ٥١٨هـ عموا إلى قبور المسلمين فنبشوها وأخرجوا بعض الجثث التى لم تنقطع أوصالها وسلبوا الأكفان وربطوا فى أرجلهم الحبار وسحبوها مقابل المسلمين وجعل البعض منهم يقول " هذا نبيكم محمد " ، وآخر يقول " هذا عليكم " كما أخذ البعض مصحفاً ونادى على أحد المسلمين قائلاً " يا مسلم أبصر كتابكم " ، فثقبه وشده بخيطين وعملاه ثفراً (السير الذى فى مؤخرة السرج) لبرذونه ، وظل البرذون يروث عليه ، والفرنجى يضحك عجباً وزهوا

. ولكن الصليبيين لم يلبثوا أن أدركوا أن المسلمين أهل كتاب وحضارة تفوق حضارتهم ونن ثم تبدلت مفاهيمهم نحو المسلمين وزال التعصب الدينى البغيض وحل محله الاختلاط زمن السلم ، والواقع أن اتصال الفرنجة مع شعوب الشرق أصحاب الديانات العريقة المختلفة فتح أعين الغربيين على حقيقة أنه من الممكن أن توجد شعوب ذكية ومثقفة وحضارة متفوقة على حضارة أوروبا الإقطاعية وبذلك تكون الحركة الصليبية قد خلقت حالة فكرية جيدة ووجد عشرات الألوف من الصليبيين فى المسلمين الهدوء والجاذبية بعد أن كانوا فى حالات عديدة الكفار المحتقرين المكروهين الشريرين أبناء الشيطان . ولم يترك الإسلام فى نفوس البعض انطباعاً قوياً فقط بل هداية أيضاً ، إذا ظهرت شكوى من " مرتدين " مسيحيين تخلوا عن المسيحية وآثروا اعتناق الإسلام حتى أن أحد رجال الدين وهو مبشر دينى من الفرنسيسكان أرسل إلى أفريقية عاد مسلماً . (٤)

وفى تصورى : أن الحضارة الإسلامية كان فى مقدورها العطاء حتى ذلك العصر على الأقل بدليل التأثير الذى أحدثته فى الصليبيين وكذلك الغرب الأوروبى بالتالى وبالإضافة إلى كافة العناصر السابقة يجدر بنا ذكر التأثير الإسلامى فى مجال الفن الحربى والفروسية ، ويلاحظ أن الصليبيين استفادوا من المسلمين فى عدة جوانب مثل استعمال القوس القاذف ، وكذلك الدروع التى يلبسها الفرسان والخيول ثم هناك الوسائد القطنية التى وتضع تحت الدروع وأيضاً استخدام الحمام الزاجل من أجل حمل المعلومات الحربية ثم أيضاً انتشار علامات النسب التى وضعت على الأسلحة ويضاف إلى ذلك كله أمر اتخاذ الصليبيين أمر تنعيل الجياد بالحديد من المسلمين وغيرها من العناصر التى عكست حجم تأثير المسلمين فيهم .

ولا نغفل إلى جانب ذلك أن الغرب الأوروبى أخذ عن الشرق خلال عصر الحروب الصليبية جعل المدخل الموصل من باب القلعة إلى داخلها

على هيئة زاوية قائمة Bententrance مثلما نجد فى أبواب القاهرة وكذلك فى القلاع الإسلامية فى بلاد الشام التى شيدت هناك فى القرن الحادى عشر الميلاد / الخامس الهجرى ، ثم أن الصليبيين نقلوا إلى الغرب الأوروبى إنشاء السقاطات Machicolation وهى عبارة عن أجسام بارزة عن السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أسفلها ويتم استخدامها من أجل إلقاء الزيوت المغلية والمقذوفات الحجرية على المهاجمين إذا أمكنهم تجنب السهام وتهديد السور عن طريق الاقتراب منه ولذلك فإنها بنيت عادة فوق الأبواب وأحياناً فى أماكن أخرى من السور على نحو يعوق المهاجم عن تسلق السور أو إحداث ثلمة به وهناك من يطلق خطأ على تلك السقاطات تعبير مشربيات لبروها غير أن الأولى كانت لها وظيفة حربية بينما الثانية وظيفتها مدنية . (٥)

ومن الظواهر التى استرعت نظر العرب المعاصرين أن أولئك الصليبيين الوافدين من غرب أوروبا ليست لديهم غيرة جنسية وأن الرجال منهم لا يغار على امرأته ولا يحرص على ألا ينفرد بها سواه ، وكان من الطبيعى أن يدهش العرب لهذه الظاهرة وهم المعروفون بغيرتهم ونخوتهم وحرصهم دائماً على مبادئ الشرف وقواعد الأخلاق فأسامة بن منقذ يعيب على الصليبيين عموماً أن ليس عندهم شئ من النخوة والغيرة ، ويدلل على ذلك بأن الرجل منهم يكون ماشياً هو وامرأته عندما يلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة " ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فرغهما من الحديث فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ! " .

ويروى أسامة قصة طريفة يستدل بها على عدم غيرة الفرنج فيقول : إن أحدهم دخل بيته فوجد رجلاً مع امرأته فى الفراش فقال له " أى شئ أدخلك عند امرأتى ؟ " قال : " كنت تعبان ودخلت أستريح ! " ، قال " " والمرأة نائمة معك ؟ " ، قال : " الفراش لها ، فهل كنت أقد أمنعها من

فراشها ؟ " فرد الزوج قائلاً " وحق دينة إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت !! " ، ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلاً : " فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ! " . (٦)

ومن الملاحظات الخاصة بالنساء فى سجلات الحروب الصليبية تتعلق بالإغراءات الجنسية التى قدمنها للرجال وخضوع الرجال لهن بصفة متكررة وأصبحت نزعة الصليبيين للممارسة الجنسية لازمة غالباً ما تتكرر فى الكتابات السردية وجعل المؤرخون من الممارسات الجنسية لرجال الجيش سبباً فى جميع النكسات التى منى بها الجيش الصليبى ، فعندما هزم المجريون صليبى " جوتشاك " Gohschalk الشعبيين ذكر " ألبرت " Albert of Aachen أن السبب فى ذلك كان انغماس الصليبيين فى الزنا ، كما أعلن فولتشر Fultcher of Chartres أن كمين " قلج أرسلان " Qilij Araslan للجيش الصليبى فى دوريلايون Dorylaeum نتج عن فسوق الصليبيين ولم يكن سجلهم عند أنطاكية Antioch بأفضل حلاً حيث انطلقوا بشهوة عارمة لا تعرف أى معنى للاعتدال واندفعوا حال وصولهم إلى الجنس أكثر وأكثر وإلى الزنا ، وأشكال من الفحش لا اسم لها ، وعندما ضرب الحصار حول المدينة وبدأت الإمدادات فى التناقص عدل الصليبيون من أسلوب حياتهم فكوفئوا بالاستيلاء على المدينة وبمجرد استتباب الأمر بدأوا من جديد علاقاتهم مع نسائهم الفاجرات فكانت النتيجة الحتمية ، كما يذكر المؤرخون عن اقتناع كاف وصول جيش " كربوغا Kerbigha ليحاصر الصليبيين داخل أنطاكية ، ومرة أخرى قوم الصليبيون سلوكهم وعندما فعلوا ذلك نصرهم الرب على كربوغا ، هذا الأسلوب ظل قائماً حتى بعد انتهاء الحرب الصليبية الأولى واستمر الإسراف الجنسى وفسوق المستعمرين اللاتين يتخذ كمبرر للانتكاسات العسكرية التى واجهوها . (٧)

وفى معركة الحرية والدفاع عن الوطن التى دارت على أرض العرب ضد الغزو الصليبى قامت المرأة العربية بدورها كاملاً وهو دور البطولة والشجاعة والفداء الذى سجله لها التاريخ فى جميع العصور .

من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أنه عندما هاجم الباطنية – الذين كانوا أحياناً أشد خطراً على المسلمين من الصليبيين أنفسهم – حصن شيزر ارتدت أم ليث الدولة يحيى زردية وخوذة ، وتسلحت بسيف وترس وشاركت فى القتال وأخذت تستحث الشبان على الصبر فى القتال ، بل إن والدة أسامة بن منقذ زودت ابنتها الكبرى بالسلاح وأمرتها بالخروج للقتال وبذلك أظهرت نخوة " أشد من نخوات الرجال " على حد تعبير أسامة نفسه .

ولم يقتصر أمر القتال على الشابات المسلمات فحسب بل يروى أسامة أن عجوزاً من جوارى جده يقال لها فنون أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وأبلت فيه كذلك يروى أسامة بن منقذ كيف أن امرأة عربية من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين واحداً بعد آخر وكلمت أسرت واحد حبسته فى بيتها حتى اكتملوا ثلاثة وعندئذ استعدت جيرانها ليتسلموهم . (٨)

وأبرز مثل للتسامح الدينى بين المسلمين والصليبيين نراه فى تصرفات الإمبراطور فرديريك الثان (١١٩٨–١٢٥٠م) فلم يشأ الدخول فى حرب ضد المسلمين ببلاد الشام ، ولا نستبعد حدوث ذلك من الإمبراطور الذى حرص على تشجيع الحياة الثقافية فى مملكة صقلية ولا عجب فى ذلك فقد كان " محباً للحكمة والمنطق والطب مائلاً إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية وغالب أهلها مسلمون ، وقد أجمعت المراجع المعاصرة على أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية على يد معلم عربى فى صقلية وبذلك أصبح بلاطه مركزاً لحركة علمية واسعة واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين ، فضلاً عن اليهود الذين اشتغلوا تحت رعايته بترجمة كتب الفلسفة العربية ، وتصرفاته فى بلاد الشام كانت خير دليل على شعوره

تجاه الإسلام والمسلمين فقد حرص خلال وجود فى بيت المقدس على زيارة المشاهد الإسلامية وعند دخوله ساح الحرم الشريف فى مارس عام ١٢٢٩ م شاهد رجلاً من رجل الدين المسيحى بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقسى للتسول من الحجاج فغضب الإمبراطور وبادر إلى طرده فى قسوة وأصدر أوامره ألا يجتاز أى قسيس مسيحى عتبة الحرم الشريف دون إذن من المسلمين سوف يكون جزاؤه الموت . وبينما كان يطوف بقبة الصخرة رأى العبارة التى نقشها صلاح الدين فى الفسيفساء حول القبة وهى : " وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين " ، فسأل مبتسماً " ومن هم المشركون " كذلك عندما لاحظ الإمبراطور وجود أسياخ على النوافذ أخبره بأنها لم تثبت إلا لترد العصافير ، فقال : " قد أتى الله إليكم بالخنازير " مستخدماً بذلك اللفظ الدارج الذى يطلقه المسلمون على المسيحيين ، وكان بحاشيته جماعة من المسلمين منهم معلمه الذى كان يقرأ له المنطق والفلسفة وهو عربى من صقلية لأنه لمت دخل وقت الظهر وأذن المؤذن سارع جميع من معه من المسلمين بأداء الصلاة ، ولما أطال الإمبراطور البقاء فى القدس وحل موعد صلاة الفجر لم يسمع صوت المؤذن ولما استفسر عن السبب قيل له أن السلطان الكامل الأيوبى أصدر أوامره إلى القاضى شمس الدين قاضى نابلس – مرافق الإمبراطور خلال الزيارة – بعدم إقامة الآذان طيلة وجود الإمبراطور بالمدينة ، " إعظاما للملك واحتراماً له " فرد عليه الإمبراطور مستاء أخطأت فيما فعلت ، والله أنه كان أكبر فرضى فى فى المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل ومن الممكن إضافة سبب آخر دفع فردريك الثانى إلى التقرب من المسلمين والإسلام هو كرهه للبابوية والكنيسة الغربية تلك الكنيسة التى ناصبت آباءه وأسلافه العداء والتى كرست جهودها لسحق الإمبراطورية فى الغرب ، وقد ظهر هذا الشعور واضحاً خلال وجوده فى الشام عندما ناقش مسألة الخلافة

مع القاضى شمس الدين وحقيقة مركز الخليفة عند المسلمين فأوضح له شمس الدين أن الخلافة العباسية تنحدر أصلاً من العباس عمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأنها لازالت فى عقبه وعندئذ أجاب فردريك بأن هذا النظام رائع ويفوق – إلى حد بعيد – نظم أولئك الحمقى المسيحيين فالمسيحيون يختارون البابا زعيمهم الروحى الذى لا تربطه أدنى صلة بالمسيح وهنا تحدث الإمبراطور عن النزاع بينه وبين البابا وأحقيته فى السيادة على الباب إذ أنه كان متحرراً من روح الحماس الدينى المتطرف السائد فى عصره من جهة ومتبيناً عادت المسلمين من جهة أخرى ولهذا عنفه الباب ولامه . (٩)

وثمة مشروع زواج كان سيعمل على تتويج علاقات التآلف والمودة بين المسلمين والصبيين ذلك المشروع هو زواج الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى أخى صلاح الدين بالأميرة الإنجليزية جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد ، ففى الوقت الذى فتح فيه ريتشارد باب المفاوضات مع صلاح الدين أناب الأخير أخاه الملاك العادل فى مفاوضة ريتشارد وقد تعثرت تلك المفاوضات بسبب تمسك ريتشارد على إرجاع مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قبل موقعه حطين ، وليس أبلغ من إجابة صلاح الدين على ذلك بقوله " القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فى تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ولم يقنط ريتشارد من تمسك صلاح الدين وصلابة راية رغم أن فكرة تحقيق السلام بالطرق الدبلوماسية جديدة على العصور الوسطى والجديد دائماً يتطلب الصدر والحكمة ومعالجة الموضوع من زوايا أخرى وبطريقة جديدة ويكون عمل العاطفة فيها أقوى من العقل فأعفذ ريتشارد رسوله إلى الملك العادل يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر عام ١١٩١ م (٢٩ رمضان ٥٨٧ هـ) يقترح عليه زواجه من أخت ريتشارد أرمل وليم الثانى

ملك صقلية على شرط أن يكون القدس وما مع المسلمين للعادل وعكا وما مع الصليبيين لجوانا ، وأيضاً على شرط أن يحكم العادل البلاد وتقيم زوجته جوانا فى القدس وبصحبتها القسس والرهبان فقط وأن يرضى العادل قادة الصليبيين الشرقيين وهيئتى الداوية والاستبتارية ببعض القرى ، ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيباً كبيراً ، ورأى فى ذلك عين الصواب ، وشاور أخاه السلطان صلاح الدين فوافقه وقبل الفكرة ورحب بها ، ولم تلبث أن ظهرت العقبة الكأداء فى سبيل تنفيذ هذا المشروع ولكنها لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد قلب الأسد وإنما أتت من جانب الأميرة جوانا التى أبت أن تمكن مسلماً من غشيانها ، كذلك طلب ريتشارد من الملك العادل أن يعلن اعتناقه للديانة المسيحية ، ويروى أبو شامة أن بعض الفرنجة خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل وعنفوها وقالوا لها ما معناه " هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة وقطع على النصرانية وقطيعة وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة " ، وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرف النظر عن الموضوع ، ويرى لين بول أنه ليس ثمة شك فى أن مشروع زواج العادل من جوانا يرجع إلى عامل الصداقة الحميمة المتبادلة بين ريتشارد والعادل ، وليس أدل على الصداقة المتبادلة بين العادل وريتشارد أنهما كانا يجتمعان ويتجاريان حديث الصلح وفى إحدى المرات طلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك . وعلى أية حال فإن فكرة زواج العادل من الأميرة الإنجليزية فكرة طريقة وجديرة بالذكر فهى توضح مدى تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين وتدل أيضاً على التقارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام من جهة وروح التسامح التى أخذت تسود فى بعض تصرفات الفريقين من جهة أخرى . (١٠)

أما فى الجانب الاجتماعى فإن تأثير الصليبيين كان عظيماً بما شاهدوه من نواحى الحضارة العربية من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية التى شاهدوا نماذج طيبة منها فى بلاد الشام مثل معرة النعمان والمعروف أن وظيفة الحمام فى مجتمع العصور الوسطى العربى لم تقتصر على الاستحمام بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من الجسد ، وهى العملية التى قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلانة بالنسبة للنساء ولم يلبث أن أدى إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية إلى ترددهم عليها طلباً لنظافة الجسد بل إن بعضهم كان لا يجد غضاضة فى أن يحضر زوجته للحلاق العربى فى الحمام ويطلب منه تحفيفها .

وبعد .. فإن الحركة الصليبية لم تكن مجرد حروب ، لقد كانت بالنسبة للوطن العربى تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات .. تجربة أثبتت للعرب جميعاً فى المشرق والمغرب أن وحدتهم هى الملاذ الذى يلوذون به وقت الخطر والعاصم الذى يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين .

وكانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوروبى مغامرة فاشلة كلفته كثيراً من التضحيات فى الأرواح والأموال التى ذهبت عبثا لأن منطق العدوان لا يمكن أن ينتصر وسياسة البغى لا يمكن أن تنجح فى أرض عربية عرف أهلها بالحرص على حريتهم وحرية بلادهم .

وأخيراً فإن الحركة الصليبية كانت بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب لقاء مكن الغرب الأوروبى من النهوض من سباته الطويل والأخذ بأسباب حضارة زاهرة تعرف عليها فى أرض العرب . (١١)

هوامش الفصل السادس
الجوانب الحضارية بين المسلمين والصليبيين

١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، (القاهرة : ١٩٦٤) ص
وعن القضية انظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٤٣

١١) محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، (القاهرة : ١٩٧٩) ، ص ٢٣٠ – ٢٣١
وانظراً أيضاً :
سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ١٤٦
رنسيمان (ستيفن) : الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٨١٩
فليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ .
سعيد عاشور : النهضات الأوروبية ، ص ١٨٠

١٢) سعيد عاشور : أواء جديدة ، ص ٨٨ – ٩١
محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩

١٣) محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٣١ – ٢٣٢

وانظر أيضاً :
جروينباوم (جوستاف) : حضارة الإسلام ، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، (القاهرة : ١٩٥٦) ، ص ٧١
ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : د. جمال الشيال ، (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ٩٨ .

١٤) محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية ، (القاهرة : ٢٠٠٠)

وانظر أيضاً :

عبد المعطى الجلانى : التأثيرات الإسلامية فى عمارة العرب فى العصور الوسطى ، مجلة عاديات حلب ، جامعة حلب ، (١٩٧٥) ، جـ ١ ، ٢٧٧ .

١٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

سعيد عاشور : أضواء جديدة ، ص ٩٦ – ٩٧ .

محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

١٦) حسن عبد الوهاب حسين : مقارت وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية ، (الإسكندرية ، ١٩٩٧) ، ص ١٧٤ .

١٧) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٢٤ .

سعيد عاشور : أضواء جديدة ، ص ٧٨ – ٩٧ .

١٨) محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

وانظر أيضاً :

سعيد عاشور : النهضات الأوروبية ، ص ٢٣ .

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٦٥٥ – ٦٥٦ .

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ٢٣١ .

١٩) محمود الحويرى : العادل الأيوبى ، (القاهرة : ١٩٧٩) ، ص ٤٠ – ٤٣ .

محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .

تدريبات على الفصل السادس

السؤال الأول : **اكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن:**

الطب كمظهر من مظاهر الاتصال الحضاري بين المسلمين والصليبين

السؤال الثالث: **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة**

١ – ترجم ستيفن الانطاكي كتاب كامل الصناعة الطبية عام ١٢٢٧م.

٢ – تأثر الصليبيون بالعمارة الإسلامية.